عبدالله القصيمي

عاشق لعار التاريخ

منشورات الجمل

عبدالله القصيمي (١٩٠٢-١٩٩٥) أول رجل دين وهابي، من الرعيل الأول، نزع ثوبه الديني، بعد ممارسة طويلة. وقد أقام لسنوات طويلة في الخارج، خصوصاً في بيروت والقاهرة. له العديد من المؤلفات منها: البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية (١٩٣١)، الثورة الوهابية (١٩٣٦)، الصراع بين الاسلام والوثنية (١٩٣٧)، كيف ذل المسلمين؟ (١٩٤٠)، هذه هي الأغلال (١٩٤٦)، العالم ليس عقلاً (١٩٦٤)، أيها العقل من رآك؟ (١٩٦٤)، عاشق لعار التاريخ (١٩٦٣)، كبرياء التاريخ في مأزق (١٩٦٦)، هذا الكون ما ضميره؟ (١٩٦٦)، العرب ظاهرة صوتية (١٩٧٧).

عبدالله القصيمي: عاشق لعار التاريخ

الطبعة الأولى، كولونيا - المانيا

Postfach 600501
50685 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763

الفهرست

إن الثوار لا يمكن أن يصنعوا الحرية، إنهم أبداً خصومها. ولكـــن الحرية تحفر طريقها بلا تشريع، بلا ثورة، كما يحفر النـــهر مجـــراه، بمواصلة السير في جوف الصخور والتراب، بمقاومته الطبيعة.

ان الحرية لا توجد بالإرادة، أو الخطة، أو الأمر.

ان الحرية توجد بالتعامل مع الأشياء الصعبة، والمتناقضة والمضادة.

ان الحرية هي التعود على السير في طريق مســـدود بالمتناقضـــات والأحزان.

اننا نتعلم الحرية كما يتعلم الأعمى السير بين حقـــول المـــهالك مبصراً بعصاه.

عيناي... ليستا حجراً

اني أنقد لأني أبكي وأتعذّب... لا لأني أكره وأعادي.

اني أنقد الإنسان لأني أريده افضل... اني أنقد الكون لأنه لا يحترم منطق الإنسان...

اني أنقد الحياة لأني أعيشها بمعاناة، بتفاهة، بلا شروط، بلا اقتناع، بلا نظرية.

إن عدوا متوحشا ضاريا ليغزو العالم اليوم، يغتال كرامته وذكاءه وحريته وكبرياءه، انه يحطم فيه جميع مستوياته الإنسانية...

ذلك هو جهاز الحكم المطلق، المتعاظم القوة والبطش... ذلك هو ما يعد من فنون دعائية ضخمة حديثة، شديدة التوتر والضجيج والبذاءة... ما يعد من أساليب بوليسية حادة الفتك والتعصب، والغرور والغباء، والخوف والإذلال.

ان كل أعداء الإنسان في كل تاريخه، هما الحاكم والطبيعة... الطبيعة التي هي أيضا كل أصدقاءه.

هل هذا العدو الغازي المتوحش يزداد قوة أم ضعفا...؟

هل هو تعبير عن حالة متغيرة ذاهبة، أم عن ضرورات محتومة ثابتة...؟

هل هو تعبير عن تاريخ الإنسان، أم افتراء عليه...؟

هل تعاظم بيننا هنا لأننا كنا صغارا، أم لأننا أصبحنا كبارا...؟

هل اصبح كذلك، لأننا كنا نحكم من خارجنا... أم لأننا أصبحنا نحكم أنفسنا؟

اني اشعر بالإرهاق... اني انظر إلى المستقبل بارتجاف، لأني لا اعرف هل هذا العدو يزداد قوة أم يزداد ضعفا... هل هو ضيف مسافر، أم مواطن مقيم؟

اني اشعر بإرهاق... اني انظر إلى الغيب بارتجاف.

لقد سقط عصر الآلهة التي لا تملك إلا التعاليم المتوحشة، ليجيء عصر الحاكم والمذهبية، والزعامة والدولة الشاملة التي تملك كل أسباب القتل والإذلال، والإغواء والحشد.

اني اشعر بالإرهاق... اني اشعر بالإرهاق.

*

انه كلما طال الليل خفنا النور، عاديناه... حاربنا الشمس.

إننا ننسى بلا بكاء، ما نفقده شيئا فشيئا... ان الذين يعيشون بلا نهار، لن يبكوا الشمس إذا قتلها الطغاة... إذا سرقها اللصوص.

انه لا شيء نرفض ان نكونه... انه لا شيء نرفض التنازل عنه...

ان الغباء والهوان والدمامة والحقارة، إنها تتحول بالرؤية والممارسة المستمرتين إلى عبادة... إلى جمال... إلى مجد... إلى منطق.

انه لا صيغة محتومة لما يمكن ان نكونه، لما يمكن أن نريده، لما يمكن أن نقبله، لما يمكن أن نقتنع به، لما يمكن ان نحوله إلى مذهب، إلى نظام، إلى صورة اله، إلى عبقرية اله.

*

ان جبين الأرض لأقرب إلى شفتي الإنسان، من جبين أي نجم في السماء.

ان أقدام البشر لتجد القدرة على الهبوط إلى أوحال الأرض، اكثر مما تجد القدرة على الارتفاع إلى هامة الشمس.

ما اتعس حظ الإنسان. ان آباءه، وشرفه، وذكاءه، ومقامته، ليست أتقوى من ضعفه، من غباءه، من ضروراته، من استعداده الدائم للسقوط.

ما اصعب الاحترام للنفس. ان كل صاعد مستعد دائما للهبوط. ان كـــل الصاعدين، هم جميعا في طريقهم إلى الهبوط... ان الهبوط هو اللغة العالمية، هو اللغة الكونية التي تفسر بها كل لغات الصعود.

اني لا العن الإنسان لسقوطه... اني ارثي له... اني ارثي له مخطئا وملوثـــا، كما ارثي له متألما، ومشوها، كما ارثي له حزينا.

اني لا العن الإنسان... إني ارثي له دائما.

انه يخطئ ويسقط، لأنه ضعيف... لا لأنه شرير. ان الـــذي يســـقط، أو ينحرف، أو يضل، إنما يفعل ذلك لعجز في تفكيره، أو في مقاومته الأخلاقيـــة، أو لأنه واقع تحت ضغط ظروف أتقوى منه... وهل يلعن من كان ضعيـــــف البدن إذا أصابه المرض لأنه ضعيف البدن... هل يلعن من خضع للمرض لأنـــه ضعيف... هل يلعن من لم يفهم اصعب القوانين الرياضية لأنه ناقص الذكاء... هل يلعن من لم يكن بلا شهوة، لأن له أعضاء تجوع وتهضم الطعام وتهضـــــم المعصية؟

*

إن القاتل مظلوم ومجني عليه، مهما بدا جانيا... إن القاتل مظلوم اكثر مـــن القتيل. لقد ظلم القاتل ظلما متعاقبا... لقد وقع تحت ظروف القتـــل فقتـــل، فعوقب، أو كان خليقا أن يعاقب. إن وقوعه في قبضة هذه الظروف ظلم لـــه أول، إن خضوعه لها ظلم لها ثان، إن مجازاته ظلم ثالث.

ان القاتل مقتول بكونه قاتلا، لقد وقع عليه أن يكون قاتلا، كما وقع على المقتول أن يكون مقتولا. إن كليهما – القاتل والمقتول – مظلوم أو مقتـــول،

فمن الظالم فمن القاتل... أيهما القاتل: السيف أم اليد التي تهوي بالسيف، أم هو الجسم الذي تهوي عليه اليد والسيف...؟

*

اني ارثي لكل البشر، لكل الأحياء، انهم جميعا مظلومون مقتولون، حينما يبدون قاتلين ظالمين.

إن كل سبب هو نتيجة، إن كل قاتل هو مقتول، إن كل خالق هو مخلوق. فهل يوجد قاتل ليس مقتولا... فهل يوجد خالق ليس مخلوقا... فهل توجد نتيجة ليست سببا؟

أيهما المسؤول عن الارتباط بالآخر: الشمس أم الأرض. أيهما المسؤول؟ هل الخالق قادر على أن يكون غير خالق... هل المخلوق قادر على ان يكون غير مخلوق... أيهما اقدر على أن يكون غير ما كان؟

أيهما الفاسق، أيهما افسق: القلب الذي افتتن، أم الوجه الذي فتن؟

أيهما الفاسق، أيهما الأفسق: الوجه الذي صنع الغواية، أم القلب الذي أصابته الغواية...؟

أيهما الفاسق، أيهما الأفسق...؟

*

ان قوما يرتبطون بمذهب أو نظام أو عهد فيدافعون عن جميع ما فيه... فيدافعون عن كل جنونه وأخطائه، ويلعقون كل حماقاته ونزواته بغبطة.

ان قوما آخرين يقفون نفس الموقف، بنفس الحماس والإصرار، من مذهب أو نظام أو عهد آخر.

فمن هم الأحرار... من هم العملاء...؟

إن هؤلاء وهؤلاء ليسوا أحراراً، انهم عملاء... يرتبطون بالشيء أو نقيضه خاضعين للظروف، أو للمصلحة، أو للهوى، أو للحساب الدقيق، أو للحساب الخاطئ.

ان العالم مملوء بالعملاء، فهل يوجد فيه أحرار... هل يوجد في العالم أحرار...؟

الأحرار هم الذين يرون ذنوب مذاهبهم وأربابهم، بالمستوى الذي يرون فيه مزايا هذه الأرباب والمذاهب. ويرون الأرباب والمذاهب الأخرى، بالمستوى الذي يرون به أربابهم ومذاهبهم.

فهل يوجد أحرار على هذا المستوى... هل يوجد أحرار...؟

ولكل هل للأحرار أرباب من أي نوع وعلى أي مستوى... وهل يكون حرا من يكون له رب مهما ناقشه ومارسه... وهل يوجد من ليس له رب...؟

*

انه ليس الواقف في ضعف الثوار، إلا إنساناً لم يجد مكانه الملائم في الصف المقاوم للثورة... ان الثائر ليس إلا إنساناً منفيا إلى الثورة.

انه ليس الواقف في الصف المقاوم للثورة، إلا إنساناً لم يجد مكانه الملائم في الصف الثائر... ان المقاوم للثورة ليس إلا إنساناً منفيا إلى مقاومة الثورة.

إن الملائمة هي دائما حالة، إنها ليست نظرية. ان الحالة تفسر النظرية وتصنعها وتقودها، ولكن النظرية لا تصنع الحالة، ولا تقودها ولا تفسرها.

*

إن من يهجو طاغية وهو راكع تحت أقدام طاغية آخر أعتى، لهو مادح للطغيان بأسلوبين، بلغتين.

قد يكون نقد الفساد في قوم إنما يعني الدفاع عن الفساد في قوم آخرين.

قد يكون الهجاء مدحا... قد تمدح قاتلا أو شريرا بهجاء منافسيه... قد تذهب تقاوم أو تعلن عدوا للحرية، وأنت مجند تحت أعتى علم للعبودية، قد تحسب انك بذلك قد أصبحت حرا... قد أصبحت نبي الأحرار... قد تنام حينئذ على بساط واسع، مريح، من الرضا عن النفس.

قد يكون تحطيمك لصنم ما، تشييدا لصنم اعظم... قد يكون هذا هو قصدك... قد يكون البشر كلهم مثلك، لا يحطمون الأصنام، لا ينوون تحطيمها، لا يطيقون تحطيمها وإنما يتوزعون، يتنقلون بين أصنافها بلا حرية، بلا كرامة.

هل الأوثان اختيار أم حظوظ؟

هل البشر يختارون أوثانهم، أم الأوثان تتقاسم البشر بالقوة والحظوظ؟

هل مذهبك أو ربك افضل من مذهب أو رب جارك وخصمك بالاختيار والذكاء أم بالقدر؟

هل الاختيار والذكاء بالاختيار أم بالقدر؟

هل القدر بالاختيار أم بالقدر؟

*

ليس في أعداء الإنسان ما هو اكثر وحشية من المجد.

إن المجد هو أتقوى أعداء نفسه... إن المجد يفترس نفسه في مواكب من العناق، والابتسام، والدوي... انه يقتل كل ما في الإنسان من ذكاء، ورؤية، وضمير، وحضارة.

إن المجد الباذخ، يقتل الرؤية، انه يقتل كل وسائل الاتصال بالأشياء... بالآخرين.

إن اكبر عيوب المجد ضعف حواسه... انه لا يرى، انه لا يســـمع ســـوى نفسه، سوى صوته...

انه لا يرى، انه لا يسمع .

إن كبرياء النجوم... إن بريقها... إن شموخها ليختطـــف ذوي الأمجــاد الصاعدة الوليدة.

انه ليرتفع بهم فوق الأرض، فوق غبارها، فوق ما فيها من آلام وأحـــزان، وآهات ومظالم وجماهير... انه يشدهم بعيدا، بعيدا، فلا يسمعون إلا هتـــاف الكواكب، إلا ترحيبها بهم، إلا غناءها لهم كأنها عرائس من عالم العوانس تزف نفسها إليهم في جنون من الحب، من التخلي عن الوقار، عـــن الاحتشـــام... وكأن جميع وحدات هذا الكون، ليست سوى وصـــائف تجمعـــن وتزيـــن، ليحضرن هذا الزفاف، ليهتفن له، ليحتفلن به، ليرقصن فيه، لـــيرقصن علـــى شرف المزفوفين ومجدهم... كأنهم هم وحدهم في هذا الكون السعيد الهـــاتف بمقدمهم العظيم.

انهم لا يسمعون في صراخ المعذبين، في آهاتهم، إلا هتافا بالمجد... إلا هتافـا لمجدهم بالخلود.

ان الكون كله، بكل ما فيه ليس إلا قصيدة غزلية أبدعتها شاعرية الآلهـــة، لتكون صلاة أبدية في تمجيد هؤلاء المؤمنين بمجد أنفسهم... في تمجيد هـــؤلاء الذين يريدون ان يحولوا كل شيء، حتى احتمال الابتسامة في قلوب الأطفـــال إلى مجد لهم... إلى مجد شرير... إلى مجد... قاتل... إلى مجد أعمى بليد.

ان المجد الوليد الصاعد، هو أحد الوحوش الشريرة التي عانى منها الإنســـان في كل تاريخه...

انه أحد أسباب الجنون في العالم... انه اخطر أسباب الجنون. انه الهمجية الدائمة، انه همجية البداوة، انه همجية الحضارة... انه الهمجية الدائمة.

*

اني اشعر بعطف شديد على الكلمة، ان جميع الناس يظلمون الكلمة... انهم جميعا يشوهونها. انهم جميعا يصنعون منها اجمل النعوش لأقبح الجثث، انهم يضعون كل أكاذيبهم وتشوهاتهم، في توابيت مزخرفة من الكلمات، من الشعارات.

ان الوحل ليتكلم بلغة الزهر... ان الأرنب ليتكلم بلغة الأسد... ان الليل ليتكلم بلغة النهار... ان الدجال ليتكلم بلغة النبي... ان المهرج ليتكلم بلغة البطل... ان أي شيء يتكلم بلغة كل شيء...

إذن أيتها الكلمة متى تكونين كلمة... متى تكونين كلمة...؟

في كل عصر كان يعتدي على الكلمة، ولكن عدوان هذا العصر عليها لا مثيل له في وحشيته، وجنونه وبذاءته.

ان الناس لا يعيشون الكلام، إنما يلبسونه.

ان الحقيقة المتوارية وراء أية كلمة، هي نفس الحقيقة المتوارية وراء كل كلمة.

ان الذي يقول باسم الاله افعل، لا يعني إلا ما يعنيه من قال باسم الشيطان افعل... إن كليهما يفعل باسم ذاته، لحساب ذاته، لا باسم الاله أو الشيطان... ولا لحسابهما... ان كليهما يفعل بلا اله تحت اسم أي اله.

ان الكلمة هي اشهر شهيد في التاريخ. إنها اشهر ملوث... اشهر ملوث به... إنها اشهر مكذوب عليه... اشهر مكذوب به.

*

ان كل دموع البشر تنصب في عيوني...

إن كل أحزانهم تتجمع في قلبي...

إن كل آلامهم تأكل أعضائي...

ليس لأني قديس، بل لأني مصاب بمرض الحساسية... بمرض الانتقال إلى الآخرين... إلى أحزانهم... إلى آلامهم... إلى آهاتهم المكتومة والمنطوقة... إلى عاهاتهم المكشوفة والمستترة.

اني انقد الإنسان بقسوة لأني أتألم له... لأنه ليس سعيدا كما أريده، ليس عظيما كما أريده، ليس نظيفا كما أريده.

إني أريده فوق ما هو ما هو، فوق ما هو...

ليس لأني قديس... بل لأني متألم، لأني متألم.

اني أريد الابتسام والسرور لكل القلوب، لكل الوجوه، فلا أجد ما أريد... فأثور أنكر، أعاتب الكون والحياة، لأنهما لم يعطياه، لأنهما لم يحترماه، لأنهما لم يرحماه، لأنهما لم يسألاه.

اني اعتذر عن الإنسان... إني اشترط له، حيث يبدو أني أهاجمه، أني أحقره.

اني اغضب من اجل الإنسان.

ليس لأني قديس... بل لأني حزين، لأني حزين.

*

اني أتعذب للحياة في كل الأحياء، في الإنسان، في الوحش، في الذبابة، في جرثومة المرض التي تقتات بحياتي.

ليس لأني قديس... بل لأني كائن حي يتصور العذاب، يجربه، يعيشه، يراه بقسوة.

*

اني لأحس بدموع البرغوث تتقاطر في عيني... وبأحزان الذئب تتكلـــم في أعصابي... وبهموم العدو تعيش في همومي.

ليس لأني قديس... بل لأني ضعيف، لأني ضعيف.

*

اني ضعيف...

لهذا أدرك بعمق، آلام الأحياء، وأخطاء الكون وغباء الحياة.

إني ما رأيت إنساناً يبكي إلا أحسست ان الإنسان الذي في داخلي يبكي.

إني ما رأيت حيوانا مفترسا يجوع، إلا أحسست ان حياتي هي التي تجوع.

إذا رأيت وجها حزينا، وجدت، الحزن في أشعة الشمس، في أريج الزهـــر، في غناء الطير... وجدته في ضمير الاله، لأني وجدته في فكري، ورؤيتي، وكل مرئياتي.

اني احزن إذا رأيت محزونا.

إني احزن إذا رأيت مسرورا لأنه يذكرني بالمحزونين... يذكـــــرني بـــأنهم الأكثرون، فأحزن أمام الحزن، واحزن أمام السرور... اني أشقي بكـــــل آلام العالم... بكل مسرات العالم.

ليس لأني قديس... بل لأني إنسان.

*

اني أرى واشعر بالكره مني.

اني أرى الدمامة والألم بالكره مني، فأصبح واحزن بالكره مني... فـــانتقد بالكره مني.

اني لا أرى... ان الأشياء تسقط في عيني، في مشاعري، في أفكاري.

ليت العالم والإنسان بلا دمامة، بلا ألم يشوهان المرئي، يعذبان الرائي.

ليتني لا أرى ما في العالم، لا أرى ما في حياة الإنسان من ألم ودمامة لئلا أتعذب، لئلا أكون ناقدا، لئلا أكون حزينا، لئلا أكون ناقدا للحزن.

ليت عيني خلقتا من الصخر، ليت مشاعري خلقت من بلادة الشمس...

ان الحزن والبكاء هما أنبل العواطف الإنسانية، أمام مواكب العذاب والتفاهات التي لا نستطيع لها علاجا...

ما افظع ان تكون مبصرا وقارئا، ثم لا تكون حزينا ولا ناقدا...

ما افظع ان تكون عاجزا عن المقاومة، عاجزا عن الحزن والبكاء، عاجزا عن الغضب والرؤية...

ما افظع ان تكون إنساناً لا يرى، لا يحزن، لا يغضب، لا يحتج...

ان الإنسان هو وحده الذي يبكي، وحده الذي ينقد، وحده الذي يفكر، وحده الذي يتعذب بالرؤية والتفكير، والخيال والنظرية، هو وحده الذي يرى دمامة العذاب، وقاحة اللذة.

*

دعوني ابكي، فما اكثر الضاحكين في مواقف البكاء...

دعوني احزن، فما اكثر المبتهجين أمام مواكب الأحزان...

دعوني انقد، فما اكثر المعجبين بكل التفاهات...

دعوني اعبر عن أحد جانبي الحقيقة، فما اكثر المعبرين عن الجانب الآخر...

دعوني اذرف الدموع، فما اكثر من يبكون بلا دموع...

دعوني انقد الكون، فما اكثر المؤهلين لأخطائه...

دعوني أزعجكم، فان جميع ذنوب العالم وآلامه، تعبر فوق أعصابي، لتنصب في أفكاري...

دعوني احتج عليكم أيها الصامتون عن الرؤية، عن الاحتجـــاج، فـــانكم تصنعون لي كل الألم، كل الحزن، تصنعون لي كل الغيظ...

دعوني أتعرى بالاحتجاج عليكم... دعوني أعـــالج آلامـــي وأخطـــائي، بالتحدث عن آلامكم وأخطائكم...

دعوني...

دعوني...

دعوني...

قالت الثورة للحرب

الروحانية تعبير عن المشكلة لا حل لها.

ان معنى الروحانية ان تواجه موقفا لا تستطيع ولا تعرف كيف تعالجـــــه، فتلجأ إلى الفرار منه والى تجميده.

ان من وراء كل تعبير روحي مشاكل غير محلولة، مشاكل مجمدة.

ان من وراء كل ظاهرة روحية، مشكلة غير روحية.

إذا كانت المشكلة وجودا ماديا فكيف تعالج بالروحانية، وهي لا تعطـــــى قدرة على العلاج ولا معرفة به...؟

انها هي الفرار من القدرة، من المعرفة... انها البديل عنهما!

ســـذاجة عجيبـــة

وضع زعيم كبير من زعماء العرب منذ سنوات، كتابا يعالج بـــــه جميـــع مشاكل العالم، ويعالج باهتمام اكبر، مشاكل الحرب والسلام والاخلاق. وقـــد كان المؤلف سخيا ونبيلا جدا في رؤيته للأمور، وتهوينه للمشاكل الصعبـــــة، وتسامحه الفكري أمام وحشية الأشياء وتعقيداتها الحمقاء.

لقد تصور الدعوة التي دعا إليها في كتابه رسالة خالدة، وافترض ان علـــى العالم كله ان يؤمن برسالته، لكي ينجو من أخطار نفسه، وأخطار حضارتـــه المادية، زاعما ان هذا هو الطريق الذي لا طريق سواه أمام البشر جميعـــا، إذا أرادوا الخلاص من ويلات الحروب، وويلات أنفسهم، ومن كل الشرور الـــتي يواجهون. وقد سخر من كل علاج آخر غير العلاج الذي قدمه في كتابه. لقد كانت فكرته، أو دعوته، قائمة علـــى أن مشـــاكل الحـــروب والخلافـــات

والعداوات، قد حُـلّت نهائيا وان الشيطان قد مات. ولكن ما هـي هـذه الطريقة التي حلت بها مشاكل لم تستطع جميع عبقريات البشـر وفلسـفاتهم، ونياتهم الطيبة، ان تجد لها حلا؟

ما هي هذه الطريقة التي جعلت الشيطان الخالد يصلب نفسه؟

انها طريقة سهلة جدا، متواضعة جدا. انها في الأرض لا في السماء. انهـا في أذهان الجماهير لا في عقول العباقرة. انها في الجوامع لا في المجامع.

لقد وجد الكاتب أية في القرآن تنهي عن الحرب والخـلاف وتدعـو إلى السلام، فالوسيلة إذن ان يؤمن الناس كلهم بالدين الذي هذه الآية في كتابه... حينئذ يصبحون خاضعين للعمل بها... وحينئذ لا حروب، ولا شـيطان، ولا خلافات، ولا فساد.

سذاجة يحسده عليها الذين تعاملوا مع الشيطان. يحسده عليها جميع الذيـن تعاملوا مع الأحداث والطبيعة... مع منطقها، وضميرها، واخلاقـها الـتي لا تستطيع ان تستمع إلى النصوص، ولا ان تفهمها، أو تحترمها.

ان اكثر قادتنا ومفكرينا ووعاظنا يرون هذا الرأي، ويدعون اليه بأسـاليب مختلفة. ويوجد في مجتمعات أخرى راقية من يقولون مثل هذا القول أو قريبـا منه... يوجد في كثير من المجتمعات المتقدمة حضاريا، من يحاولون ان يعـالجوا حماقات الطبيعة، وجوع الإنسان، وضروراته، بما يشبه السحر.

هل كان يمكن ان تبقى مشكلة واحدة من غير حل لو كانت المشاكل تحل بالأوامر والنواهي والايمان؟ ما أسعد الإنسان أو ما أشقاه لـو كـان الأمـر كذلك... ما أطيب حظوظ البشر أو ما اسوأها لو كانت العلاقات بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين الشمس والقمر، وبينـهم وبـين اعضائـهم تعـالج بالمصاحف... لو كانت المشاكل بين النجوم تحل بالآيات.

ان من السهل جدا ان يبعث الله أنبياء وفي أيديهم مصاحف لا عداد لها، لا عداد لهم، يدعون الناس إلى ان يكونوا كما تريد وتتمنى لهم السماء. ان يكونوا آلهة في مستوياهم العقلية والاخلاقية... ان يكونوا اكثر من آلهة. ان الدنيا حينئذ لجميلة وسعيدة، لو كانت الأوامر تحول البشر إلى ما يريدون. أو لعل الدنيا تكون دميمة وأليمة جدا لو كان الأمر كذلك.

فقدان شيء ما...

ما هي الحرب؟

الها واحدة من ثلاث: خطأ، أو مرض، أو ضرورة ولو وقتية أو نسبية.

لماذا تقع؟

الها تعبير متوحش عن حالة ما من حالاتنا الفردية أو الجماعية، الها استجابة، الها استجابة ما. وحيث تتهيأ أسباب هذه الحالة فلن يوجد ما يجعلها ترفض ان تعبر عن ذاتها. ان انقسام البشر إلى وحدات منفصل بعضها عن بعض، في حدودها المادية والمذهبية، والنفسية والتاريخية، يؤدي بهم لا محالة إلى انقسام مماثل في طاقاتهم الفاعلة. وفي هذا الانقسام البشري قد يوجد، بل لابد ان يوجد قائد مغامر يطمح إلى المجد المحارب، أو قائد مريض متعب، ينطلق إلى ساحة الحرب انطلاقا كأنه سقوط الحجر، لأنه لا يستطيع إلا ان يفعل، كما يرتعش المريض أو يهذي دون ان يستطيع منع نفسه أو تدبر امره. وفي هذا الانقسام لا بد ان تفرض الحرب فرضا على احدى الجماعات أو أحد الشعوب، أو يرى على الاقل الها فرضت عليه، وحينئذ يحارب وهو لا يريد الحرب، أو وهو لا يرى انه قد اتى اثما، بل وهو يرى انه مأمور بها امرا. وفي هذا الانقسام أيضاً لا بد ان ترى بعض الجماعات أو الشعوب، ان الحرب

ضرورة من ضروراتها، كاحتراف التجارة، أو الزراعة، أو الصناعة، حينما تمارسها الأمم أو الآحاد. ان الحرب تقع حينما يعيش الناس ظروفها، ولو ظروفها النفسية، لا حينما يكون لها هدف معلوم أو نبيل. ان أسباب الحروب في احيان كثيرة، ليست افضل أو اكبر من الأسباب التي تجعل الناس يتشائمون أو يتضاربون في الاسواق، استجابة لانفعالات سريعة حمقاء.

وهذه الاسباب التي تجعل قوى الانسانية المنقسمة يقاتل بعضها بعضا، وهي من حيث حدوثها وتصادمها وصيرورتها ملزمة، تشبه الأسباب التي تجعل الافراد يختلفون ويتنافسون، ويعملون اعمالهم المشروعة في النظام الفردي، وكأنهم يتصارعون أو يتقاتلون، سواء في ذلك الصالحون والطالحون. ولهذا فقد تساوى الرجل القديس والرجل الشيطان في الاستجابة لداعي الحرب، ولعل الأسباب التي تجعل القديس راغبا في الحرب، اكثر من الاسباب التي تجعل الفاسد راغبا فيها. فلقد يرى القديس احيانا ان الحرب مفروضة فرضا للدفاع عن الاخلاق، أو العدل أو عن الآلهة والتعاليم المنزلة. انه لو وجد الهان: طيب وشرير لكانت رغبة الاله الطيب في الحرب اكبر من رغبة الاله الشرير فيها، لأن الاله الطيب لا بد ان تثيره وتحزنه الآلام والشرور، وحينئذ يحاول منعها والقضاء عليها بالعنف، بالحرب أو بغيرها. وليس كذلك الاله الشرير، انه لن يغضب مما يرى ويعلم، انه لابد ان يكون متسامحا اكثر.

والكتاب المنزل الذي وجد فيه ذلك الكاتب الزعيم اية تدعو الى السلم، قد ذكر الحروب والقتال وضرب الرقاب اكثر جدا مما ذكر السلم، بل لقد جعل القتال قانونا نكتوبا على البشر في قوله ''كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى ان تكرهو شيئا وهو خير لكم''. وفي اية اخرى استنكر الدعوة الى السلام ونها عنها اذ قال: ''فلا تهنوا، وتدعوا الى السلم وانتم الأعلون، والله

معكم". والمواعظ والنواهي لا تزيل الرغبات ولكنها قد تنحرف بها وتغير مجراها وموضوعها.

ان الحرب محاولة غير مجدية ولا مهذبة، لحل مشاكل نفسية ومادية حقيقية، اقامتها اسباب صحيحة أو باطلة.

ان الحرب عجز لا قدرة، انها قدرة قد وضعها العجز. وان كل خطوة تخطوها الانسانية نحو التكامل المادي تبعد بقدرها عن شرور الحرب. ان الحرب في كل حالاتها ليست إلا عجزا ما، أو ضعفا ما، أو حاجة ما، أو تخلفا ما، انها فقد لشيء ما. ان الحرب لم تكن في كل حالاتها، إلا تعبيرا عن الفقد، عن الفقد لشيء. انها لم تكن في أي وقت تعبيرا عن حالة اخلاقية.

حل بدوي

الحرب حالة بدوية لا حضارية. انها نهاية اعمال التاريخ في مشاعرنا ووجودنا. واذا تحارب المتحضرون فانما يعبرون عما بقي فيهم من بداوة، لا عما وصلوا اليه من حضارة.

كانت تقاليد الانسان، وعقائده، وكل افكاره تمجد الحرب وتراها عملا انسانيا نبيلا، ومقياسا صحيحا لفضيلته وبطولته. وكانت آدابه وفنونه وأديانه هتافا حربيا ضاجا... كانت صلوات متواصلة لاله الحرب، البطل الشرير.

كانت الحياة طريقا طويلا من الدماء سار فيه الإنسان ثملا، ومن حوله الحداة والطبول والشعراء والانبياء، يتغنون بمجد الدم ومجد السيوف.

كانت كل تعاليم البشر قصيدة طويلة في تمجيد القتل والقتال... حتى الاله... لقد كان مقاتلا، لقد تصوره احد دعاة الحرب الكبار. لقد كان، يغفر

كل ذنوب من يقاتلون ولا يغفر لمن لا يقاتل ذنبا... لقد كانت اكبر الذنوب عنده إلا يكون الإنسان مقاتلا.

حتى الاله لقد كان مقاتلا ومن دعاة الحرب... لقد تصوره الها حربيا... اله حرب.

كان الإنسان كلما عجز عن حل مشاكله مع الطبيعة، ذهب يقاتل بعضه بعضا، وذهب يعاقب نفسه. وكان كلما حل مشكلة من مشاكله، استغنى بقدر ذلك عن الحرب وعن افكارها. ولو ان البشر استطاعوا ان ينتصروا انتصارا كاملا على الطبيعة، لما احتاجوا الى ان يصنعوا حربا. ان جميع احقاد الإنسان على الانسان، واختلافه معه، واعتدائه عليه، وبغضه له، انما هو نوع من العجز عن الطبيعة، ومن الغضب عليها، والاحتجاج على ما تصنع به، كأن الإنسان يعتدي على نفسه لكي يعاقب الطبيعة.

كان عدوان الإنسان على نفسه في اساليبه المختلفة انما يعني ان الطبيعة تناقضه وتصدمه، وتوقع به الآلام. وانه هو يحاول ان يقاوم ذلك، ويرفضه، ويعلن سخطه عليه... ان حزن الانسان... ان غضبه... ان حقده... ان حسده... تخاصمه وتشاؤمه... ان تنافسه وتعاديه... ان حروبه... ان ذلك كله، ليس إلا تعبيرات مختلفة عن محاولاته عقاب الطبيعة، ورفضه لما تصنع به، وعن احتجاجه عليها، وعن مقاومته العاجزة الخاطئة لها. انه بذلك انما يحاول ان يطلق اسلحته على عدوه... على الطبيعة، فتتفجر داخل ذاته وترتد اليها. كان العجز يصنع توترا عصبيا، وكان التوتر العصبي يتحول الى غضب، واحزان، وحقد، وخصومة، وسباب، وحرب.

ان العجز عن الانتصار على الامراض والمجاعات والفيضانات، وعن معرفة اسرار الكون، واخضاع قوانينه، ليصنع منا رغبة في الشقاق والعدوان، والقاء

السخط على الآخرين. كما يحولنا الى اعداء لانفسنا، والى معاقبين لها بالعديد من اساليب العقاب، والانفعالات الاليمة هي من اقسى هذه الاساليب المعاقبة للنفس.

ان الإنسان اذا عجز عن ان يكون كما يريد، راح يفعل ما لا يريد. انه اذا عجز عن الانتصار ذهب يصنع الهزيمة.

ان البغض بديل رديء عن المحبة.

ان الحرب بديل رديء عن الانتصار في الحياة.

وان الحرب في كل صورها وظروفها، ليست إلا تفسيرا لانتصار الطبيعة على البشر.

وان السلام هو التفسير المقابل لانتصار البشر على الطبيعة.

ان العالم الذي ينتصر في محاولاته العلمية، لأبعد عن مخاصمة نفسه ومخاصمة الآخرين، من العالم العاجز.

ان غزو الطبيعة، هو احسن مستهلك لانفعالات البشر ولطاقاتهم. ولو ان الدول الكبرى استطاعت ان تسير في انتصاراتها الكونية على مستوى ترضاه هي، لكان ذلك افضل صارف لها عن البغض والعداوة والحرب.

ان الانتصارات على الكون، هي البديل الجيد... هي البديل الجيد للانسان عن مخاصمته ومحاربته، ومشاتمته لنفسه. وهي البديل الجيد عن مخاصمته، أو ملاعنته، ومقاتلته، وكراهته لجيرانه، أو لاي كائنين آخرين يعيشون فوق النجوم.

انه اذا عجز الطاغية عن حل مشاكله، كان ذلك يعني التهديد بالخطر. ومحتوم ان يعجز الطاغية عن حل مشاكله، اذن فحيث يوجد الطاغية يوجد التهديد بالخطر. اذن فالطاغية يعني دائما الخوف والخطر.

ان الحرب والخصومة هما دائما مشكلة وانفعال لم يجدا لهما حلا.

وان الحرب مشكلة طبيعية، لا انسانية ولا اخلاقية.

ان الحرب هي عمل التاريخ في الانسان.

ان البداوة اذن تصنع بتقاليدها، وعقائدها، وكل سلوكها، شعورا حربيا... شعورا يجعل الحرب حالة نفسية دائمة. وكل شيء لابد ان يكون حالة نفسية وفكرية لكي يكون وجودا.

اما الحضارة، فانها تصنع شعورا مضادا للحرب. وسوف يظل هذا الشعور المضاد للحرب، يتراكم ويتراكم، حتى تصبح الحرب شيئا لا يستطاع في أي مجتمع متحضر.

واذا خرجت الحرب، من خيال البشر وتفكيرهم، خرجت من سلوكهم.

سوف يظل الشعور الحضاري المضاد للحرب يتراكم، حتى يصبح التفكير فيها أو في جواز التعالج بها من ضرورة ما، أو في احتمال وقوعها تحت أي ظرف أو خطأ ما... حتى يصبح التفكير في ذلك ليس جريمة أو جنونا فقط، بل شيئا مستحيلا... يصبح التفكير في جواز التداوي بها، أو الاكراه عليها، أو في امكان حدوثها شيئا مستحيلا. ان مشاعر البشر وافكارهم، سوف تتخطى يوما ما طور التفكير في الحرب أو الخوف منها، لاحتمال وقوعها. سينسى البشر معنى احتمال وقوع الحر. ان البشرية التي كأنما اشواق خفية تدفعها في فترات متقاربة الى ان تغتسل بدمائها، لابد ان يأتي عليها يوم تتجمد فيه دماؤها داخل شرايينها، فلا تسيل منها قطرة واحدة تحت قدمي اله، أو جبار أو دجال.

ان الطغاة والزعماء المجانين الذين تطير الباهم دائما وراء الامجاد الحمراء، لا بد ان يخلو مكانهم من هذه الدنيا في يوم قريب أو بعيد، لأنهم لن يجدوا العبيد

أو الجنود المجانين. ولأن النظم والظروف والاوضاع السخيفة التي يتلصصون من خلالها الى غباء الجماهير وخديعتهم، سوف تزول وتنهدم. وهل هذا القول إلا امنية من الاماني السعيدة...؟ ولكن لا طريق لهذا الامل سوى التقدم الحضاري والمادي.

اما التعاليم الروحية، فقد تعلمنا كيف نصبر على الآلام، وكيف نتقبل المشاكل بهوان وغباء، غير انها لا تعلمنا كيف نعالج هذه الآلام والمشاكل. والانسان لن يفقد احساسه بالألم اذا قيل له اصبر على الملك، أو قيل له لا تتألم، أو انك غير متالم. ان الألم لا يعرف اية لغة من اللغات. ان جميع النصائح والاوامر والنواهي، والتحريضات التعليمية، تتحول الى صمت امام الآلام، لأنها لغات. وجميع اللغات تصبح صمتا في مسامع الآلام ولا تعرف اية لغة... انها لا تستطيع ان تتعلم اية لغة... انها لا تعرف ولا تستطيع ان تعرف اللغات.

أنصار السلم أنصار الحرب

ان الحرب والسلم ليسا من عمل الفضيلة والرذيلة، بل من عمل الضرورة، ولو كاذبة. وكذلك الاختلاف والاتفاق والحب والبغض. ان الناس لا يختلفون أو يتفقون، لا يحبون ولا يبغضون، لأنهم اخيار أو اشرار. انهم يفعلون هذا أو هذا، بل يقعون في هذا أو هذا، تحت ضغط الضرورات دون حوافز اخلاقية. ولهذا فقد يدخل الحرب، ويختلف ويتباغض الطيبون والاشرار. من يريدون ذلك ومن يلعنونه، انه حينما توجد ظروف الشيء، يوجد ذلك الشيء. ان جميع الناس يكرهون الحروب ويخافونها، ومع هذا فجميعهم يمكن ان يخوضوها، ويبداوها. ومن اللغو ان يقال: ان قوما من انصار السلام، وقوما من انصار الحرب. ان البشر كلهم من انصار الحرب، أو كلهم من انصار السلام، بل

كلهم من انصار السلام، وكلهم من انصار الحرب كذلك. ان الحرب ليست قانونا من قوانين الحياة، ولا احتياجا، أو ضرورة فيها. انها قد تكون حالة كحالات الجهل، والفقر، والمرض، التي تصيب الإنسان ويحاول الانتصار عليها بالانتصار على مسبباتها، كما يحاول الانتصار على الصحارى والفيضانات، وعلى جميع وقاحات الطبيعة.

ان الحروب والخلافات لا تعالج بفضيلة النفس، ولكن بالتقدم العلمي والمادي والانساني، كما تعالج الامراض وكل مشاكل الحياة. ان المدنية ان كانت تحمل آلاما وتناقضات حادة، فانها كذلك هي التي تحمل علاج نفسها وشفاءها. والحرب هي احدى هذه المشاكل التي لا علاج لها، إلا بالتقدم الحضاري المادي الانساني. وبالطريقة التي عولج بها السلام بين الافراد، سيعالج بها السلام بين الشعوب. لقد كان الأفراد في ازمان قديمة يتقاتلون كما تتقاتل الأمم. انه لم يكن هناك اذ ذاك سلام فردي، والآن قد وجد السلام الفردي على نحو ما، ولم يوجد السلام الدولي، وان كان المفروض ان يوجد يوما ما.

ان المشاكل تعالج بأسبابها الطبيعية لا بالأخلاق، ولا بالروحيات، ولا بالنيات الصالحة. انه لا علاج للحروب والخلافات غير الوسائل العلمية المادية. والذي يصنع الخطر هو الذي يصنع الامان. وكما نمرض ماديا فاننا نتعالج كذلك ماديا. اننا كما نجوع ماديا كذلك نشبع ماديا. وفي طبيعة الحياة ان تعمل ذاتيا، لتتوازن مع نفسها وظروفها وأخطارها، ان في نفس المشكلة احتمالات حلها. انه من الحركة المهزومة تجيء الحركة المنتصرة. انه من صلب الخطأ يتولد الصواب. انه اذا كان الشيء الذي تقدر ان تفعله، تقدر إلا تفعله. وان الذي يجعلك توازن وتجيد الموازنة، وتقدر عليها، وتضع لها وسائل العلاج

هو ان تكون متحضرا وقادرا وعارفا، لا ان تكون فاضلا أو مؤمنـــــا، ولا ان يكون لك كتاب أو مذهب ليطالبك بان تكون كذلك.

ان الإنسان يبارز نفسه اليوم، ويواجهها باسلوب لم يحدث له مثيل في كل تاريخه. انه يتحدى وجوده. وان حياته وارادته لتقفان من علمه موقفا فيه كـل احتمالات الفناء. ولكن كم هي المواقف الأليمة التي اجتازتها حياة هذا الكائن وحولتها الى مزية. ان العلم والحياة والارادة اذا اجتمعت، عملـــت علـــى ان تتعادل فيما بينها، حتى تستطيع السير في اتجاه واحد. لا ان تتصادم وتتحطـــم تحت عملياتها المتناقضة. وهذه الرغبة أو الآلية التي توجه عمل الارادة والحيـــاة والعلم، وتوحدها في الفرد والأمة، ستكون أيضاً موحدة وموجهة لها في الأمم، لتصنع منها اتجاها واحدا لا يتصادم ولا يتحارب.

ان اتساع معارف الإنسان وعلومه المادية من اسباب بقائه وسعادته، لا من اسباب هلاكه وشقائه، فالاحتمالات الطيبة في تقدم العلوم، وفي تقدم كـــــل اساليب الحياة، اكبر جدا من الاحتمالات الرديئة. ان العلم لن يخيفنـــا علـــى حياتنا اكثر مما يخيفنا الجهل، واننا لن نخشى على الآلهة من نفسها لأنها قويـــة وقادرة وعليمة، ولكننا نخشى على الضعفاء والجهال من ضعفهم وجهلــــهم. وأصوات التحذير التي ترتفع دائما فوق كآبة الخطر دليل علـــى ان الإنســـان يعرف كيف ينقذ نفسه مهما ساء موقفه. وإذا كنا لا نخاف على الأسد مـــن قوته، فكذلك لن نخاف على الإنسان من تقدمه العلمي والفني. ان الاســـود لم تنتحر أو يأكل بعضها بعضا لأنها قوية.

وهل خفي على هذا الزعيم العربي الكبير الذي رأى انه قد وجـــد حـــلا لجميع المشاكل العظمى لأنه وجد نصوصا تأمر وتنهي، وتحلل وتحرم، وتدعـــو الى تقبيل القمر بشفاه كل الأنبياء والقديسين... هل خفي على هذا الزعيم، ان

جميع الفلسفات والأخلاق تفعل ذلك، ولكن المشاكل لم تحل، والفلسفات لم تحكم الأرض، مع ان كل البشر يحملون افضل وأصدق النيات والرغبات لأنفسهم، ولكن الرغبات والنيات ليست علاجا. ان الرغبات والنيات الطيبة تتحول الى مشاكل تحتاج الى علاج، وهي لا تكون ابد علاجا.

واذا مرض هذا القلم... اذا اصيب بخلل فكيف اعالجه؟

هل اعالجه بالنية الصالحة، أو بالأخلاق، أو بالروحانية؟

انه بالاسلوب الذي يعالج به القلم يجب ان تعالج جميع القضايا حتى قضية الحرب والسلام. ولو وجد من يقول بأن الخلل الذي يصيب القلم يعالج بالأخلاق، أو بقراءة الآيات والأحاديث، لما في مستوى ذكاء ذلك الزعيم العربي الذي وجد ان مشاكل الحرب والبغضاء بين البشر تعالج بالنصوص التي تنهي عن الحروب وعن الاختلاف والبغض.

الهوى يصنع العقيدة

امران يحركان الإنسان ويجعلان منه محاربا مخالف عدوا تارة، ومسالما موافقا مصادقا تارة اخرى، والأمران هما الارادة والفكر، الفكر ولو كان وهما أو باطلا.

فالارادة تجعله يرفض الاوامر أو يهزمها أو يتخطاها الى مراداته، والفكر يجعله يبرر ذلك، ويسوغ له ان يخالف، انه لم يفعل إلا الحق، و لم يخرج على ما امر به.

انه يحارب ويظلم، ثم يذهب يذكي حربه ومظالمه، زاعما انها الحرب المقدسة، المأمور بها للدفاع عن النفس والحق، زاعما ان الظلم الذي يفعله هو

العدالة الخالدة. والذي يفعله والذي نفعله نريده، والذي نسوغه بالفكر، بالتفاسير الملائمة.

ان النصوص لا تفسر النصوص، ان الإنسان هو الذي يفسر النصوص... يفسرها بشهواته، وظروفه، ومصالحه، وقدرته. ان الشيطان هو دائما الذي يفسر الآلهة ويفسر الكتب المقدسة... انه هو الذي يفسر كل المذاهب والنظريات التي نؤمن بها. ان الآلهة تفسر نفسها ولا تفسر كلامها وتعاليمها.

ان كبار المؤمنين الأتقياء الذين كانوا يتلقون رسالات السماء بايديهم وقلوبهم، كانوا يحاربون الآخرين ويخالفونهم، ويمنحونهم اعنف العداوات والأحقاد. لقد كانوا كأنما يترهون الله ويعبدونه بذلك. ان هؤلاء المؤمنين الأتقياء لم يستطيعوا ان يتجنبوا محاربة امثالهم من الاتقياء المؤمنين، ومخالفتهم وبغضهم، والحقد عليهم، وحمل الحسد لهم في صدورهم المملوءة بالايات والأحاديث وبالوصايا الكثيرة. انهم لم يستطيعوا ان يتخلصوا من الارادة والتفكير، واذا وجدت الارادة والفكر، فمن ذا يستطيع ان يمنع وجود نتائجهما.

ومن الضلال تلك المزاعم الذاهبة الى ان الحروب ما هي إلا احدى سلالات الحضارة المادية، والذاهبة الى ان الحروب لن تعالج أو تحارب إلا بالروحانية، أو بالدين، أو بالأخلاق، أو بالنيات الصالحة، كما يقول كبار القادة والكتاب في العالم... في كل العالم. ان هذه اوهام صغيرة يقولها ويعتقدها رجال كبار. لقد تقاتل اصحاب الأديان، والأخلاق والنيات الصالحة، وتخالفوا وتعادوا. لأنهم كانوا خاضعين للارادة والفكر، لقد تقاتل الضعفاء والجهال ومن لا حضارة لهم لأنهم اختلفوا. فالحروب والخلافات ليست صناعة الظروف الحضارية وحدها، بل صناعة جميع الظروف، لأنها من

مشاكل الإنسان والحياة، لا من مشاكل الحضارة. واذا تحارب المتحضرون أو اختلفوا فليس لأنهم متحضرون، بل لأنهم بشر يحيون. ومهما كثرت اسباب الحرب والاختلاف فالحضارة ليست احد هذه الأسباب... انها السبب المضاد.

وقد وجد المتعبون والعاجزون عن الحضارة، وغير المتكافئين معها نفسيا وفكريا واخلاقيا، والشاعرون بالهزيمة امام المتحضرين. لقد وجد هؤلاء في خلافات الأمم المتحضرة ومشاكلها المستعصية، وتقابلها فرصة ملائمة ليذيبوا مشاعرهم المهزومة الخائفة في لعنات واتهامات، سددوها الى حضارة الأقوياء. وكأن هذا كان يخفف من احساسهم بالهزيمة والعجز ويخليهم من الالتزام المفروض عليهم، كما كان يضعف فيهم حوافز الاقتداء بالمتفوقين.

*

العقيدة ليست قوة، انها لا تصنع نشاطنا ولا تحركه، ان علاقتنا المادية بالأشياء وشعورنا نحوها هما اللذان يصنعان نشاطنا ويحركانه. وليست العقيدة نفسها سوى تعبير عن هذه العلاقة وهذه المشاعر، وظاهرة من ظاهراتها. ان قوة العقيدة ليست في نفس العقيدة، بل في الرغبة التي تصوغ العقيدة. ان اعتقادنا للشيء لا يجعلنا نحمل ذلك الشيء أو نتحمس له، ولكن مدى ارتباطنا النفسي أو الحركي أو الاجتماعي به، هو الذي يجعلنا نعمل ونتحمس. ان العقيدة موات، والحياة للاسباب التي توجد وراء العقيدة.

ان الرغبة هي التي تصنع العقيدة وتهدي اليها، انها هي التي تصوغها وتفسرها، انها هي التي تصنع الحماس لها والتعصب، انها هي التي تقتلها أو تبقيها حية، انها هي التي تنصرها أو تهزمها. انه لا توجد عقيدة، انه لا توجد دائما رغبة تختار لنفسها اسما من الاسماء. ان الذين يقاتلون أو يخاصمون تحت

اقوى العقائد، انما هم قوم يقاتلون ويخاصمون تحت اقوى الرغبات التي لا تحترم أية عقيدة.

ان الإنسان لا يستجيب لعقائده، وانما يستجيب للانفعالات والظروف التي اوحت بتلك العقائد. الإنسان قدرة وارادة فقط، وما سواهما ليس له قيمة إلا بمقدار ما يحرك تلك الارادة وتلك القدرة.

قد يظن ان العقيدة تحرك الارادة والقدرة وتجمعهما وتحرضهما، قد يظن ان الارادة والقدرة هما الاسباب الفاعلة، ولكن هي التي تحكم تلك الاسباب. ولكن يبدو ان هذا غير صحيح، وان العقيدة موات وخمول، وان كل النشاطات المقترنة بها انما هي نشاطات لغيرها، ولهذا فان العقائد كثيرا ما تموت وتفقد نشاطها وقدرتها على التحريك، وذلك حينما تفقد الحوافز التي تخلقها وتهبها الحركة.

ليست العلاقة بين الإنسان وعمله، أو بين الإنسان والكون هي العقيدة، بل القدرة والارادة والملائمة. اننا دائما نعمل بلا عقيدة، لأن العقيدة، ليست شرطا في ان نحيا ونعمل ونبدع، كما انها - أي العقيدة - ليست شرطا في ان نموت أو نمرض، أو نحب انفسنا اكثر من حبنا للآخرين، ولا شرطا في ان نبقى بشرا أو في ان نريد البقاء. ان العقيدة محاولة لتفسير وجودنا وحياتنا وابداعنا، وتفسير الشيء ليس جزءا من الشيء ولا شرطا فيه.

العقائد تجميد أو تخطيط لانفعالات الانسان، والانفعالات صورة متحركة، والعقائد تحولها الى صورة جامدة. والذين يعملون بحماس واصرار اكثر، لا يعني هذا منهم انهم يملكون عقائد اقوى أو اكثر أو افضل. وانما يعني انهم يتلائمون مع ارادتهم ووجودهم واوضاعهم وقدرتهم اكثر.

ان الحماس والاصرار صفتا ذات ونفس، انهما مزاج جسمي ونفسي، وليسا صفتي عقيدة أو مذهب. وقد يظن ان شدة شكيمة الشيوعيين وقوتهم في المقاومة والمضي، راجعة الى قوة عقيدتهم وايمانهم الفكري، والذين يظنون هذا الظن يرون ان الايمان والعقائد القوية هي التي تصنع جميع الانتصارات والتحديات الضخمة الخلاقة، ولا يبدو هذا الراي صوابا.

ان شدة الشكيمة التي عرفت عن الشيوعيين وغيرهم من ذوي المذاهب الجديدة الوثابة، انما ترجع الى قوة انفعالاتهم، وتأججها، الى قوة تلاؤمهم مع انفسهم وظروفهم. ان الفرق بين المتحمسين المتوثبين، وبين الخامدين، فرق في الانفعالات وفي الحماس النفسي والبدني لا في العقائد. ان العقيدة الشيوعية لم تصنع شعورا قويا، ولكن الشعور القوي ظهر في صورة عقيدة قوية. ولهذا فقد وجد دائما ان اصحاب الحساسية والانفعاليين والمتألمين والمتوترين، هم اكثر الناس ميلا الى اعتناق الشيوعية والتعبير عنها بأقسى واقصى ما يكون التعبير. وكل المذاهب العنيفة الجديدة تجتذب هؤلاء وامثالهم من ذوي المزاج الحاد.

ان الفروق بين الناس خمولا ونشاطا، اندفاعا وترددا، ليست فروق اعتقادية... كما ان الفروق النشاطية في اعضائنا وغددنا واجسامنا ليست من الفروق الاعتقادية، في اقرب الرايين الى الصواب.

اذا راينا انسانا مندفعا في نضاله وهو يعتقد عقيدة ما، أو كانت له عقيدة معينة، فانه سيكون له نفس الاندفاع لو كان بلا عقيدة، أو كانت له عقيدة اخرى، أو عقيدة مناقضة، اذا كان يعيش في نفس الظروف. وليس ما تشكوه الآن الشعوب الغربية التي يقال انها عجزت عن مباراة الشيوعيين والتكافؤ مع تحدياتهم القوية... وليس ما تشكوه الشعوب الغربية هو انها فقدت ايمانها، بل انها فقدت حماسها. وهي لم تفقد حماسها لفقدها ايمانها، فالحماس يوجد نفسه،

ولا يوجده شيء آخر. والايمان لا يوجد شيئا، حتى ولا نفسه. ومن المحتمل ان يكون الايمان هربا من الحماس، فقد يؤمن الناس ليتخلصوا من الانفعالات العنيفة. ان الانفعالات العنيفة تصنع الايمان، وان الايمان يحاول ان يضعف الانفعالات، ان المتحمسين جدا، وان اولئك الذين يحققون انفسهم تحقيقا عنيفا، هم قوم فقدوا الايمان... انهم انفعاليون فقط. ان المتحمس جدا لا يمكن ان يكون مؤمنا، ان الايمان تمجيد الحماس. ولكن الناس يخطئون في فهم ذواته، وفي التعبير عنها.

الايمان تحديد، والتحديد ينافي الحماس، اذا آمنا بمذهب أو عقيدة أو اله، فقد فقدنا الحماس للآلهة والمذاهب والعقائد الاخرى، وفقدنا كذلك حماسنا للأشياء والاحتمالات الجديدة التي لا نؤمن بها، أو التي تنافي ايماننا. ومع تكرار ايماننا سنفقد حماسنا لما نؤمن به. لقد كان الايمان دائما منافيا للحماس، لقد كان الحماس هادما للايمان، لقد كان خطرا على الايمان. ان الإنسان لا يساوي مذاهبه أو اربابه، انه لا يساوي قوة هذه الارباب أو المذاهب، لا يساوي خمولها، أو نشاطها، لا يساوي ذكاءها أو غباءها. ان الإنسان يساوي الإنسان فقط، يساويه دائما، يساوي قوته وضعفه، صفاته وذاته.

فراغ متستر

الروحانية تعبير عن المشكلة، لا حل لها. ان معنى الروحانية ان تواجه موقفا لا تستطيع ولا تعرف كيف تعالجه، فتلجأ الى الفرار منه والى تجميده.

ان من وراء كل تعبير مشاكل غير ملحوظة، مشاكل مجمدة.

ان من وراء كل ظاهرة روحية، مشكلة غير روحية.

اذا كانت المشكلة وجودا ماديا فكيف تعالج بالروحانية، وهي لا تعطي قدرة على العلاج ولا معرفة به؟

انها هي الفرار من القدرة، ومن المعرفة... انها البديل عنهما .

الروحانية تقول لنا كونوا طيبين ومحبين للخير والحق والفضيلة، ولكن كيف نستطيع ان نكون كذلك؟

واذا كنا كذلك، فكيف تزول المشكلة وهي مادية تحتاج الى علاج مادي؟ ان كوننا طيبين ومحبين للخير والفضيلة، قد يجعلنا نشتبك مع الآخرين المخالفين لنا والذين نظنهم اعداء للخير والفضيلة، اكثر من احتمال اشتباكنا بهم لو كنا اشرار ومخطئين مثلهم.

قد تكون الحرب واعمال العدوان والرذيلة، نوعا من الدفاع عن الحق، والخير، والروحانية، والفضيلة، في حساب من يفعلون ذلك.

ان كوننا طيبين، ومحبين للخير والحق والفضيلة، قد يجعلنا عاجزين عن ان نكون كذلك... قد يجعلنا عاجزين عن ان نكون فاعلين للحق والفضيلة... قد يجعلنا ذلك متعصبين عميانا، قساة عدوانيين، باسم الحق والخير والفضيلة، وباسم الاله والمذهب.

انه كلما كنا اكثر روحانية، كنا اكثر احتياجا الى علاج غير روحي، لأن الروحانية القوية دليل على قوة المشكلة التي عبرت عن نفسها تعبيرا روحانيا. ان الروحانية تزيد المشكلة وتعقدها، بدل ان تزيلها أو تضعفها، ان كانت الروحانية تفعل شيئا. ان اكثر الناس احتياجا الى مساعدة الشيطان، والى التعلم منه، والأخذ عنه، هم اكثرهم كفرا به، وانكارا لمزاياه... هم اكثرهم ايمانا بالله، واحتراما له.

ان الجهل والمرض والجوع والحرب، مشاكل مادية فلا يمكن ان تعـــالج إلا باعمال مادية، كما ان الاحجار والاشجار التي تسد الطريق لا يمكن ان تـــزال إلا بعمليات مادية. ان الآلهة نفسها حينما تواجه مشاكلها لا تجد اية وســـيلة لعلاجها وحلها غير الاعمال المادية والعلمية، الها لن تحل مشكلة من مشـاكلها بفضائلها النفسية أو الاخلاقية. ان الاله دائما يعالج مشاكله بالعمل المـــادي لا بالأخلاق.

ان الاله لا يستطيع ان يتعامل مع الكون ولا مع الإنسان بغـــير الوســـائل المادية. انه ينظم الأشياء، ويهبها البقاء، ويشفيها من عيوبها وآلامها وتنافرهـــا، انه يهبها كل صيغها، وصفاتها، واحاسيسها، وظروفها، وكل مزاياها... انــــه يفعل كل ذلك بوسائل مادية، انه لا يفعل بالروحانية أو بـــالأخلاق. انـــه لا يشفي الإنسان من مرض ما، انه لا يشبعه بوسيلة روحية أو اخلاقية.

لقد عاشت الشمس والكواكب والكائنات الأخرى... لقد توافقـــــت أو تصادمت، بقوانين مادية لا بقوانين روحانية أو اخلاقية. ان الشمس الكبـــيرة، الكبيرة جدا تعيش كل وجودها، كل ضخامتها وخلودها بمستويات وظـروف مادية، فكيف لا يعيش الإنسان كذلك؟ ان الشمس لم توقع السلام الدائم بينها وبين الكون حولها بالايمان بكتاب مقدس ينهي عن الحـــــرب والخصومـــات، فكيف لا يصنع الإنسان السلام بالاسلوب الذي صنعت به الشمس؟

تناقض بين الحياة والتاريخ

ان للحرب تفسيرا آخر.

ان أي مجتمع أو انسان، هو نهاية تاريخ وبداية حياة. ان الحياة والتـــاريخ يجتمعان دائما في كل انسان وكل مجتمع. انه لا يوجد من يحيون في التـــاريخ

وحده، أو في الحياة وحدها. وانه لمحتوم في الحياة ان تناقض التاريخ، وفي التاريخ ان يناقض الحياة. ان الحياة تريد ان تهزم كل مخالفاته الأدبية والمادية. ان التاريخ يحاول ان يقاوم مدافعا عن نفسه بجميع اساليب المقاومة والدفاع. انه ما من مجتمع فرد إلا ويواجه داخل ذاته هذه الحالة المتناقضة، فبقايا التاريخ الذي يحيا فيه المجتمع والفرد، والذي يريد ان يزحم ما سواه، تناقض الحياة وتريد الانتصار عليها. ان المفروض في هذا التناقض بين الحياة والتاريخ في المجتمعات والافراد، ان يكون تناقضا سلميا... أي ان يكون التعبير تعبيرا سلميا، وان ينتصر كل منهما على الآخر بقوة خصائصه، وما يعطيه للمجتمع والانسان.

ان الحياة دائما تأخذ من التاريخ وتحتل مواقعه، وهذا هو معنى التطور الدائم. والتاريخ نفسه كان في وقت من الاوقات حياة انتصرت على التاريخ. ولكن هذا التناقض بين طبيعة الحياة وطبيعة التاريخ، قد يتحول الى اسلوب عنيف، وهذا معنى الحرب؟

ان الحرب بين البشر هي في الواقع ليست حربا بين الإنسان والانسان، بل حرب بين التاريخ والحياة، ومهما بدا ان الحرب هي حرب بين البشر، فانها في صميم حوافزها وظروفها ومستوياتها، ليست كذلك.

ولننظر الى اية حرب عامة أو محلية أو الى اية ثورة، فستبدو لنا وكأنها حرب أو ثورة بين حالة تاريخية بما فيها من افكار وتقاليد ونظم واوضاع وفساد وموت وظلم وناس، وبين حياة مقبلة جديدة بكل اساليبها ومزاياها واحتياجاتها وقوتها. ولهذا فقد بدت كثير من الحروب والثورات وكأنها احدى قوى السماء الخيرة قد جاءت لتصنع الحياة من جديد، ولتمنحها فرص الانتصار والقوة، أو كأنها عملية تهديم لمرحلة فاسدة متبلدة مستعصية من مراحل التاريخ.

وهل الثورة والحرب اسلوبان مجديان في التعبير عن التناقض بين الحياة والتاريخ، هل هما الاسلوب الأفضل، أو المحتوم، أو الوحيد، في حسم هذا التناقض؟ هل لهما تأثير، أي تأثير فيه؟

هل هما ثمن عادل لما تعطيان؟

هل هما عطاء، أم احتجاج فقط... احتجاج باهظ، وغير مهذب؟

هل هما هزيمة للتاريخ المتخلف المقاوم للحياة المقبلة، أم هما احتجاج عليه؟

ان خصائص الحياة والتاريخ تجتمع في الإنسان الواحد فتصنع منه انسانا انتحاربا داخل نفسه. ان هذا الاجتماع بين حالة التاريخ وحالة الحياة في انسان واحد قوي، قد يحوله الى صانع حروب، والطغاة الصانعون للحروب والأخطار، هم اجتماع ركيك مخيف بين هاتين الحالتين.

والانتحار نفسه ما هو إلا حالة اجتماع بينهما...

وكلما تطور المجتمع والفرد، كان اقدر على حل الخلاف بين حياته وتاريخه، وحل مشاكل اجتماعهما حلا علميا سلميا بلا حروب ولا ثورات، فالحياة القوية الواعية تستطيع ان تنتصر على بقايا التاريخ ومخلفاته من غير قتال، اما الحياة العاجزة المتخلفة في وعيها وتطورها، فلا تجد إلا ان تدخل الحرب ضد التاريخ، وقد تعجز عن الانتصار وتظل الحرب بينهما سجالا وكأنها لا تنتهي، وقد يبدو ان التاريخ ينتصر احيانا.

واذا كان محتوما ان المجتمع يتطور، فمحتوم ان ظروف الحرب والظروف المسببة لها، والاحساس بها ونحوها، وطرق علاجها، والقدرة علة هذا العلاج، سوف تتطور ايضا.

قالت الثورة للحرب:

ايتها الحرب، ايتها الأحزان، والموت، والخراب، والغباء، لماذا تجيئين؟ قالت الحرب:

وانت ايتها الثورة لماذا تجيئين، يا ذات صفاتي... لماذا تجيئين، وانا لا اتفوق عليك في صفة من صفاتي؟

قالت الثورة:

انا خالقة التغيير، انا خالقة لكل التغيير، انا خالقة لكل تطور لكل شيء جديد، لكل وثبة، لكل عدالة.

انا هازمة التاريخ المتبلد، هازمة لكل ظلم، لكل بلادة، لكل فساد، لكل توقف.

انا صانعة المستقبل، صانعة لكل المستقبل بكل ما فيه من قيم ومذاهب وحياة وبشر.

انا كل الطريق الى كل المستقبل لأني انا الثورة.

قالت الحرب:

كم انت وقحة دعية ايتها الثورة.

كم تتوقحين وتدعين ايتها الثورة الدعية الوقحة.

كم تدعين وتتوقحين على الخالقة الحقيقية... على الخالقة، ليس لكل التغيير، ولكل المستقبل، ولكل الطريق الى المستقبل فقط، بل على الخالقة الحقيقية لكل ذلك، والخالقة لك كذلك.

اني انا الحرب.

انا الخالقة الحقيقية لكل تطور اصاب الحياة أو اصاب الإنسان بالاسلوب المباشر أو بالوساطة أو بالتسلل والتسبب.

انا الخالقة لك أيضاً ايتها الثورة الدعية الوقحة... انــك تجيئــين دائمـــا، وكأنك النتيجة الطبيعية لي انا الحرب... كانك الابنة الشـــرعية لوجــودي، كأنك الولادة التي لا استطيع ان اتعاطى ما يمنع الحبل بها... ان الثــورة هــي الحبل المحتوم لي انا الحرب... انها الحبل الذي يعصم منه كل ما عند العلم مــن عقاقير.

اني انا الحرب، كأني القانون الدائم الخالق لكل تغيير الى الافضل، كــــأني القانون الدائم الخالق لكل ثورة. ان كل فضائل الثورات ليست سوى بعـــض فضائلي. فضائلي انا الحرب لأني انا الحرب، انا الصانعة لكل ثورة، الوالــــدة لكل ثورة.

فاذا كانت فضائلك المدعاة تبيح لك أو تفرض عليك ان تجيئي كــــأجمل وافضل هدية للحياة وللانسان... لتطورهما فان فضائلك هذه، هي شيء قليـل جدا من فضائلي التي تجعل مجيئي هو الانقاذ الذي تبشر به وتهتف له وتنتظــره كل آلهة الحب والخير والتطور في هذا الكون، وكل معاني النبل والبســـالة في الحياة والانسان.

*

وهنا صمتت الثورة صمت من فاجأته الهزيمة حينما كان يعيـــش اعلــى مستويات الشعور بالنصر.

*

وهنا صمتت الحرب صمت من ذهب يبتلع انتصاراتـــه الكـــبرى بوقـــار واحتشام.

*

وهنا أيضاً تدخل الانسان، تدخل الإنسان الضحية، ضحية الحروب والثورات.

قال الانسان:

ايتها الحرب.

ايتها الثورة.

لا تكذبا... لا تفخرا... انتما لستما شيئا مما تزعمان.

انتما لستما سوى احقاد، وآلام، واحزان، ومنافسات، ومتاعب، وعقد، ومشاتمات، ومباروات الطغاة والمجانين، والمتوترين والطامحين، والمعلنين عن تنفسهم بالسلاح، تتفجر في بيوت الناس ومتاجرهم وحقولهم ومعابدهم وفي اجسادهم وقلوبهم، متحولة الى خراب وتشويه وموت وفقر، والى حرائق غالية الثمن.

متحوله الى مذاهب، وآلهة، ونظم، وشعارات متعادية متشائمة، مفسدة لكل ما في الإنسان والحياة من ذكاء وحب ووقار.

ايتها الحرب.

ايتها الثورة.

لا تكذبا... لا تفخرا... انتما لستما شيئا مما تزعمان.

اني ألعنك ايها السلاح

ما اوقح هذا الانسان.

كيف يجرؤ على الذهاب الى المعابد، ليتحدث الى الآلهة...

هل بقي فيه شيء يمكن ان يقدمه لها؟

كيف يجسر على مخاطبتها، زاعما انه يساومها على نفسه؟

كيف يجرؤ على ان يرفع رأسه؟

كيف يجرؤ على النظر الى النجوم؟... كيف يجرؤ على مساومة الآلهـــة... على الصلاة لها...؟

هل بقيت له جبهة يذلها بالسجود للآلهة...؟

لقد اكل الطغاة والمعلمون والثوار جبهته، كل جبهته...

انه بلا جبهة... انه بلا هامة... انه بلا قامة...

لقد تحطمت قامته من الانحناء... انه بلا انسان... انه مقبرة انسان...

لقد مات الانسان.

لقد مات...

لكي تمتدح المقاصل

لكل عصر اوهام متوترة، تتحول الى غباء وتعصب، وخصومات وأحقـاد، ودماء... تتحول الى حدود بين البشر يتلاعنون من ورائها، ويتراسلون مـــن فوقها بالتهديدات والتهم غير المهذبة، غير النظيفة... لكي تصبح هذه الاوهـام آلهة متوحشة تتقسم الشعوب، وتمزقها... لكي يضع كل شعب مـــن هـــذه الشعوب جميع آماله، باحثا عن النجاة والتقدم، في اوهام معينة مختـــارة، أو في

واحد منها... لكي يفسر بها كل اسباب تقدمه وكل اسباب تخلفه... لكي يرفض ان يفكر أو يشك أو يفهم أو يتسامح... لكي يظل يجرب اوهامه المختارة أو المفروضة الى ان تذبل وتشحب، وتستشهد بين يديه بالتقادم أو بالزحام، أو بالقتال مع اوهام اخرى... لكي يتحول الى تجربة تلك الاوهام الأخرى بنفس الحماس والايمان، ونفس البلادة.

ان الاوهام لا تموت ابدا، مهما تقادمت وعانت من الامراض والشيخوخة، وانما تطردها اوهام اخرى... انها لا تموت بل تطرد، انها لا تموت ابدا.

ان في استعداد الإنسان ان يستمر يجرب كل الاخطاء والآلام التي جربها بمرارة وغضب كل من جاءوا هنا ثم ذهبوا في الطريق الطويل الحزين حيث لا يستطيعون ان يجيئوا لكي يعودوا الى تجربة اخطائهم وآلامهم، دون ان يتوبوا أو يتقوا.

إن في استعداد الإنسان أن يظل يجرب كل أخطاء الماضي وآلامه.

ان في استعداد الإنسان ان يستمر يموت، ويتعذب، ويخطيء، بالاستمرار الذي يظل يجرب به كل عبث الحياة وغبائها، دون ان يدرك خطأ التجربة ونذالتها، دون ان يدرك سخف ما يفعل وعقمه، بل دون ان يرغب في ان يدرك.

انه ليس في استطااعة البشر ان يتجنبوا الخطأ أو الألم الذي وقع فيه الاولون، لأنه ليس في استطاعتهم إلا يواجهوا ظروفا وضرورات تجعلهم يخطئون ويتألمون، كما واجه اولئك الاولون فأخطاوا وتألموا.

ان الناس لا يخطئون أو يتألمون لأنهم لم يروا من أخطأ وتألم، أو لأنهم اول من أخطاوا وتألموا، انهم يخطئون لأنهم يواجهون ظروفا تناقضهم.

انه لا يمكن تجنب الخطأ أو الألم بالتقليد أو بالتفكير أو بالقراءة، كما لا يمكن تحديد اسبابهما أو معرفتهما بالتقليد أو بالتفكير أو بالقراءة... كما لا يمكن كذلك ان نملك القدرة على التزام ما نعرف بذلك.

ان قراءة التاريخ لا تجدي في اتقاء الاخطار والآلام، انها لا تجدي في معرفة الاخطاء والآلام. ان اخطاء وآلام من لم يقرأ التاريخ، ليست اعظم من اخطاء من قرأه. ان القراءة ليست وسيلة من وسائل اتقاء الخطأ والألم. انه لا يمكن ان يرى الإنسان نفسه من خلال التاريخ، أو من خلال الآخرين، انه يرى العكس، انه ليس للتاريخ قوة اخلاقية أو وعظية أو عقلية. ان التاريخ يعيش فينا ولكننا لا نتعلم منه. اننا لو كنا نستطيع ان نتعلم من التاريخ لتحولنا في تفكيرنا وسلوكنا وعواطفنا الى اجهزة علمية معصومة من الخطأ والألم والفساد. ولكن التاريخ مع ذلك ليس اسلوبا واحدا أو صيغة واحدة، فاذا عرفنا اسلوبا واحدا من اساليبه، أو صيغة واحدة من صيغه غير المتناهية، فهل يجعلنا ذلك عارفين لكل اساليبه وصيغه؟

ان التاريخ ليس طريقا، انه حركات في فراغ، انه سير في التيه الأعمى، انه موكب في فضاء ليست له علامات ولا جهات.

ان البشر محتاجون دائما الى ان يتوتروا، أو يعبروا عن توترهم تعبيرا عدوانيا متطرفا. ان في الاعتدال والاتزان والمخالقة السمحة ما يخنقهم... ما يعذبهم ويعتقلهم. ان في ذلك ما يسلبهم لذة النزق... لذة الحماقات المتحررة من قيود الاحتشام، والذكاء والتهذيب.

لقد كان الجنون في كل عصر هدفا تعمل كل الاجهزة في المجتمع على تعميقه، والاعلان عنه، والتداوي به. انه لم يكن الجنون مرضا يهرب أو يستطب منه، أو يشعر بالعار من ممارسته... لقد كان مجسدا.

ان الاوهام المتوترة هي احدى وسائل البشر لكي يعبروا عن انفسهم كما يشاؤون، لكي يستطيعوا ان يستجيبوا لحاجاتهم الى السفه والاعتداء بلا شعور بالاثم أو النذالة.

ان الاوهام هي افضل محلل للرغبات المحرمة، التي تلح علينا بان نكون سفهاء مفترسين، دون ان نشعر بالذنب، لتعمل هذه الرغبات باسلوب قانوني، ديني، اخلاقي، وطني، دون ان تحتج على انفسنا، أو تحتج علينا تعاليمنا أو آلهتنا... دون ان يحتج علينا تاريخنا، أو يحتج علينا تمجيدنا لأنفسنا، ورضانا عن مزايانا... دون ان يحتج علينا اعجاب الكون بنا.

ان القتل والبذاءة باسم العقيدة، أو المذهب أو الوطن أو الدفاع عن العدل أو الحرية، هما قتل وبذاءة بالتوحش الذاتي والرغبة النفسية، بررا تبريرا اخلاقيا واعتقاديا، بل حولا الى عقيدة واخلاق. انك اذا قتلت باسم شيء تراه طيبا فانت قاتل فقط... انك لست قاتلا فقط، بل قاتل ومادح لقتلك.

ان علينا ان نعلم ان الخلاص في مقاومة الاوهام نوع من الاوهام.

ان اخلاصك في مقاومة الاوهام يعني اقتناعك بان الحياة حقائق واوهام، ويعني اقتناعك بان الحقائق انفع للحياة، أو للناس، أو لك من الاوهام. وهذا اعلى مستويات الاوهام.

التداوي بالصخب

ان المجتمعات المتألمة العاجزة، أو المثارة، هي اكثر المجتمعات حماسا للشعارات وايمانا بقوة السحر.

لن الشعارات في هذه المجتمعات اقوى تأثيرا واقناعا من الحقائق الصامتة. ان الحقائق الصامتة بليدة ودميمة، انها لا تقنع ولا تهز، بل ترى احيانا... ان

الشعار لدى كثير من الناس غاية في ذاته، انه نوع من التدين... انه كالجهر بالصلاة وقراءة الكتب المقدسة، وبدعاء الاله. انهم يريدون ان يؤمنوا بمعجزات تعطيهم ما لا يستطيعون، أو ما لا يريدون ان يفعلوه، وتعفيهم من قسوة الارتباط بالقوانين، وقسوة الايمان بالتلازم بين الاسباب والنتائج، وما في ذلك من عذاب وطول انتظار، ومن التزام شاق، ومن بخل وبطء اليم فيذهبون حينئذ يؤمنون بالاوهام السهلة تحت الشعارات المدوية.

انه لا يوجد مجتمع يعيش بدون شعارات، مهما خرج في حياته عن كل شعار. ان البكاء باسم فكرة انما يعني الحاجة الى البكاء بلا فكرة. اننا اذا كرهنا أو لعنا قوما لأنهم يخالفوننا في عقيدة أو وطن أو غير ذلك، فنحن لا نفعل لهذا الخلاف، بل لأننا محتاجون نفسيا الى ان نكره ونلعن. انك تصلي للاله الذي تؤمن به، وتغضب للمذهب الذي تعتنقه، وتلعن مخالفه بقدر ما فيك من انفعال، ومن حاجة الى الغضب والصلاة واللعن، لا بقدر احترامك لالهك أو مذهبك...

ان الشعارات تحيا وتموت، تقوى وتضعف وتتبدل في الحقيقة. ان اقوى شعار، يأتي يوم يموت فيه ليحل شعار جديد، من غير تجديد في النيات أو في السلوك. ان قوة الشعارات وضعفها لا دلالة لهما على اخلاق المجتمع وخصائصه، أو على افكاره احيانا... انه لا يمكن معرفة اخلاق أو نظم أو افكار أي مجتمع أو أي انسان من شعاراته، إلا اذا امكنت معرفة ذلك من لون ثيابه أو من غزارة شعره، أو من طول قامته.

يلاقي الثوار احيانا ترحيبا واستجابة في المجتمعات. والتفسير لهذا ان الثوار هم بظروفهم وطبيعتهم، متعذبون متهيجون صارخون، انهم ينفثون حقدا ووعيدا وقسوة ولعنات لا وقار فيها. وهذا يهب عامة الناس العزاء والارتياح،

لأنه يشبه التعويض عن آلامهم ومظالمهم التاريخية، يشبه الاحتجاج على قسوة الطبيعة وعبثها وجهلها، ويشبه كذلك العقاب والتهديد لها على ما فعلت بهم دون ان يستطيعوا الدفاع عن انفسهم... انه اسلوب من الرقص الضاج المريح...

ان الثوار في السوق نوع من الرقص الهمجي الذي تصلي له اخلاق السوق واحزانها... ان في سفه الثوار ما يعني التكفير عن ذنوب الحياة واخطائها في تصور الجماعات... ان التوتر والوعيد والسباب سلع جيدة ودائمة، يعرضها الثوار والطغاة والمعلمون في السوق، فتشتريها الجماهير المعذبة بكرامتها وحريتها ووقارها، بل وبسلامها...

ان الجماهير محتاجة دائما الى ان تهب كرامتها، وحريتها، ووقارها، بلا أي ثمن... انها لا بد ان تهرب من هذه الأعباء هربا.

ان الثوار هم صيغة احتجاج بذيء غبي، توجهه السوق المتألمة المتأخرة الى الطبيعة، لكن السوق تخطيء فتوجهه الى الانسان...

قد تكون الثورة في بعض المجتمعات تعويضا أو بديلا عن معالجة المشاكل، وعن محاولة التقدم الذي يصعب دفع ثمنه، كما يحدث حينما نعجز عن فعل ما نريد فعله، أو ما يجب ان نفعله اذ نحطم اطباق الطعام، وقد نلعن ونضرب هنا وهناك، والانسان محكوم عليه ان يتحول الى تعبير... اما بالهدم واما بالبناء... بالقوة أو بالضعف... بالابداع بلا ثورة، أو بالفرار من الابداع الى الثورة.

قد تكون الثورة كالعملية السرية حين العجز عن العملية الطبيعية...

قد تكون الثورة اسلوبا من اساليب البحث عن العنف، ويكون الاعجاب بها اعجابا بالعنف فقط.

ان العنف هو عقاب الإنسان للتاريخ، هو ضمير التاريخ في الانسان... هو التعبير الحزين عن رفض الإنسان لمستواه... لأخلاق الطبيعة.

ان العنف حاجة من حاجات السوق...

قد تكون الثورات نوبات قدرية تصيب المجتمعات العنيفة بلا قياس، بلا هدف، بلا حافز خارجي معلوم، كما يحدث الموت، والمرض، والألم... كما تحدث الولادة المشوهة... كما يحدث الزلزال. وقد يكون الفرق بين دعوة نقبلها، ودعوة نرفضها، فرقا لفظيا خطابيا.

ان لبعض الكلمات والأسماء في بعض الأحيان رنينا... عزفا، يخلق الارتجاف والغواية والجنون، بدون ان تكون لها اية محتويات ليست لغيرها من الكلمات والأسماء الميتة التي لا تستطيع ان تجعلنا نستمع اليها... ان نعتقد انها تعني شيئا لو استمعنا اليها. ان الاعجاب بالنظام الجمهوري دون النظام الملكي، أو بالحكام الثوار دون الحكام الذين يجيئون بلا ثورة... ان هذا الاعجاب نوع من الاعجاب بالالفاظ الخطابية... ان الناس ينتظرون ان يجدوا وراء الكلمات المختلفة حقائق مختلفة... ان يجدوا وراء تغير الاشخاص تغير الحقائق... انهم ينتظرون تغيرا ملائما وراء كل تغيير... انهم ينتظرون ان تتغير اخلاق الكون وقوانين الحياة، وهموم الإنسان بتغير الآلهة... انهم دائما ينتظرون محالا.

ان الكلمات ليس لها في ذاتها دلالة، وانما دلالتها هو ما يعنيه البشر بها.

ان الكلمات هي دائما البشر. ان البشر قد يعنون بالكلمة الواحدة، الشيء ونقيضه.

ان الحرية قد يعني بها اضرى اساليب الاستبداد... ان العدل قد يعنى به اعلى درجات الظلم... ان الله والدين، قد يعنيان في سلوك المتحدثين عنهما وفي تصورهم، الخروج على تعاليمهما، وارتكاب جميع ما ينهيان عنه

باسمهما... ان النظام الجمهوري قد يجمع كل ما في النظم الملكية وغير الملكية من كبرياء وفسوق، وبلادة ورجعية. ورب رئيس ليس ملكا، هو اعتى من جميع الملوك في جميع العصور.

انهزموا ايها الملوك... تواروا ايها الملوك ضعفا وهوانا.

ان كل اظفاركم... ان كل انيابكم في كل التاريخ لأقل واضعف من ناب واحد... من ظفر واحد ينبت في احد الرؤساء... في احد الثوار.

انهزموا، تواروا ايها الملوك فلقد هزمتم... هزمتم .

ان اعتى الملوك قد يصبح قديسا متواضعا، عفيف القلب واليد واللسان اذا دخل في مسابقة اخلاقية مع بعض الرؤساء والحكام الذين هم ليسوا ملوكا .. مع احد الثوار الذين ثاروا ضد الملوك، لأنهم ضد الطغيان.

ان نابليون وهتلر وموسوليني وستالين وفرانكو وسالازار لم يكن احد منهم ملكا. وهل يمكن ان تقارن رجعية أي ملك... طغيان أي ملك... كبرياء أي ملك... بذاءة أي ملك، بذاءة، أو رجعية، أو طغيان، أو كبرياء واحد من هؤلاء؟

لنتصور مفكرا ينتصر لهتلر أو موسوليني بحجة انه افضل من ملوك اوروبا.

*

كم من الجرائم والحماقات قد اقترفت تحت شعار زائف...

كم هتفت الجماهير المشدودة الأعصاب، للغباء والأكاذيب، والطغيان والخداع، في مواكب من الشعارات التي لا يعيها ولا يتقيد بها احد...

كم هي المشاكل العصية التي عولجت ولا تزال تعالج بالشعارات...

كم هي الاجهزة التي لا عمل لها سوى مقاتلة الناس بالشعارات...

ما اوقحك واكثر ذنوبك ايتها الشعارات...

ما اوقحك في فم الطاغية، في اجهزته، في فلسفته...

ما اوقحك في فم المعلم والكاتب والخطيب والواعظ... كم كذبت، كم قتلت، كم خدعت، كم سرقت، كم هيجت...

ما اوقحك واكثر ذنوبك ايتها الشعارات... اني اخافك، اني احتقرك ايتها الشعارات...

ما اوقحك واكثر ذنوبك ايتها الشعارات.

الغبار المفترس

في عصر قد مضى، كان يرهق اعصاب هذه المنطقة رجال كانوا يفدون اليها، مخلوقين من احزان السماء... يتحدثون عن اعظم الأخطار، وافضل الوعود واكبر الأشياء باسلوب من الخيال والتهويل البلاغي يحول الاعصاب الى جحيم وجليد. كانوا يضعون كل الآلهة، والأبالسة، وكل احتمالات الخوف والرجاء، في اعصاب الإنسان باسلوب روائي موسيقي، تلتقي فيه كل معاني العبقرية بكل معاني الضجيج بحيث يصبح الجنون والمرض هما كل ما يمكن ان يحدث، أو اقل ما يحدث.

في عصر قد مضى، كان يعذب اعصاب هذه المنطقة رجال كانوا يأتون من السماء، يحملون في افواههم كل اهوال الغيب، وتهاويله، وجحيمه، وزئير آلهته الرهيبة، حتى لأصبح نوعا من المعجزات ان الناس لم يصابوا جميعا بالجنون.

وفي جميع العصور كان يمزق المنطقة رجال آخرون هم اقوى خطرا، ظلوا يتعاقبون عليها بالثورات العسكرية، قادمين اليها من ازقة التاريخ المعتمة، يحملون في قلوبهم البغض والظلام... في اخلاقهم وعقولهم التوحش والضلال... وفي افواههم الدعاوى والاستحالات وكل انواع البذاءات. كانوا

بغباوا‌تهم، وطغيانهم، وسفههم، وشرهم، يأكلون اخلاق الحياة، وشجاعتها، وذكائها، ورخائها.

اما في هذا العصر والعصور القادمة، فقد يكون خطر هؤلاء الرجال المنطلقين من ازقة التاريخ المعتمة، اكبر من جميع ما نستطيع تصوره فيما كان. كانت الاوبئة والمجاعات والفيضانات والحروب هي ابشع ما يواجه الناس هناء، اما اليوم وفي كل المستقبل فقد يكون هؤلاء الرجال المنطلقون من ازقة التاريخ، هم ابشع من كل ما كان الناس يعانون هنا من الام واحزان واهانات .

ان احتمالا كئيبا ليتبختر اليوم في الأفق الواسع، ليضع امامنا كل احتمالات الذعر والبشاعة.

انه يخشى على العالم العربي ان يصاب بالمزيد من الثورات العسكرية لتصبح فيه خلقا وفنا، لتقوم بعمليات تخريب وتعويق وتصديع شاملة مستمرة، في جميع جبهاته العديدة، مسترجعا شهرته القديمة في حب المبارزة والتحطيم، واصالته في غنى الفوضى، واكتساب العداوات على مستوى العصر الحديث، ومستوى اسلحته، ووسائله الكثيرة القوية... قد يوهب المزيد من الايمان بهذه الثورات... قد يجد في ذلك التعويض والبديل عما ينبغي ان يكون.

قد تصبح الثورات العسكرية هي موهبة العرب، في هذا العصر العظيم... قد تصبح الثورات هي كل عبقرية العرب... قد تصبح كذلك

لقد جاءت الحضارة لتضع في ايدي العرب اجهزة تفجير قوية، فهل تضعها في يدي طفل أو مجنون أو همجي...؟

هل جاءت الينا الحضارة لتكشف فينا جنونا وهمجية وطفولة لا تكبر؟

هل جاءت لتكشف فينا ما كان مستورا تحت العجز، والتخلف، والظروف البدوية؟

هل جاءت الينا هذه الحضارة لتكون لنا افتضاحا دوليا...؟

لقد اعطانا العصر الحديث الشعارات والادوات... لقد اعطانا القوة والمذهب فهل نستطيع التوفيق بين الارادة والشعار... بين القوة والمذهب؟

ان العجز عن التوفيق بينهما يعني الهلاك والفوضى... بل يعني الافتضاح.

ان العجز عن ضبط الذات بالظروف، وضبط الظروف بالذات يعني كل احتمالات الخطأ والدمار.

ان عملية الإنسان الكبرى، بل عملية الحياة كلها هي البحث عن الملائمة، بين الذات والظروف، أو بين الشعارات والاحتياجات من جهة، وبين الأشياء الخارجية من جهة اخرى، أي بين الكائن الحي وادواته، وبينه وبين انيابه. لقد صنعت الحضارة للانسان انيابا هائلة، فهل يستطيع ان يتكافأ مع انيابه... لقد اعطتنا هذه الحضارة انيابها، فهل نستطيع ان نتعامل معها بسلام... لقد ركبت الحضارة في مجانيننا ابشع الانياب فماذا هم فاعلون بنا؟

ان الفرق بين انسان وانسان، أو مجتمع ومجتمع، يساوي الفرق بينهما في القدرة على هذه الملائمة والعجز عنها. انه توجد دائما حالة مثالية للملائمة بين شيئين، والمشكلة هي معرفة هذه الحالة والقدرة عليها وارادتها. انه توجد دائما حالة نموذجية بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والانسان، والمشكلة هي ايجاد هذه الحالة.

قد تتحول كل عبقرية العرب ومحاولاتهم للاصلاح والتغيير وآمالهم فيهما، الى ثورات عسكرية. قد يظلون يرون ان السيف اصدق دائما انباء من الكتب والعلم، ومن كل المزايا الانسانية الاخرى... قد يظلون يرونه العلاج الدائم، من كل تخلف وفساد، وظلم وجهل... قد يظلون يرون انهم كلما عجزوا عن التغيير العظيم، وعن التلاؤم مع الاحتياجات الكبرى الجديدة، فالحل ان يقوموا

بثورة عسكرية لكي يهربوا من عجزهم، ليغطـــــوه بالســـلاح والضجيـــج، والمحاكمات والاتهامات الكبرى، ولكي يظلوا زمنا طويلا ينتظرون ان يتحـــول السيف الى حضارة وعبقرية، وانتصار على الجهل والتخلف، ولكي يتحدثـــوا كل الوقت عم امجاد ثورتهم، وعن بركتها التي ستحول القمر السخيف الرجعي العميل، الى نوع ممتاز من الطعام الرخيص للجماهير الطيبة المؤمنـــة بثورتهـــا، وبقادتها المعصومين من الطموح والغرور وحب الذات، ومن الخضوع للاوثـان النفسية التي لا تبلغ اعلى مستوياتها في التوحش والقوة، إلا في حيـــاة الثـــوار والزعماء المترهين...

قد يظلون يرون ان العلاج هو ان يعاقبوا انفسهم كلمـــا عجـــزوا عـــن الانتصار على مشاكلهم الصعبة.

انه يوجد احتمال كبير كئيب بان العالم العربي قد تخلص أو قد يتخلـــص نهائيا من الحكام والملوك التقليديين الضعفاء، ليقع في قبضة افواج متتابعة مـــن الاكاسرة والقياصرة والأباطرة المخيفين، الذين هم اطغـــى واقـــوى واخطـــر اغراء... قد يزول عن العرب الحكم القديم الفاســـد الضعيـــف المتســـامح، ليحكموا حكما جديدا عاتيا مذلا، ليس فيه تواضع، ولا تسامح، ولا صداقـة، ولا ضعف، ولا استقامة ايضا.

قد تفسد مكاسبنا من هذا العصر بهذه الألعاب الحمقاء الخطـــيرة... قـــد نفسد ذلك بالتلهي بالانقلابـــات العســـكرية، وبـــالمؤامرات، والمبـــارزات، وبالحروب الدعائية، وبالبحث عن الخصومات المتلاعنة، لكي نظـــل نـــؤدي رذائلنا القديمة غير المتحضرة بوسائل حديثة متحضرة، ليكون خطرنـــا علـــى انفسنا خطرا ممتازا تصنعه الحضارة التي ابدعها الأقوياء، ولكي نخسر كثيرا ممـــا يمكن ان نربحه من هذه الظروف الجيدة المترامية تحت اقدامنا... هذه الظـروف

التي تضع امامنا فرصا لا عهد لتاريخنا الطويل العقيم بشيء منها في جودها وملائمتها ومحاباتها لنا.

قد يجهل العرب كثيرا في ممارستهم للحضارة، ولاقتناء الجيوش والسلاح حتى ترتفع الاصوات منادية بحرمانهم من الجيوش، وبتحريم الحضارة عليهم...

قد يحدث ذلك، وقد يوجد حينئذ من يقولون بمرارة: آمين... آمين...

ايتها الحضارة: انت آثمة وبليدة، لأنك تضعين قوتك في جميع الايدي... ايتها الحضارة: انت مبتذلة لأنك تهبين نفسك بلا وقار... بلا كرامة... بلا شروط، لكل الاغبياء .

ان كل الخوف ان يتحول الزعماء والحكام العرب الى ابطال مصارعة، يتصارعون فوق شعوبهم بعضلات ليست عضلاتهم، ولكن بأخلاق هي اخلاقهم.

ان اخطر الأشياء ان يوضع عقل احمق، وأخلاق وغد، في عضلات عملاق... ان الحضارة اليوم تهب الذين لم يبدعوها عضلات قوية، دون ان تهبهم مواهب عقلية، أو اخلاقية مماثلة، لكي تتكافأ عضلاتهم مع مواهبهم... انها تهبهم عضلاتها دون ان تهبهم فضائلها... انها اذن تصنع أبشع كائن.

ان الحضارة تصنع متفجرات هائلة، دون ان تصنع جهاز امان.

ان الضعفاء يستطيعون ان يتحاربوا، ويتخاصموا، ويتلاعنوا، بأسلحة حضارية، مبذولة اليوم بسخاء سفيه. ولكن المشكلة انهم لا يستطيعون ان يبدعوا هذه الحضارة، ولا ان يتكافاوا معها، ولا ان يكونوا متحضرين، مهما اعطتهم الحضارة من قوتها ورخائها وشعاراتها، ومهما استهلكوها في ضعفهم وشهواتهم.

كثيرون هم اليوم هؤلاء الذين كل عبقريتهم ان يشوهوا الحضارة، ويحولوها الى ادوات قتال ومخاصمة، وبذاءات غير معهودة، وتوترات اخلاقية، بينما هم عاجزون عن تحويلها الى تفكير أو الى سلوك حضاري، كما لا يريدون ان يفعلوا ذلك.

كل جماعة مهما هان شأنها، تستطيع ان تتوتر، وان تحول توترها الى مظاهرة أو ثورة أو اغتيال أو بغض أو الى شعارات ترهق اعصاب النجوم. ولكن الصعب ان تتحول الى ذكاء أو ابداع أو فضائل اخلاقية. ان التعبيرات الضعيفة هي دائما البديل عن التعبيرات القوية، فالبكاء والسباب والادعاء والثورة بديل عما هو اقوى. والحياة في جميع صورها ليست سوى الفرار من الضعف الى القوة، أو العكس.

أهو التخلص من الحضارة

ان الاعتقاد بأن الثورة العسكرية وتغيير نظام الحكم، علاج صحيح للمجتمعات المتأخرة العاجزة، يشبه الاعتقاد القديم القائل بأن الرجوع الى الآلهة، والأديان، والى اخلاق الأباء، شفاء من كل تخلف وخطيئة، ومرض نفسي واخلاقي. ان تأثر الاعتقاد بالواقع المناقض له، هو دائما تأثر ضعيف، انه تأثر مهزوم.

لقد دل تاريخ الاعتقاد الطويل ان التجربة المثبتة لعكس ما تقول العقيدة، لا تهدم العقيدة. ان العقائد تتحدى كل واقع... ان الإنسان وكذا المجتمع، يظل يعتقد عقيدة يظل الواقع الدائم ينقضها، بل يظل واقعه هو، ينقضها، ثم يظل مع ذلك مؤمنا بتلك العقيدة، بينما يظل من جهة اخرى خاضعا لذلك الواقع بكل ما فيه من فحش وسخف وتبذّل. انه يظل يجمع بكل حماسة بين اقتناعه

بتلك العقيدة بكل تعصب وتصميم، وبين خضوعه للواقع المخالف لها بكـــل افتضاح. انه لا يشعر انه يتناقض أو يبالي بذلك، ان فيه عالمين لا علاقة بينهما. ان فيه عالم الآلهة والملائكة والقديسين، وفيه عالم الابالسة والطغاة والشهوات، انهما عالمان مثاليان في تعايشهما. انهما لا يتصادمان أو يتعاتبـــان أو يعتـــدي احدهما على الآخر أو يعارض رغباته أو نزواته. ان علاقات الجوار بينـــهما لا مثيل لها في المصلحة والتجاور والتسامح. ان المؤمن يعيش بين الله والشـــيطان دون ان يعذباه بالغيرة، أو الخصومات أو التناقض، أو يطالباه بالعدل بينهما.

ليت العالم يتعلم التعايش السلمي، من الله والشيطان داخل ذات الانسان.

ان الواقع يعجز عن هدم العقيدة، لأن العقيدة ليست وجودا ماديا صلبـــا يهدمه وجود مادي آخر مناقض له. ان العقيدة مثل الأشباح التي يقول عنـــها الخيال القديم انها تخترق الأشياء وتخترقها الأشياء فلا تتصادم بها، لأنها لا تخضع لقانون الأشياء، لقانون التصادم. واذا كان الواقع عاجزا عن هدم العقيدة، فان العقيدة عاجزة عن اسقاط الواقع، أو تغييره، أو الحكم فيه. ان كـــلا منـــهما مهزوم منتصر امام الآخر. أم كلا منهما لا يستطيع ان ينتصر على الآخـــر، أو ينهزم امامه.

والاعتقاد وانكار الاعتقاد، ليسا بحثا عن الخطأ والصواب ولكنهما بحـــث عن الإنسان الباحث عن نفسه خارج الخطأ والصواب، وخارج الواقـــع. ان الخطأ والصواب والواقع ليس هو الذي يريده الإنسان أو يريحه أو يشوقه، ليس هو الذي يملؤه بالحماس والنشاط والنشوة. ان الإنسان هو دائما اكـــبر مـــن الواقع الذي هو جزء منه. ان هذا من مآسيه، وان بدا انـــه مـــن مزايـــاه. ان الإنسان هو وحده الكائن الذي يظل يعتقد شيئا يظل يفعل نقيضه، وشيئا يظل نقيضه يحدث دائما. انه ليس العقل وحده هو العاجز عن اسقاط العقائد، بـــل

ان الحقائق المادية عاجزة كذلك. واذا سقطت عقيدة ما أو ضعفت، فـــهي لم تسقط أو تضعف لا بالعقل ولا بالواقع المناقض لها. ان شعوري نحو الشـــيء لا يبطله المنطق ولا الواقع المضاد، وانما يبطله شعور آخر. وكما ان الواقع والمنطق لم يصنعا العقائد بل صنعها الانسان، فكذلك هو الذي يهدمها دونهمــــا. ان الإنسان هو الذي يهدم العقائد. ان الواقع والمنطق لا يهدمانها.

ان العقائد تستطيع ان تعيش مع نقيضها من الواقع والمنطق... انهما لهـذا لا يهدمانها.

ان في عزم الإنسان الدائم، الهرب من الواقع والمنطق، والتحدي لهما... انه لا يقبلهما ابدا... انهما خصماه، وانما يخضع لهما اضطـــرارا، لا اقتناعـــا ولا احتراما. ان الايمان بقيمة الثورة اعتقاد، لهذا عجز الواقع المضـــاد عـــن هـــذا الايمان.

يوجد اليوم وهم كبير تؤمن به مجتمعاتنا المتخلفة، وتتحمس له، وتعيشـــه بنشوة. انها تحوله الى صلاة، والى شعارات، وتحوله الى صراخ وشعارات باصقة على مزايا العقل. انها تعتقد، أو هكذا يزعم لها قادتها ومغامروهـــا، ان كـــل تخلف، وعجز، وفساد راسخ قديم قد عاش فيها مع التاريخ، ان لكـــل ذلـــك علاجا واحدا، هو الثورة العسكرية، هو تغيير نظام الحكم. ان كـــل علاجـــه الانتقال الى النظام الجمهوري. ان هذه المجتمعات تجمع كل اسباب تأخرهـــا وآلامها في نظام حكمها. انها تؤمن بالسحر وبقواه وبالعلاج به. حتى لقد قيل باسلوب السخرية الجادة. ان افضل نصيحة يمكن تقديمها للملوك هذه المنطقة هي ان يفعلوا شيئا عجبا، هي ان يفعلوا شيئا سهلا وتافها، هي ان يتحولـــوا الى ضباط في الجيش يحملون رتبا عسكرية، لكي يثوروا ضد انفسهم. لكي يثوروا

كضباط، ضد انفسهم كملوك، لكي يغيروا اسم نظام الحكم ويحملوا القاب ثوار.

كم هو رائع، كم هي نصيحة مفيدة، كم هو اسلوب مقنع...

ها لقد حدثت المعجزة المنتظرة، لقد اصبحوا حكاما ثوارا، يملكون كل رضا شعوبهم، كل حماسها.

لقد اقتنعت هذه الشعوب، لقد اصبحت تعيش في ثورة خلاقة بريئة نظيفة، لقد اصبحت تحكم نفسها بنفسها، لمصلحة نفسها باوسع اساليبها، بعد ان كانت تحكم بالطغاة لمصلحة الطغاة، بأفظع اساليب الطغيان.

ها، لقد مات التاريخ، مات كل عقمه وفساده. وجاءت الحضارة بكل مزاياها. لقد جاءت في ضربة واحدة، جاءت اقوى وأسرع من معجزة.

لنفترض مثلا ان في احدى البلاد العربية ملكا، اسمه حسين بن فاروق. ان على هذا الملك حينئذ ان يتحول الى ضابط في جيشه يحمل رتبة عسكرية، ولتكن هذه الرتبة لواء، ثم ليعلن هذا الملك، ليعلن حسين بن فاروق باعتباره ضابطا، الثورة ضد نفسه باعتباره ملكا. ليسقط نفسه باعتبارين مختلفين. ليسقط اللواء حسين بن فاروق، الملك حسين بن فاروق، ثم ليحكم شعبه تحت شعار آخر. تحت شعار الثورة كما يحكم الثوار العسكريون شعوبهم بأقسى اساليب القهر والاذلال، باسم الحماية الحازمة للثورة، من اعدائها الرجعيين والاستعماريين. ثم ليسخر جميع الاجهزة الدعائية للتحدث عن رذائله هو حينما كان ملكا، أو حينما كان حاكما بلا ثورة، وللتحدث كذلك عن فضائل الحكم العسكري الثوري الجمهوري، أي عن فضائله هو، بعد ان اصبح حاكما عسكريا ثوريا جمهوريا. لقد اصبح غير نفسه، وضد نفسه، وفوق نفسه.

ليمت الشيطان والفساد فقد ذهب كل ما يمكن ان يتعاملوا معهما... لتمت الرجعية فقد مات عهدها... لتصافح السماء لأرض، لقد ذهب كل سوء... لتصل الأرض للثائر الملك، لقد تغيرت ملابسه وتغير لقبه، اذن لقد تغيرت عبقريته واخلاقه، لقد اصبح رئيسا لا ملكا.

لترقص النجوم، فلقد ذهب الملك وجاء القيصر... لتبتسم الآلهة فلقد ذهب التسامح وجاء التعصب.

انه بهذه الحيلة، أو بهذه الثورة المجيدة يحمي نفسه وعرشه، من الخوف والحقد والكراهية. انه بذلك يصبح بطلا يصنع التاريخ، يغتسل به التاريخ، تهتف له كل المنابر والمحاريب، تصلي له السماء، يوضع اسمه حيث كانت توضع اسماء الآلهة والأنبياء، يستشفى به من كل جهل وألم وغباء، تتحول مظالمه وأخطاؤه وطغيانه الى عدالة وثورة ورحمة وعبقرية.

انه ثائر، اذن لتركع الهامات، وتخسأ العقول... انه ثائر. ولكن لكي تتم الصورة، لا بد هنا من القسوة، ومن القضاء على كل معاني الحرية والتسامح وتعبيراتهما... على كل وجوه الحب والاحتشام.

لابد من الحديث الدائم باسلوب فيه كل الجنون، عن بطولة الحاكم الثائر، وعن عبقريته المعصومة.

انه لابد كذلك من الكذب الدائم بلا فن، ومن الصياح بلا ذكاء، ومن التداوي بالتطاول على الآخرين وشتمهم واتهامهم بكل فحش وغوغائية وجلافة خطابية.

ولابد أيضاً من الكبرياء والغرور والتفاهة.

ولابدأيضاً من تعيير الشمس ببرودة جسمها، ومن احتقار كل عبقريـــــة، ومن البصق باعلان وكبرياء على كل فضائل التاريخ، على كل عظيم وجد، أو لا يزال موجودا.

ان تحقير كل مزايا الآخرين، هو الغذاء الدائم لكل ثورة... هو العبقريـــة الدائمة لكل ثائر... هو الدليل الدائم على اصالة وعمق الثورية.

لابد من كل ذلك، لكي نستطيع الاقتناع باننا حقا نعيش في عصر الثورة. ان هذه الفضائل القبيحة هي العلامات الكبيرة على وجود الثورة الخلاقة، على موت كل فساد. انه لا ثورة بلا فحشاء، بلا بلادة، بلا وقاحة، بلا كذب، بلا غوغائية.

ان الاحتشام والوقار يخنقان الثورة، الهما يحرمالها من انزق نشوالها.

ان الذكاء والصدق والاعتدال واحترام الناس واحترام الشـــرف وفضيلـــة النفس... ان هذه المزايا هي الأعداء الخالدون لكل ثورة.

ان الثورة ليست إلا رجوعا بالانسانية الى ما كان، قبل ان تصنع مستوياقما العالية... مستوياقما العقلية، والاخلاقية، والحضارية.

ان الكثير من الثورات ليس إلا محاولة للتخلص من المزايا الحضارية... لعـل الثورات التي تلاحقت اخيرا في العالم العربي، ليست إلا نوعا من الاصابة بعسر الهضم لحضارة اجنبية، جاءت بتعبيراقما المختلفة فـــوق مســـتوياتنا التاريخيـــة والنفسية، لتفرض نفسها علينا بقسوة وتعقيد.

لعل الثوار بعملية غير واعية يقصدون بثوراقم ان يتخلصوا من هذا الضيف الاجنبي الذي هو الحضارة... من هذا الضيف الثقيل المتعب، غير المهذب، غير المجامل، غير الملائم... من هذا الضيف العنيف الذي يحمل التبعـــات ويضـــع

الشروط القاسية، دون ان يحابي الضعفاء، أو يحابي فاقدي الموهبة، أو يحابي من يريدون ان يعيشوا بلا شروط... بلا شروط من الحضارة أو الموهبة.

ان النظام الملكي في بعض البلاد المتحضرة هو نظام حديث مثالي في تقدمه وديموقراطيته. ان النظام الجمهوري في كثير من البلدان ليس إلا نوعا من القيصرية الحمقاء، المتألهة، السارقة، والجاهلة. ان النظام الجمهوري في كثير من البلدان هو اقدم وابشع اساليب الرجعية المنافية لكل القيم الحضارية، انه القيصرية الرهيبة... انه بداوة التاريخ... بداوة الاخلاق... بداوة الحكم التي يرتجف من حولها الملوك. ان العروش لتتحول الى معابد ذليلة امام كثير من القيصريات، انها تصبح طفولة.

لقد كان الانتقال من عهد الرئيس المطلق الى عهد الملك المقيد، انتقالا كبيرا من البداوة الى الحضارة، ان شيخ القبيلة لم يكن ملكا... انه لا يرث عرشا، ولا يورثه... انه لا يدعى بصاحب الجلالة... لقد كان رئيسا... فهل كان شيئا عظيما...؟ هل كان ثورة مجيدة...؟ هل كان تقدما...؟ هل كان حرية...؟

ان القيصر والكسروية لمن اقدم النظم واكثرها رجعية. انهما رجوع الى عهد الاطلاق في الطغيان... انهما رجوع الى عصر القوة بلا تقاليد أو قوانين مكتوبة أو محفوظة... انها بلا سمت أو اخلاق.

هل انا محتاج الى ان اقول اني لست من الدعاة الى النظام الملكي...؟ لقد جربنا في بعض الملكيات افظع الحماقات والمظالم، والغباء والفسوق والسرقات لقد جربنا كل الشرور، كما جربنا كل ذلك من حكام ليسوا ملوكا. ولكن كم تبدو الموسولينية مثلا اهض وأطغى واعظم فجورا من الملكية في ايطاليا على

مستوى يجعل المقارنة بينهما شيئا ضد الاخلاق، مع ان الموســـولينية كـــانت معدودة حركة ثورية هائلة.

اي مستوى اخلاقي أو فكري أو انساني أو تقدمي لك لو انك فضلــــت موسوليني على أي ملك من الغرب بل والشرق...؟

ان نظام الحكم ليس هو الذي يصنع تقدمنا أو تأخرنا، ان القضية اصعــب من ذلك جدا واكثر تعقيدا. ان القضية ليست رفع علم وانزال علم. ان القضية ليست تغييرا في لون العلم، أو في رسومه أو في الصور الموضوعـــة عليــه. ان القضية ليست بهذه السهولة.

هل يمكن ان يكون التقدم والتخلف مرتبطين بنظام دون نظام...؟

كيف ذلك...؟

هل كل نظام جمهوري لابد ان يكون تقدميا صالحا...؟

هل كل نظام سواه لابد ان يكون متأخرا، ظالما، رجعيا...؟

هل الرجعية والفساد نظام...؟

هل التقدم والاستقامة نظام...؟

ان كان هذا غير صحيح، وهو حتما ليس صحيحا... فكيف اذن يكـــون الانتقال من احد النظامين الى الآخر طريقا الى التقدم والعدل المنشودين...؟

كيف يكون طريقا الى الجنة...؟

ام ان كل انتقال من نظام الى نظام يصنع التغييرات المطلوبة...؟

لو كان الأمر كذلك لأصبح الانتقال من النظام الجمـــهوري الى النظـــام الملكي موصلا الى هذه الغاية.

لماذا نظن اننا سنجد في الانتقال من النظام الملكي الى الجمهوري، مـــا لا نظن اننا سوف نجد مثله في الانتقال من الجمهوري الى الملكي...؟

اسلوب متوحش للسيطرة

هل مجرد الثورة – اية ثورة – ضد النظام الموجود، سواء كان جمهوريا أم ملكيا أم امبراطوريا أم اماميا، يحقق هذه النتيجة...؟

واذن فاول الواجبات على كل مجتمع ان يشيد المعاهد لتعليم فن الانتقال من نظام الى نظام، بحثا عن نفس الانتقال. ان معنى هذا ان تتحول الثورة الى اسلوب من اساليب العبادة، تتكرر في اليوم والاسبوع والسنة، وان تكون اكثر الشعوب ثورات هي اكثرها رقيا، وان يكون المطلوب هو الانتقال من النظام الموجود الى أي نظام آخر غير موجود، لكي تتكرر العملية الدائمة المطلوبة لذاتها.

ام ان التقدم والتأخر، وكذا الفساد والاستقامة، يوجدان في كل نظام. يوجد نظام امبراطوري عظيم وآخر رديء... كذلك الانظمة الملكية والجمهورية فيها هذا وهذا.

ان النظام في الحبشة وايران واليابان امبراطوري، في الشرق والغرب، واوروبا وامريكا، جمهوريات، فهل جاءت النتيجة واحدة... هل جاءت كل الملكيات مستوى واحد... هل الجمهوريات في اوروبا مثل الجمهوريات في العالم العربي... هل الملكية في بريطانيا وهولندا أو حتى في اليونان مثل الملكية في بلد عربي؟

ان الظروف والأسباب التي تجعل الجمهورية في بلد ما تقدمية وصالحة، هي نفس الظروف أو الأسباب التي تجعل الملكية في ذلك البلد أو في بلد آخر تقدمية وصالحة.

هل اذا كان النظام الملكي فاسدا نصلحه بأن نحوله الى نظام جمهوري؟

اذن فالنظام الجمهوري الفاسد نصلحه بتحويله الى نظام ملكي.

هل لو تحولت بريطانيا، أو السويد أو هولندا الى النظام الجمهوري لتخلفت وفقدت الديمقراطية والمستوى الانساني، لتصبح مثل اسبانيا وبعض جمهوريات امريكا اللاتينية...؟

هل لو تحولت هذه الجمهوريات الى ملكيات، لأصبحت كبريطانيا أو هولندا أو السويد في تقدمها ورخائها وحرياتها...؟

لقد تحولت ايطاليا بعد الحرب الثانية من ملكية الى جمهورية، وكذلك فعلت سواها، فهل حدث تغيير مثير... والمانيا، لقد انتقلت من امبراطورية الى جمهورية، وقد ظلت في الحالتين مبدعة عظيمة، ولو انها تحولت الى ملكية فهل يمكن ان تفقد عبقريتها... وهل نفع كثيرا من البلاد العربية التي كانت ملكية ان اصبحت جمهورية... هل ربحت غير الغوغائية، والأكاذيب والأزمات والقياصرة المذلين... ان النظم الجمهورية الثورية في البلاد العربية قد اصبحت نوعا من الثناء على افسد النظم الملكية، اقد اوجدت مقارنة بذيئة.

لقد تطورت وعظمت بلاد كثيرة بلا تغيير لنظام الحكم فيها، وبلا ثورات عسكرية، وقد تغيّر نظام الحكم في البلاد الاخرى، وتعاقبت عليها الثورات دون ان تعظم أو تتطور. ان افضل نموذج للنوع الاول بريطانيا واليابان والولايات الامريكية المتحدة وكثير من اقطار اوروبا الغربية. وان افضل نموذج للنوع الثاني اسبانيا، وبلاد الشرق الاوسط، وامريكا الجنوبية...

وهل يوجد نموذج للثورات افضل من بعض البلدان العربية التي جربت الثورة؟

لقد حدثت الثورة في بلد فأعقبها تقدم، وحدثت في بلد آخر فلم يعقبها تقدم، وحدث تقدم في بلاد اخرى بلا ثورة، ولم تحدث لا ثورة ولا تقدم غير

عادي في بلدان اخرى كثيرة. ان آل عثمان لو ظلوا حتى اليوم يحكمون تركيا كملوك أو خلفاء لما تغيرت الصورة فيها، ولو ظلوا يحكمون حتى اليوم، وظلت تركيا كما هي، لقال كثير من الباحثين ان آفة تركيا في خلفائها... ان آفة تركيا انه لم يثب عليها احد الأبطال الثوار.

اذن فحدوث التغيير المنشود ليس مرتبطا بالثورة، حتى ولو حدث بعدها. بل ان اكثر البلاد ثورات هي ابطؤها تقدما، كما ان اكثرها تقدما هي اقلها ثورات أو لا ثورات فيها. واذن فالثورات لا تعني شيئا طيبا... انها فقط اسلوب من اساليب الوصول الى الحكم بوسيلة عنيفة... انها شعار جديد لحالة غير جديدة... انها وصول الى الحكم باسلوب التآمر.

قد تكون الثورة نتيجة للتطور الاجتماعي أو الحضاري أو الفكري، غير انها لا تكون سببا له. ان الثورة لا تحدث لأنها وسيلة للتقدم أو شرط فيه، ولكن تحدث كما تحدث الأشياء السخيفة والأليمة، كما نصاب بالحزن والعداوة والسباب والحسد وامثاله. ان الثورة تحدث بالانفعال لا بالفكرة. ان الثوار ليسوا اكثر الناس افكارا، ولا اذكاهم أو انظفهم افكارا. ان الثورة ليس تفكيرا... انها سطو، أو قلق أو عرض للذات، أو تعبير عن انفعال من الانفعالات المتحركة بلا مزايا انسانية، بلا مزايا من أي نوع. انها كرفض الثورة، كلاهما لا يعني تفوقا في شيء.

قد يظن انه لولا الثورة الفرنسية، لما بلغت فرنسا ما بلغت من مستويات حضارية، من تطور علمي وصناعي وديمقراطي واسع المدى. ولكن الم تتقدم اليابان والولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا وغيرها من الدول الحديثة تقدمها العظيم، بدون ان تقع فيها ثورات من نوع الثورة الفرنسية التي غيرت نظاما بنظام، ومذهبا بمذهب...؟ ان في اوروبا اليوم اقطارا هي ارقى واكثر تحضرا

وديمقراطية ورخاء من فرنسا، مع انها لم تحدث فيها ثورة من طراز الثورة الفرنسية. ان التعاقب والاقتران لا يعني حتما السببية. لقد اعطت فرنسا قبل ثورتها مفكرين وكتابا عظاما، قيل ان هؤلاء هم الذين هياوا للثورة. اما بعد الثورة فقد ظلت زمنا طويلا لا تعطي إلا الازمات، والمحاكمات، والمشانق، والخوف، والسفاكين، والطغاة، وافانين الجنون. واخيرا اعطت ابنها الباهظ العبقري، اله الحرب والهزائم والانتصارات الكئيبة التي معناها الهزائم... اعطت ابنها نابليون، ذلك المخرب العظيم... ذلك النصر... تلك الهزيمة. ولم تعد فرنسا الى نفسها إلا بعد شفائها من هذا الداء. وليست ثورة فرنسا إلا طرازا متواضعا متكررا لكل الثورات العظيمة في التاريخ... الثورات العظيمة.

ان التغيير الى الأحسن يرتبط بالعامل البشري، وبالظروف والتحديات الداخلية والخارجية، وباسلوب الاستجابة لها. ان هذه توجد بالثورة وبدون ثورة، وقد تتحول الثورة الى عملية تعويق باهظة... قد تصبح الثورة تمجيدا للتطور... قد يصبح تعويقا وتخريبا كالحرب... قد تصبح ارهابا معوقا.

وكما انه قد يجيء بعد الثورة رجال تقدميون ومصلحون واقوياء، فكذلك قد يجيئون بلا ثورة، وكما انه قد يوجد طغاة ولصوص واغبياء ورجعيون بلا ثورة، فقد يوجد امثال هؤلاء بعد الثورة أو بسبب الثورة. والمجتمع الذي لا يستطيع بغير الثورة ان يصنع رجالا اذكياء، رجالا اقوياء واحرارا، كيف يستطيع ان يصنعهم بالثورة... هل السلاح اداة خلق للذكاء والعبقرية والنزاهة النفسية... ان الإنسان يخلق السلاح بموهبته، فهل يمكن ان يخلق السلاح بموهبة الانسان... ان السلاح غبي دائما، وفاجر دائما، بل انه رجعي دائما، فكيف ينتظر منه ان يصنع مزايا الإنسان أو مزايا المجتمع أو يجعله متطورا اكثر...؟

واذا بدا احيانا ان الثورات قد تغير أو تعطي بسرعة اكبر في خطواتها الاولى، فالسبب اذا حدث هذا، ان القائمين بها يكونون في العادة، مجتمعين في خطوات اولى متهيجة، أو لأنهم يريدون ان يبرروا مجيئهم، وان يعرضوا انفسهم عرضا قويا مثيرا، أو لأنهم يجيئون في ظروف ملائمة، أي انهم يجدون موجة عالية فيصعدون فوقها دون ان يصنعوها. والثوار في العادة يركزون حماسهم في اشياء معينة اعلانية على حساب اشياء اخرى يهملونها أو يفسدونها، فيخدعون بذلك. ولو انهم حوسبوا على مجموع ما يعملون لاختلفت النتيجة... لو انهم حوسبوا حسابا شاملا لظهر انهم يأخذون ولا يعطون، أو انهم نوع من الكفاف لا هم افضل ولا هم اردأ.

ان اعظم ثورة تعد مبدعة، ليست سوى اعلان عنيف عن قدوم التغيير أو ظروف التغيير، ولكنها ليست تغييرا. انها اعلان عن حالة، لا خلق لحالة، فالتغيير ليس عنفا... ان العنف قد يلزم بالأخذ بتغيير قد وجد، ولكنه لا يصنع تغييرا لم يوجد. بل ان الثورة هي استغلال لحالة موجودة، أو لحالة ستوجد في احسن مستوياتها.

ان ههنا موضعا للخديعة... ان بعض الثورات الكبرى تجيء في اوانها لتعبر عن هذه الحالة الموجودة... هذه الحالة الموجودة حتما، حتى ولو جاءت كل الثورات لتمنعها، وحينئذ يقع في التصور ان هذا التغيير الذي حدث، انما هو من ابداع هذه الثورة، وانه لولاها لما حدث تغيير، أو اذا احتيط في التعبير لما وقع هذا التغيير الكبير.

الثـــورة ليست حضارة

ان التغيرات التي تقع في المجتمعات، لا بد من وقوعها حتى ولو قامت جميع الثورات لمنع وقوعها. ان ثورات كثيرة وقعت وتقع لتمنع التغيير، ولكن التغيير ظل يحدث دائما. ان ارادة الثورة قد تكون اسلوبا من اساليب التغيير، فكيــف حدث ذلك...؟

كيف تحدث ارادة الثورة قبل الثورة...؟

اذن التغيير يحدث بلا ثورة.

ان التغيير أو التقدم كائن منفصل عن الثورة، عن الثورة المؤيدة والثـــورة المضادة. ان الثورة بنوعيها ليست حضارة، وان الحضارة ليست ثـــورة. واذا كانت الثورة بحثا عن التقدم، فالها بوسيلة غير مناسبة، بل بوسيلة مضـــادة. ان الثورة لا تستطيع ان تصنع التغيير الى الأفضل، ولا تستطيع ان تمنعه لـو ارادت منعه.

انه لو قامت في اليابان منذ مئة عام ثورة عسكرية فأسقطت النظام الملكـي وجاءت مكانه بنظام جمهوري، أو غيرت النظام الاجتماعي بنظام آخر، لقـال الناس، بل ولقال كثير من المفكرين: ان سبب نهضة اليابان هو ثورتها وتغيـير نظام الحكم والنظام الاجتماعي فيها، ولو انها – اي اليابان – ظلت متخلفـة لحسب تخلفها على نظام حكمها.

ولو ان فرنسا نابليون، وفرنسا الحرب العالمية الاولى، تحولـت الى نظـام ملكي تحت انقلاب عسكري لتصور الناس ولتصور كثير من اصحاب الفكـر، ان سبب ضعفها، وتراخيها وهزائمها وانسحابها من الصف الاول الدولي بعـد الحرب العالمية الثانية هو نظامها الملكي، وانها لو ظلت جمهورية لظلت صـاعدة ولا تهزم، كما كانت في فترة من تاريخها. ولو ان كثيرا من هذه الجمـهوريات

الراكدة الفاسدة، كانت ملكيات لجمعنا اسباب تخلفها وفسادها في نظام حكمها. ولو ان البلدان العربية التي اصابتها الثورات وتغير نظام الحكم فيها دون ان تصيب أي خير، ظلت على نظامها القديم، لقيل ان سبب عجزها هو نظام حكمها... ان الايمان بالسبب المباشر، أو الخلق المباشر خرافة سعيدة.

ان هذا الربط بين نظام الحكم وبين الاوضاع الاجتماعية، يشبه ما كان الاولون يذهبون اليه حينما كانوا يربطون بين الظواهر الطبيعية والفلكية، وبين موهم وحياهم... هزائمهم وانتصاراهم... سعادهم ونحسهم. ان تغيير نظام الحكم والثورة في تأثيرهما على تقدم الشعوب وتأخرها، يساوي تأثير الظواهر الفلكية والطبيعية في موت الناس ونحسهم.

لقد كانت الثورات تقع دائما في العصور الخوالي و لم تكن تصنع أي تقدم، بل لقد كانت تصنع دمارا وشقاء ومظالم جديدة، لأن الثورة كما ذكر غير مرة ليس في قدرها أو اخلاقها ان تصنع التقدم، ولكنها قد تستفيد من التقدم الذي قد وجد ان لم تحاول سحقه وتشويهه.

ان أي تغير أو تقدم في هذا العالم لم تصنعه أو تشارك في صنعه الثورات، والاكتشافات، والتطور الصناعي والزراعي، والفكري والعلمي والفني، والأخلاقي والقانوني... هي كل تزايد السكان، ووفرة الانتاج، والرخاء، ونمو الحريات المتنوعة... هي كل الوان الفنون والآداب والمذاهب والفلسفات... هي كل قدرة الإنسان على تصحيح معرفته لنفسه ولما حوله، وهذه كلها حدثت سلميا ولا يمكن ان تحدث إلا سلميا... انها لا يمكن ان تحدث بحرب أو بثورة.

ان استعمال السلاح ليس وسيلة من وسائل ابداع الحضارة... لا يخترع ولا يكتشف... انه يفعل ذلك في أي نوع من انواع المعرفة الانسانية... ان

جميع الذين اخترعوا، واكتشفوا لم يفعلوا وهم في الميدان يقاتلون في ثورة أو في حرب.

ان عقل العالم، أو المصمم، أو الخبير، ليس عميلا للتآمر أو القفز على الإنسان باسم الانسان. وان موهبة الفنان والمفكر ليست فاسقة العشق، بذيئة القلب الى المدى الذي يجعلها لا تهب نفسها إلا لغوغائيات الثوار وبذاءاتهم.

وأعود مرة اخرى لأقول: ان الثورة كالحرب هما لا تصنعان الحضارة، ولكنهما قد تسرقانها أو تستقويان وتتغذيان بها. ان اية حرب أو ثورة تقع في عصر متخلف غير متحضر لا يمكن ان تهب تحضرا ولا تقدما، بل ولا ان تشعر بالحاجة الى ذلك، وانما تهب آلاما وتشويهات شاملة. وكم في التاريخ من امثال هذه الحروب والثورات العقيمة.

ان الحرب لا تعالج شيئا، ولكنها تدمر اشياء... وهكذا الثورة، فهما أي الحرب والثورة في عصور التأخر لا تجلبان غير الآلام، اما في عصور الحضارات الكبيرة فانهما تعرضان نفسيهما عرضا خادعا، مزورا بأزياء واسلحة وعضلات، ليست ازياءهما ولا عضلاتهما ولا اسلحتهما. انهما حينئذ تركبان جيادا ليست جيادهما، وتلبسان حللا ليست من صنعهما.

لو ان الإنسان عاش منذ وجد بلا ثورات ولا حروب، فهل نفترضه حينئذ اقل تحضرا...؟

ان القول بان الثورات حتمية نافعة لاحداث التغييرات التقدمية الحضارية، يشبه القول بان الحروب تفعل نفس الشيء.

اذا كانت الثورات تغير، فالحروب اكثر تغييرا.

واذا لم تكن الحرب اداة تغيير... فكيف تكون الثورات اداة تغيير...؟

واذا كان التغيير بطريق الثورة مشروعا، فكيف لا يكون مشروعا بطريق الحرب؟

ان الحرب ستكون اعظم مزية اذا كان للثورة مزية... وان مزية الحرب ستكون ثمنا جيدا للثورة. وحينئذ تصبح الدعوة الى السلام والغاء الحروب جريمة يعاقب عليها، وعملا ضد الإنسان وضد تقدمه، وتصير كذلك المناداة بالحرب عملا انسانيا عظيما، ويصبح حينئذ صناع الحروب ودعاتها ابطالا، ورروادا، وصناعا لتقدم الانسان، تهتف المنابر لهم، ويسجد لهم التاريخ مثلما يلقى الثوار.

واذا كانت الحروب... كل الحروب، لا خير فيها، وضارة بحياة البشر، وبحرياتهم، ورخائهم، فالثورات كذلك، لأنها حرب... حرب على نحو ما... حرب باسلوب قد يكون اوقح.

واذا كان لا يوجد من يهاب الدعوة الى تحريم الحرب، والحكم عليها بانها ضد ذكاء الإنسان وفضيلته ومصلحته، فكذلك مطلوب إلا يوجد من يهاب الدعوة الى تحريم الثورات، والحكم عليها بمثل ما حكم به على الحروب.

ان كل من يرى الثورة عملا صالحا، فلا بد ان يرى الحرب كذلك، بل افضل من ذلك.

لقد كانت الحروب والثورات في كل التاريخ، عمليات امتصاص هائلة لطاقات الانسان، وابداعه واشواقه ورخائه... كانت تشويها مستمرا لأفكاره واخلاقه وعلاقاته ولفضائله النفسية... كانت دروسا جاهلة تعلم منها الإنسان كيف يكره ويخاف ويعادي ويموت. لقد حاول الإنسان ان يتعالج بالثورات والحروب من امراضه، فاذا هي تهبه المزيد من الامراض. ولكن كلا، فالحروب والثورات ليستا بحثا عن علاج، انهما مضاربة بين اطفال على مستوى الكبار،

باسلوب اكثر جنونا... انهما مشاتمة على مستوى السلاح. ان المتضــاربين في الحروب والثورات، لا يتعالجون أو يعالجون، وانما ينطلقون يتضاربون كمـــا يفعل الناس والاطفال في الاسواق.

ما اغلى الثمن الذي دفعه البشر، والذي سوف يظلون يدفعونه في الخــوف من الحروب والثورة، وفي الاعداد لهما وفي تعاطيهما، ان احتمالات الثـــورة تصنع الاعداد لمقاومتها، ومقاومة أي تقدم قد يحرض عليها أو يوصل اليـــها، ولمقاومة من قد يصبحون ثوارا. وان احتمالات الحرب تصنع كذلك الاعــداد لحرب مضادة.

انه بهذا يخسر الإنسان افضل واذكى جهوده بين الاعداد لثورة والحـــرب والاعداد لمقاومتهما... بين محاولته فعل الشيء ومحاولته المقاومة لذلك الشـــيء في وقت واحد.

ما اشد الضلال في ان نفعل التقدم والعدل بوسيلة بها نقاومهما.

انه لولا هذه العملية المتناقضة في ذات الانســـان... في داخـــل افكـــاره ومشاعره وطاقاته، لتقدم في طريق مفتوح، على مدى اوسع، في تناسق وتعاون وشعور بالامان اكثر، بلا حاجة الى المؤامـــرات والمخـــاتلات، والمخـــاوف والأحقاد الكبرى، التي لا علاج لها إلا بالمزيد منها.

عملية ذاتيـــة

واذن فلماذا تقوم الثورات... وفي كل التاريخ وجدت ثورات...؟

لقد كان المفروض، لقد كان المحتوم إلا تقع اية ثورة في أي عصر، اذا كان الناس لا يبحثون عن اوضاع معينة ليرفضوا اوضاعا اخرى مناقضة.

لماذا يثور الناس... لماذا يصنعون المذاهب والنظم المتناقضة المتحاربة... لماذا... ان كانوا لا يبحثون عن الافضل ولا يعرفونه؟

انه ليس للثورة اسباب أو مقاييس متحددة خارج نفوس الثوار، انه قد يثور قوم في ظروف تجعل آخرين لا يفكرون في الثورة أو يقاومونها. ان الثورة هي دائما حالة نفسية، انها ليست اخلاقية ولا منطقية. ان هذه الحالة النفسية لا تصنعها ظروف خاصة. ان الناس لا يثورون أو يتغيرون لأنهم مظلومون أو محرومون أو متألمون، ولا لأنهم شاعرون بذلك، وانما يثورون حينما يوجد مغامرون يحركونهم ويقودونهم الى الثورة.

ان سبب الثورة ليس في الظلم أو الحرمان أو في الاحساس بهما، بل في وجود المغامرين.

ان سبب الثورة في الثوار، لا في الظروف الخارجية العامة، ولا في منطق معلوم متقرر. ولهذا فانه لا ينبغي ان نتوقع الثورة حتما - كحتمية القانون - من اكثر المجتمعات سوءا وتأخرا وألما.

انه لم يحدث ان كانت الشعوب الثائرة هي اشد الشعوب حرمانا أو اقلها نصيبا من الحياة والعدل. بل لقد كان الذين يثورون أو على الأصح، كان الذين يقودون الثورات، هم في الغالب من ذوي المستوى الحسن على نحو ما... انه لا يمكن ان يكونوا من ذوي أسوأ أو أدنى المستويات. والذين يحيون حياة مندحرة وذليلة تماما، قد يلصقون بالأرض، ويفقدون كل رغبة أو قدرة على المقاومة، انهم يحتاجون حينئذ الى من هم افضل حياة منهم، لكي يخرجوهم من ورطتهم السحيقة.

والآلام الباهضة قد تصنع الذهول، والاغماء والرغبة في البكاء والانسحاق والانطراح. انها قد تفقد الشعور بالهوان، بل وبالآلام نفسها. انه قد يتحول

الألم الشديد الى موت، ولا يستطيع حينئذ اقسى انواع الظلم والحرمان، والتأخر والفساد ان يكون صانعا لاية ثورة.

والثورات التي تقع على امتداد التاريخ، هي في الواقع تصرفات عادية مثل الضرب والشتم، والغضب والعصبية ومظاهر التعب، ومثل اعمال التجارة واطلاق النار على الحيوان، ومثل مخاصمة الزوجة والجيران والانداد، تتحول تحت الظروف الملائمة الى اساليب ثورية.

ان الثائر ليس إلا لصا أو قاتلا أو تاجرا، قد اضطرته الظروف، أو اضطوه النصر الى ان يغير سحنته ويخفي ذاته، وملامحه الحقيقية الرهيبة الكريهة، تحت شعارات المجتمع وضروراته ومكاسبه المتراكمة.

ان الفرق بين الثائر والمجرم العادي، ليس فرقا اخلاقيا أو نفسيا... انه فرق اجتماعي. ولهذا فان كل ثائر هو عدو شرس للثورة، فهو لا يثور لأنه يحترم الثورة أو لأنه يؤمن بأهداف ثورية دائمة، انه يثور ليكون ثائرا... ليكون مالك ثورة... ليكون بطلا أو لصا كبيرا. فاذا كانت الثورة ضده، حاربها كأشرس الأعداء.

انه دائما يوجد ثوار، ولكن لا يوجد اصدقاء للثورة. انه قد يعادي الثائر الثوار الآخرين اشد العداء... انه قد يعاديهم اكثر مما يعادي خصوم الثورة... انه قد يرى الثائر في الثائر الآخر منافسة مثيرة لا يراها في غير الثائرين.

ان الثورة عملية ذاتية، اهدافها وحوافزها الاعتداء والانتصارات والهرب من شيء ما، حتى في افضل صيغها. ان الثائر لا يثور لأنه يبحث عن اية حقيقة خارج ذاته، أو لأنه ينكر شيئا انكارا انسانيا واخلاقيا، فليس لاي ثائر اية اهداف خارجية، خارج ذاته. ان كل ثائر يعبر عن ذاته بالاسلوب الذي تعبر به الطبيعة عن ذاتها حينما تبطش أو تتحرك.

نحن لا نثور لأنه يجب ان نثور، نحن لا نرفض الثورة لأنه يجب رفضها، ان الثورة اسلوب من سلوك القطيع، الها حركة متتابعة بلا وعي، الها كما يفعل القطيع في تتابع افراده دون ان يكون ثائرا أو مذهبيا. انه لولا روح القطيع في الإنسان لما قامت اية ثورة كبيرة.

ان الناس ينتظرون من يضرب أو يدمر أو يكره أو يعتقد اولاً ليفعلوا مثله بغباء حيواني. اما الذين يبداون اولا، فهم اجهزة التفجير التي لا بديل عنها. انه قد توجد كل المبررات الادبية والعقلية للثورة ثم لا توجد الثورة، وقد توجد بدون مبرراقما. والمجتمعات التي لا تثور ليس لألها صالحة أو راضية عن نفسها وعن حظوظها، أو مستغنية عن الثورة، والها ليست حتما افضل من التي تثور، وانما هي مجتمعات لا يوجد فيها صانعوا الثورة، لأنه لا يوجد فيها ظروف الثورة ونفسيتها أو القدرة عليها، أو الايحاء بها، اما لألها متعبة ومتأخرة جدا، واما لأسباب اخرى.

ان الشرط الدائم للثورة وجود ثوار، لا وجود اوضاع ترفضها التعاليم أو الاخلاق أو المنطق. ان الثورة رجال لا اوضاع... وان الرجال لا يجيئون على مقدار الظروف والمنطق والضرورات الموجودة أو التي قد توجد، الهم يجيئون على غير مقياس، كما يجيء الذكاء والغباء والطبيعة. ان احدا ما لا يجيء بقدر الحاجة اليه، لا كما يرى المنطق ان يجيء. وكما لا تجيء الطبيعة بقدر الحاجة وحكم المنطق، كذلك لا يجيء البشر. وليس لاي شيء مقياس أو ضرورة من ذاته... ان البشر هم مقاييس الأشياء وضروراقا، اذ لا توجد ضرورات ومقاييس خارجية... انه لولا البشر لما حكم على شيء بانه ضرورة وبانه غير ضرورة، ولما طولب شيء بان يكون بهذه الصيغة دون تلك الصيغة، بل لما نقد شيء أو امتدح شيء، ولما كان شيء معقولا وشيء غير معقول.

وقد عرفت كل المجتمعات الثورة والثورة المضادة للثورة، ولكنها لم تعرف الفرق ولا الحدود بينهما، و لم تعرف كذلك ايتهما المخلصة، لأن الاخلاص كلمة ضخمة بلا تفسير في اية لغة ولا في سلوك، ولأن الحدود أو الفروق موجودة في ارادتنا، لا فيما نريد. واذا كانت المجتمعات المتقدمة أو بعضها لا تتعالج بالثورة فليس لأنها قد وجدت افضل الأشياء، وانها احترمت هذا الذي وجدت وكرهت ان تغيره، أو انها لا تشكو شيئا، ولكن لأن الثورة فيها غير ممكنة أو غير مغرية، لأنها لا تصلح ان تكون فيها اسلوبا من اساليب التعبير عن الذات، أو من اساليب القفز على العرش، أو من اساليب سرقة البطولة.

ان البشر لا يجيئون طبقا لمثل خارجية محددة، بل المثل تجيء طبقا لهم، فالانسان هو دائما نموذج نفسه ونموذج كل الأشياء. والنماذج التي يريد ان يكونها ليست سواه. انه لا توجد اذن حقائق متقررة يثور الناس أو يسعون لتحقيقها. انه اذا ثار المظلومون المعذبون فليس لأنهم مظلومون معذبون، وانه اذا لم يثر السعداء المحظوظون فليس المانع لهم من الثورة سعادتهم وحسن حظوظهم، بل اكرر ما قلت وهو ان السعادة قد تكون احد اسباب الثورة والتبرم، كما ان الشقاء قد يكون احد اسباب الهزيمة والصبر الذليل.

وايهما يثير سخط الإنسان وثورته: العدل أم الجور...؟

لقد ظل البشر في كل تاريخهم راضين عن الطبيعة مع هول جورها، حتى لقد حولوا جورها الها كامل الأخلاق. ولكنهم مع ذلك ثائرين على الطبيعة... كانوا ثائرين عليها، لأنهم كانوا يغيرونها ويعملون ضدها.

ولو كان الظلم أو الفساد يصنع الثورة حتما، لثار البشر جميعا وفي كل الازمان ضد الطبيعة، ولما احترموا منطقها أو حكمتها أو اربابها. لو كان الإنسان يثور ضد الأكثر سوءا وفسادا، لظل دائما ثائرا بمنطقه ضد الطبيعة

وضد اربابها. والذين يرضون بمنطقهم وعقائدهم عن حماقات الطبيعة ومظالمها، كيف لا يرضون عن كل طاغية... عن كل الم... عن كل فساد؟

الحارس الذئب

قد يكون معنى الثورة، ان يصاب احد العسكريين بالمغص، أو الأرق المزمن، أو بنشاط الغدة الدرقية، أو بزوجة شرسة، أو بالحقد على رؤسائه، أو بالغيرة، فيطلب الى جماعة من زملائه بمثل حالته ان يخرجوا مع الفجر من معسكراتهم، ليستولوا على دار الاذاعة، ويعلنوا انفسهم ثوارا.

قد يكون معنى الثورة، ان طفلا مسلحا يغضب، أو يغار أو يمرض... فيتحول الى ثائر. والمحتوم ان كل ثورة تصنع مزيدا من احتمال ثورات اخرى، في مشاعر الأطفال المسلحين الثائرين.

واذا كان من المزعوم ان الثورة تصبح احيانا دواء يستطب به كضرورة علاجية، فان العقدة انه لا يوجد أي ضمان في أي وقت وباية صورة من الصور، بان هذا الدواء الاضطراري لن يستعمل إلا بقدر الحاجة، في الحالة الملائمة، في الوقت الملائم، بالاسلوب الملائم... يستعمله الإنسان الملائم. اما الثورة المطلقة فانها تساوي العلاج المطلق، أو الجنون المطلق.

انه اذا كان كل من يظن انه قادر على الثورة، وانه يريد ان يعالج خطأ موجودا، يطلب منه أو يباح له ان يثور، فان هذا يشبه ان يطلب من أي انسان معالجة اية حالة مرضية يراها، بل ان يجري عملية جراحية أو اية عمليات جراحية جماعية، لأن الثورة هي كذلك عملية جراحية جماعية.

اذا كانت الثورة مشروعة حينما تكون علاجا، فأنى يعرف ذلك...؟

قد يزعم حينئذ أي مغامر... أي مقامر... أي مريض... أي طامح... أي متوتر، انه يثور لأن ثورته علاج.

قد تكون الثورة تساوي القدرة عليها، لا نتيجتها ولا الحاجة اليها.

اذا كان يجوز للص ان يسرق في حالة ما فكيف تعرف هذه الحالة، وما الضمان بألا يتجاوزها...؟

ان الجيش الذي يتدخل للاستيلاء على الحكم تحت أي سبب من الاسباب، هو كالحارس الذي يسرق ما وضع تحت حراسته... أو يعتدي على من وضع لحراسته. ان هذا الجيش آثم، ومخطيء، وخارج على القانون، مهما كانت حوافزه ونتائج تدخله. ان تحرك أي جيش داخل أي مجتمع، لا يعني ان ذلك المجتمع يعيش على فراغ، وانه لا توجد فيه اية قوة، سوى قوة السلاح الغبي الهمجي.

تحرك الجيش في المجتمع يعني انه ليس في المجتمع راي عام، ولا تقاليد قوية، ولا احترام للنظام أو القانون. وليس فيه كذلك قيم اخلاقية، أو مذهبية، أو فكرية... وانما فيه السلاح وحده.

لقد تحرك السلاح وحده في ذلك المجتمع. فهل لأنه الأذكى أو لأنه الأقوى...؟ كلا الاحتمالين تحقير للمجتمع. والذي يمنع السلاح من التفكير في سرقة الحكم هو ان يكون المجتمع ذا قيم قوية من أي نوع. والسلاح بطبيعته سارق، ومصاب بالغرور، والحماس للحماقات المتوترة. في هذا العصر قد تكون الثورة صعبة أو مستحيلة، ما لم تكن ثورة جيش، لأن الجيوش قد اصبحت هي القوة القهارة في كل المجتمعات. وحينئذ ما الذي يعطي الضمان بأن الذين يملكون هذه القوة القاهرة سيظلون عقلاء أو شرفاء أو اصحاء أو معصومين من الحقد والطموح، ومن شهوة عرض الذات، ومن اغراء اللعب

بالسيف...؟ وكم هو مغر الى حد الجنون، ان تستعمل سلاحك لكي تصبح حاكما مطلقا فجأة، ليدين لك كل شيء.

اذا اصبح السلاح وحده هو الذي يفكر ويفهم وينتقد ويشخص الخطأ والمرض ويعالجهما ويضع الفلسفات والمذاهب والشرائع ويحاكم ويعاقب وينفذ العقوبة ويستولي على الحكم كلما استطاع، أو يحاول الاستيلاء عليه كلما شعر انه يستطيع، فلا بد ان يكون المعنى اكبر من الفساد والفوضى... بل اكبر من الجنون والهمجية.

اذا اصبح السلاح الها، ونبيا، فلا بد ان يكون الإنسان قد اصبح شيئا صغيرا جدا.

اذا ثار الجيش فمعنى ذلك ان الجيش قد اصبح الها ونبيا وقانونا وقضاء... اصبح هو المنطق والاخلاق والكرامة والحرية في المجتمع وللمجتمع.

ان ذلك اذلال لكل مفكر... لكل مثقف... لكل انسان.

ان المجتمعات تسلح الجيوش وتدربها وتتكلف نفقاتها الباهظة على حساب رخائها وذكائها، لتؤدي عملا معينا لا يستطيعه غيرها... لتؤدي عملا مجنونا، اكره عليه مجانين آخرون فعلوا نفس الجنون. ولكي تصبح هي القوة المجنونة الوحيدة، الضاربة في المجتمع. فاذا تحولت هذه الجيوش، وهي القوة الوحيدة في المجتمع، الى رصيد للمغامرة والتآمر والقفز ليلا على السلطة، مستعملة السلاح الذي وضع في يديها، لتستغله في الانتصار والتسلط على الذين سلحوها ودربوها، وتحملوا الانفاق عليها، وهم لا يتكافاون معها لأنهم لا يحملون سلاحها وتدريبها، اصبح الأمر اسلوبا بذيئا من اساليب التخطي لكل القيم الحضارية والرجوع الى الغابة بوسائل جديثة، واصبح الأمر كذلك نوعا خطيرا من الخيانة والغدر.

كيف يمكن حينئذ ان ينام المجتمع أو يفهم كيف يمكن ان يكون صباحه أو مساؤه... كيف يمكن ان يكون غده، وهذا الوحش المسلح يعيش داخله...؟

كيف يمكن حينئذ ان يظل عاقلا، أو كيف يمارس اعماله وحياته...؟

ليس بطولة، ولا عملا كبيرا، يمكن ان يفخر به أي انسان، ان يثب الذين يحملون السلاح، على الذين وضعوا السلاح بايديهم، دون ان يحملوا هم سلاحا، لكي يفرضوا عليهم انفسهم وغوغائيتهم وبذائاتهم المذهبية... لكي يفرضوا عليهم الايمان بهم ابطالا، وانبياء، ومعلمين.

واذا كان من الجائز تبرير وثوب الجيش على الحكم، لأنه يوجد احتمال بأن يكون ذلك مفيدا أو ضرورة، فانه توجد احتمالات مضادة قوية، بأن يكون ذلك الوثوب مجرد طموح أو توتر أو محاكاة أو منافسة أو حقد أو لعب بالسيف أو عرض للذات بوسائل حربية أو خروج من السأم والفراغ باية وسيلة أو شوق الى تجربة السلاح أو بحث عن المغامرة والاثارة أو النصر بلا أي هدف أو مجرد بحث عن التخلف.

ان تجربة السلاح، تجربة فيها كل الاغراء والشهوة. ان اللعب بالسيف قد يكون لعبا يفضله الكثيرون على كل انواع اللعب... ما اعظم الاثارة في ان تكون لاعبا، وان تكون لعبتك هي الجيوش، معلنا بها انك قد اصبحت السلطان والاله والنبي والفيلسوف والقاضي والمصلح والمؤدب والبطل بل والتاريخ.

ما اعظم الثورة اذن... فكن ثائرا اذن، لتكون كل ذلك... لتكون كل هذه الامجاد.

ان تدخل الجيش المستمر لانتهاب السلطة، يوحي بنفس الشيء الى جميع من يعيشون تحت السلاح. ان الذين يعيشون تحت السلاح مستعدون للغواية

السريعة... للجنون الباهظ. انه في الليلة التي يخرج فيها بعض الضباط من مضاجعهم ومعسكراتهم للاستيلاء على مراكز السلطة، تكون العملية نفسها قد اوحت الى ضباط آخرين بنفس الفكرة. بل صنعت ظروف الفكرة، وظروف العملية المضادة لها. انك اذا جننت، أو تسلطت، أو سرقت في مجتمع، فلا بد ان يوجد من يفكر في ان يعاقبك، أو يقلدك أو ينافسك.

ان تدخل الجيوش تحت شعارات الاصلاح ومقاومة الفساد، يعني ان يصبح رجل واحد نبيا وقاضيا وسيافا... يشرع، ويحكم، وينفذ. وان يكون هذا الرجل الواحد ضابطا في الجيش. وما مثل هذا إلا ان يتحول رجل الشرطة الحارس للناس والأشياء الى شريعة وحكم بلا محاكمة، والى سيف، ثم يعلن نفسه بطلا منقذا، ثم يعلن نفسه ثائرا يبدأ التاريخ يصحح ويجدد به نفسه، ويتطهر بعبقريته من الرجعية والخيانة، والفساد والعجز.

وهل يحدث مثل هذا في أي مجتمع؟

ان اية ثورة عسكرية تقع باسم المقاومة لأي عهد أو نظام أو فساد أو لأي تأخر، تشبه هذا الذي لا يحدث .

ان الجيش الثائر نفسه... الفاضل جدا... ذا المذهب أو التفكير الثوري جدا، لا بد ان يرى اية ثورة اخرى ضد ثورته أو ضد اخطائه، هي خيانة عظمى وخروج على القانون، ولا بد ان يعاملها على هذا الحساب مهما كانت صالحة أو نافعة اكثر من ثورته. ان كل من ثاروا على غيرهم، يرون كل ثورة عليهم هم، خيانة وغدرا. انهم لن يتسامحوا معها أو يتوقفوا ليسألوها بورع حزين: هل هي فاضلة، هل هي اعظم نفعا وثورية من ثورتهم...

انهم لا يعاملون الآخرين بالمنطق الذين يعاملون به انفسهم، انهم اذا ثاروا فهم منقذون وانبياء، واذا ثار الأخرون فهم خونة ومتآمرون.

اذن فجميع البشر يرفضون الثورات العسكرية ويرون فيها عمليات تخريبية، ولكنهم يمارسونها احيانا أو يرحبون بها حينما تكون منهم أو لهم. وهذا كما يذمون ويلعنون جميعا الأخلاق والرذائل التقليدية المعروفة، وان كانوا يعاقرونها بسلوكهم، أو يرضون عنها اذا صدرت عنهم، أو جاءت وفق ما يشتهون.

ان اعداد الجيوش عملية ذئبية. ان قوما يعدون ذئابا مقاتلة، لأن قوما آخرين يعدون ذئابا اخرى، أو فيعد الآخرون ذئابا مشابهة. ان كل اصحاب الذئاب لم يستطيعوا ان يتخلصوا من كل ذئابهم.

اي ذكاء في ان تعد انت ذئبا لكي اضطر انا الى اعداد ذئب مقابل لكي يحميني من ذئبك، أو بالعكس... اليس الذكاء، اقل الذكاء ان نتخلص انا وانت من ذئابنا...؟

ان اعداد ذئب ليلاقي ذئبا آخر يساوي قتل جميع الذئاب، ذئابي وذئابك، من حيث التمانع. ان الفرق بين الحالتين هو الخسائر والتبذير، والآلام في الاولى دون الثانية. وان احتمال التفاوت بين الفريقين يظل موجودا، حتى لو لم توجد هذه الذئاب.

وهذا الاعداد المتقابل للذئاب... أي للجيوش، يشبه ان يوجد اتفاق على ان تقلع عين خصمك ليقلع هو عينك، أو ان تهدم بيت جارك ليهدم بيتك، أو ان يستعد كل منكما لذلك بكل طاقته وحماسه وتفكيره، منفقا فيه ابهظ النفقات... دون ان يفعله.

ان البشر بكل ذكائهم وتجاربهم وحضاراتهم واديانهم وآلهتهم وأنبيائهم، وبكل اخلاصهم لأنفسهم، لم يستطيعوا ان يتوصلوا الى الاتفاق فيما بينهم، على التخلص من هذه العملية الذئبية الباهظة... لقد ظل البشر ذئبيين... لقد ظلوا يتعالجون من خلافاتهم ومشاكلهم وهمومهم بالذئاب المدربة.

ان جميع الجيوش منذ بدأ تكوينها لم تستطع بكل ما شنت من حروب عامة أو جزئية، ان تحل من مشاكل الانسان، أو مشاكل الحياة، أو ان ترفع من مستوى الحياة أو الانسان، وليس في طبيعتها ان تفعل. بل الها دائما تصنع المشاكل، وتصنع لها الأنياب والأظفار. ان جيشا ما قد يكسب نصرا على جيش آخر، ولكن هذا النصر ماذا يعني؟ ان النصر ليس إلا هزيمة للانسان... وقد يكون هزيمة للمنتصر نفسه، ليس للنصر من معنى اكثر من الهزيمة.

ان كل البشر لم يستفيدوا اية فائدة من كل الحروب التي شنتها كل الجيوش كل العصور. ان كل الحروب في كل التاريخ، لم تكن إلا ثأرا من حرب أو حلا لمشاكل حرب أو نتيجة لحرب، أو خوفا من حرب، أو سببا لحرب أو تصحيحا لأخطاء حرب أو تداويا بما هو اقتل.

اذن فالجيوش لا يمكن ان تعطي البشر أو الحياة شيئا. ان الانتصار الذي هو اعظم نتيجة لاية حرب، لا يعطي الحياة أو الإنسان شيئا... بل انه ليس إلا صانع حرب مقبلة وهزيمة مقبلة، فالمنتصر كائن يحمل حربا وهزيمة آتيتين. ان المنتصر ليس إلا هزيمة مؤجلة... ليس إلا حربا مؤجلة.

ان الجيوش مثل الأمراض، ان كل ما يمكن ان يستفاد منها تعاطي اللقاح منها ضدها... وهل يكون الإنسان شاكرا للمرض أو مؤمنا برسالة المرض وقيمته الانسانية، لانه يصيبه فيتخذ لقاحا ضده...؟

ولكن التلقيح بالجيوش والحروب ضد الجيوش والحروب لا يمنح النتيجة التي يمنحها التلقيح بالمرض ضد المرض. ان مواجهة الجيوش بالجيوش، تصنع الاحتياج الى جيوش اخرى، ومواجهات اخرى... وليس كذلك التلقيح بالمرض ضد المرض.

ان للجيوش وظيفة كبيرة واحدة في حياة الانسان، تلك هي الوظيفة الـــتي تؤديها لحياته الحشرات والطفيليات. ان وظيفتها ان تمتص دمـــاءه وارزاقـــه، وتجلب له الآلام والخراب والتشويه دون ان تعالج امرا من اموره أو تعطيـــه أي تفسير لوجوده، أو أي دفاع عن ذكائه، أو عن احترامه لسلوكه.

ان الإنسان لا يبدو كريها صغيرا جالبا للسخرية والرثاء الأليم، مثلما يبدو حينما يبدو في ملابس الجنود، ينظر الى المرآة بكبرياء ولكن بلا فخر، ويظـــهر الرضا عن وظيفته الذئبية الحشرية، والاستعداد لتأديتها بطاعة، ولكن بلا ارادة أو اخلاص أو عاطفة أو ذكاء أو شجاعة... بـــل كدميـــة شـــريرة باهظـــة التكاليف.

هل يدرك العسكريون وهم يختالون في زيهم الباهظ التكاليف، لا البـــاهظ الدلالة، ان أي راقع أي حذاء يهب الحياة والانسانية ما لا تســـتطيع ان تهبـــه جميع الجيوش في جميع العصور، في جميع الحروب.

هل يدركون انهم يقاتلون الانسان، ولا يقاتلون من اجل الإنسان في ايـــة حرب.

هل يدركون انهم ليسوا إلا منتصرين أو مهزومين، وان المنتصرين ليسوا إلا منتصرين على الانسان، وان المنهزمين ليسوا إلا منهزمين على حساب الانسان، وان النصر كالهزيمة... كلاهما محسوب على الانسان؟

ليس في اعمال البشر كلها ما هو اسخف من اعداد الجيوش.

انه اذا كان لابد من ان نتحارب فان بقاءنا بايدينا اذكى وافضل مـــن ان نخترع الخناجر. انه بلا عداوة لا معنى للجيوش، ومع العداوة ما افظع الجيـــوش واغبى النتائج، فالجيوش اما جنون انفاق، واما فظاعة آلام وغباء نتـــائج... وفي كل الحالات، هي فظاعة آلام وغباء نتائج.

ان قيام ثورة عسكرية في أي مكان، يعني ان يصدم العالم كله بالنبأ الكبير المذهل... ان يصدم العالم بالنبأ الذي معناه، ان حشرات وذئابا مدربة على القتال، قد استولت على بلد ما، لتحكمه نيابة عن الأنبياء والعلماء والفلاسفة... لتحكمه بأخلاق الأنبياء وعبقرية العلماء والفلاسفة الذين لا بد ان يتجمعوا، أي الانبياء والفلاسفة والعلماء في ملابس العسكريين الثوار.

الثائر أشرس من رجعي

ان الايمان بالثورات العسكرية طفولة تاريخية مترسبة في بعض المجتمعات. الها فيها اخلاق متخلفة لا افكار خاطئة. الها تفعل لأن في شهواتها الحرب، لا لأنها تفهم ما تفعل. وليس للثورة في مثل هذه المجتمعات من معنى اعمق من الاشتباك بين جماعاتها وافرادها بالايدي، أو بالكلمات البذيئة أو بالعواطف السوداء، تعبيرا عن اقدم ما فيها من بقايا التاريخ. ان الذين يتضاربون بالايدي أو بالكلمات البذيئة الجارحة، أو بالعواطف السوداء المتأججة، يحملون كل المعاني الثورية التي يحملها من يمارسون اكبر ثورة تسقط اقدم النظم، لتقيم اقوى النظم وأشدها فتكا.

ولو كانت الثورة علاجا مشروعا لقامت اكبر مشكلة... انه لابد ان توجد دائما عيوب... فهل كلما وجدت العيوب شرعت الثورة لعلاجها؟

لو كان ذلك كذلك، لاحتاجت كل ثورة الى ثورة مضادة لعلاج عيوبها التي لا مفر من وجودها... ان هذا يعني ان يستمر البشر في ثورات دائمة بلا سلام.

اما اذا كانت عيوب الثورات تعالج بغير ثورة، فهذا يعني ان عيوب غير الثورة تعالجأيضاً بلا ثورة، وهذا رفض لكل ثورة.

انه ما من ثورة إلا وتصبح بالتقادم غير ثورة، فهل تشرع الثورة عليها...؟ وان غير الثورة كانت يوما ما ثورة، وهذا يقضي بتحريم كل ثـــورة، لأن الثورة على الثورة لغو وزندقة.

ان كانت العيوب والأخطاء لا تعالج إلا بالثورة ضد الذين تحـــدث هـــذه العيوب والاخطاء في عهدهم، فالثورة اذن دائما مطلوبة ضد كل انسان وكـل عهد... واما ان كانت تعالج بغير ثورة، فلماذا الثـــورة في أي ظـــرف مـــن الظروف...؟

ان اعظم ثائر في التاريخ كان يجب ان تصرعه احدى الثورات لو كـــانت الثورة علاجا صحيحا ومشروعا، لحسم الأخطـــاء والنقـــائص، والتخلـــف والفساد... ان اعظم الثوار ليستحق ان تصرعه اعظم الثورات لكثرة ذنوبـــه وخطاياه... ان ليستحق كل ما في الدنيا والتاريخ من ثورات، لأن فيه كل مـا في الدنيا والتاريخ من آثام.

ان الثورات اذن خطايا يقترفها الثوار كعصاة، كما يقترفون الكذب والغش والذنوب الأخرى، لا مزايا يستحقون عليها ان تهتف لهم النجوم، وان يتنـــازل البشر لهم من اجلها، وشكرا لهم عليها، عن كل كرامتهم وحرياتهم وذكائـــهم ووقارهم، بل وعن كل رخائهم. ولهذا فان الثوار يستحقون بلا رحمة وباســـم القانون والعدل كل من يثورون عليهم، كما ثاروا هم على مـــن قبلـــهم... يسحقونهم كعصاة لا كشهداء. انهم لا يقفون هنا بشهامة ليقولوا: لقد ثرنـــا على من قبلنا، فمن العدل ان يثور علينا من بعدنا.

ولو كانت الثورات عملا وطنيا طيبا، لوجب ان يهتفوا لكل من يثـــورون عليهم وان يستقبلوهم بالدعاء والترحيب والمبايعة.

ولكن لو ان ثائرا ثار ضده احد الأنبياء، فهل يتورع هذا الثائر عن صلب هذا النبي، وعن تحريف جميع ما يحمل معه من الواح ووصايا، باسم الوطنية أو الانسانية أو النظام أو باسم التعاليم الدينية التي جاء بها ذلك النبي المصلوب، أو باسم مقاومة الرجعية. ان الثائر الذي يحرم ان يثار عليه، هو اما بليد أو ظالم، هو اما طفل أو طاغية... انه وقح قاتل أو وقح سارق .

انه لم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ، ان اباحت قوانين أي مجتمع من المجتمعات اية ثورة عسكرية أو اية ثورة تحت أي ظرف من الظروف، بل كانت كل القوانين في كل العصور، تحرم كل ثورة وتعاقب عليها دون ان تسألها عن حوافزها أو عن قيمتها، وعن احتمالاتها الطيبة أو الشريرة. ان كل مستويات العدل والذكاء والشهامة تقضي بان يرحب الثوار بكل ثورة، حتى ولو كانت موجهة اليهم هم لتسقطهم.

اذن فكل الثورات خروج على كل القوانين حتى على قوانين اشد الثوار ثورية... بل ان الثوار هم اشد الناس مقاومة للثورات التي لا يكونون فوقها.

ايها الثائر...

انت لست ثائرا... فقبل الثورة لا ثورة، وبعد الثورة التي ينتصر فيها حقدك، تصبح اعنف عدو لكل ثورة.

تصبح اشد الناس رجعية، وقتالا عما هو موجود... عن مظالمك... وغباوتك... ونقائصك... وكل اجهزتك الرهيبة القتالة، المعوقة للتطور والتغير...

اذن متى انت ثائر...؟

متى تكون الثورة موجودة...؟

*

انه لمن اللغو القول بأن الثائر قد يكون غير رجعي.

ان الثائر لا بد ان يكون رجعيا... ولكن رجعيته، قد تكون من طراز آخر، من طراز افتك وأبلد...

والثوار... صناعة غربية

لقد كان المفروض دائما ان الثوار يزيلون المجتمعات القديمة المتبلدة ليقيموا مكانها مجتمعات جديدة نابضة متغيرة... اما غير الثوار فالمفروض انهم محافظون، يدافعون عن كل قديم، ويقاومون كل تغيير لأن التغيير يسحقهم أو يسحق مصالحهم الظالمة. ان الثورة اذن نقلة اجتماعية وانسانية هائلة، بينما المجتمعات التي لا تثور جمود تاريخي ثقيل، ورفض دائم لاحتمالات المستقبل الأفضل، التي لا حدود لها.

ولكن التخلي عن القديم لبناء الكائن الجديد لا يحدث بدون اسبابه، لا يحدث بضربة اليد، أو بضرب اليد في الهواء، وانما يحدث بالتفاعل المستمر. والتفاعل المستمر يحدث تحت جميع الظروف.

ان كل ما تصنعه الثورة - ابرع ثورة - ان تجيء الى ما قد وجد، الى ما قد تجمع في خزائن التاريخ من فنون وعلوم وافكار، وتجارب وتقدم في كل جهات الحياة، ومن استعدادت نفسية، لتنادي به أو تستثمره على افضل الاحتمالات، ولكنها لا تبتكره. واحيانا يحدث العكس... احيانا تحاول الثورة تدمير ما هو موجود، أو افساده أو تحريفه أو تعويقه. ان هذا معروف عن كثير من الثورات القديمة أو الحديثة. انه لا يمكن ان تكون ثورة دون ان تكون معوقة، مدمرة، محرقة، مضللة على نحو ما، أو باسلوب من الأساليب، والا فما معنى كونها ثورة... والا فلا ثورة.

ان كل ثورة لا بد ان تصنع حياة داخلية حادة... لا بد ان تصنع توتـــرا. وهذه الحالة المتوترة، قد تعوق نمو المجتمع لأنها تمتص طاقاته واهتماماته... انهــا تشغله بالخوف والضجيج والتوتر والمخاصمات والمحاكمات عن اعمال التغيــير والترحيب به... انها تحوله الى وقود رخيص للبذاءات والغوغائيات والخـــوف والضجيج وانتظار المفاجآت... انها تحوله الى حرائق... تحـــول اهتماماتــه، وافكاره واخلاقه الى حرائق... انها تلقي بالحريق في كل رؤيتــــه، وفي كـــل تطلعه، وفي كل همومه... انها تجعله يعيش دائما في حريــق، وينتظـــر دائمـــا مستقبلا... مستقبلا كله حرائق.

*

واذا كان من المزعوم دائما - كما سلفت الاشارة - ان الثوار يدمـــــرون القديم، وان غيرهم يحافظون عليه، فمن الصواب ان يقال ان الثوار وغـــيرهم، هم جميعا لا بد ان يرتبطوا بنظام ما، وان يقاتلوا بوحشية من يحاولون الثـــورة ضده، أو حتى الشك فيه. ومن المحتوم ان يصبح الثوار اعنف محافظـــــة علـــى نظامهم، وقسوة على من يريدون تبديله أو نقده. ان للثائر ولغير الثائر نظامـــا لابد ان يحميه ويتعصب له، ويتحول الى طاغية قاتل في سبيل المحافظة عليه مـــع الفرق العظيم بينهما، بين الثائر وغير الثائر... مع الفرق العظيم لمصلحة غـــير الثائر. وقد نظلم غير الثائر اكبر الظلم حينما نسوي بينه وبين الثائر في التعصب والجبروت والقسوة المذهبية. ان الثوار هم دائما اكثر خوفا علـــــى نظامـــهم ووحشية في دفاعهم عنه ووقوفهم عنده. انهم دائما اكثر تعصبا ضد الجديد... لهذا فهم قتلة اكثر من كل القتلة، ورجعيون اكثر من كل الرجعيين، وان كان موضوع الرجعية يختلف. ان عقدة الثوار انهم ازالوا من قبلهم بالتآمر، انهم اذن لابد ان يصابوا بعد انتصارهم بمرض الخوف والتوقي. انهم لا بـــد ان يصبـــح

الجنون والاجرام احدي مزاياهم المفضلة. انه لمحال ان يصبح المغتصب للحكم والزعامة بالتآمر والقوة، متسامحا أو متوقرا في تعصبه وقسوته، وفي دفاعه عن مجده الغاصب، المغصوب، والمغتصب.

ان اية ثورة لا يمكن ان تكون اكبر أو اعظم من العصر الذي تعيش فيه. ان كل الثورات في اعلى مستوياتها ليست سوى تعبير عن عصرها وتمثيل له... انها لا تكون ابدا تفوقا عليه. ان الثورة - كل ثورة - لا تتفوق على عصرها ابدا.

ان اليمن مثلا متخلف تخلفا يقل ان يوجد له شبيه في هذا العصر. وقد نظن ان سبب تخلفه هو نظام الحكم فيه، وانه لو حكمه آخرون، أو لو كان يحكم حكما جمهوريا، لتغير الموقف. ان هذا تفسير سهل لواقع صعب. اننا نميل دائما الى ان نفسر الأشياء الصعبة الاليمة تفسيرات سهلة بسيطة، لأن هذه التفسيرات تريحنا من التفكير ومن الاحساس بقسوة الحقائق القاسية. ان التفسير الطيب للحقيقة الشريرة، قد يهبنا شيئا من الراحة والعزاء.

ان اليمن متخلف لأن مزايا العصر الحديث المتحضر لم تقتحم عليه حدوده. لقد استطاع اليمن ان يبقى في عزلته الكئيبة التاريخية، بين مقابر آبائه، مسترخيا على هوانه وآلامه، يلعق اقدام اربابه الغبية الجائعة، ويثني على عقائده التي تعلمه كيف يتألم ويتأخر، دون ان تعلمه الاحتجاج على نفسه. لقد ظل يعبد شقاءه، لقد كانت مبالغته في عبادة الله وعبادة ائمته وحكامه، نوعا من المبالغة في عبادته لشقائه... انك حينما تبالغ في عبادة أو توقير اله أو مذهب، أو زعيم انت تعاني تحته العذاب، أو التخلف، فانما انت تبالغ في عبادة وتوقير عذابك وتخلفك.

اما الآخرون من حول اليمن فقد تغيروا، أو فرض عليهم التغير لأنه قد فرض عليهم ان يعيشوا على نحو ما في هذا العصر تحت ظروف لم يختاروها

هم، و لم يخترها لهم قادتهم أو حكامهم أو معلموهم. ولعلهم لو كانوا مختارين لرفضوا ان يستقبلوا هذه الظروف. انهم الآن يستقبلونها على نحو ما، لأنهم هيئوا لاستقبالها قسرا.

لقد دخل العالم المتحضر على بلادهم قسرا فتغيروا. انه لم يكن ممكنا ان يتغير اليمن التغير المنشود ما لم تدخل عليه الحضارة الغربية كرها أو اجتلابا... ومهما كان حكامه وانبياؤه، ومهما كان نظام الحكم فيه فلا بد ان يظل في تخلفه ما لم يفرض عليه الخروج من عزلته، أو ما لم يسافر خارج نفسه وفوق تاريخه، ليعيش في العصر الذي يصنع كل ما في العالم من حضارة وتغيير. ولو وقع في اليمن الف ثورة... ثم ظل معزولا عن الحضارة المغيرة للعالم، لما ازداد إلا آلاما وهوانا وتخلفا.

واذا تغير اليمن في المستقبل تغيرا طيبا، فلن يكون السبب تغير الحكام أو نظام الحكم. بل سيكون الصانع لتغيره، تقبله للتأثيرات الحضارية الأجنبية المستوردة من الدنيا التي وهبت العالم الحديث كل ما عنده من تقدم وقوة ورخاء وحرية وكرامة وافكار جديدة... أو لأن هذه التأثيرات قد فرضت عليه فرضا.

ان الفرق بين احد البلاد العربية واي بلد عربي آخر يساوي الفرق بينهما في قبول التأثيرات الحضارية الخارجية ورفضها، أو يساوي الفرق بينهما في الظروف التي جعلت تدخل هذه التأثيرات محتوما في البلدين وغير محتوم في البلد الآخر.

حتى الثراء الطبيعي لا يعني شيئا في البلدان العربية بدون هذه التأثيرات الخارجية، فليس الفرق بين البلاد العربية في التقدم والتأخر مساويا للفرق بينها

في الطبيعة، بل مساو للفرق بينها في الوجود الاجنبي، أي في وجود الحضـــارة الاجنبية.

لقد قضت الطبيعة بأن تجعل قوما يفجرون الماء في اقسى الصحراء في احـــر قيظ، وبأن تجعل قوما آخرين يشربون من ايديهم والا ظلوا عطاشا.

هل هذا هجاء...؟ واذا كان هجاء، فمن الهاجي...؟ هل هو القـــائل أم الفاعل، اعني العاجز عن الفعل...؟

ان نفس الثوار والزعماء العرب الذين فعلوا شيئا حمدوا عليه، ليســـوا إلا منحة سهلة جاء بها هذا التأثير الخارجي أو الغزو الخارجي.

ان اعظم ثائر في العالم العربي قاوم النفوذ الاجنبي فاضعفه، أو قضى عليـــه وادخل بعض الاصلاحات الجديدة الجيدة، لم يكن إلا نتيجة مشوهة للأفكـار، والمذاهب والحريات والتغييرات والأشياء الاخرى الكثيرة التي جلبـــها هــؤلاء الأجانب الغزاة المتحضرون معهم الى الاقطار العربية والى العالم كله.

وهل يوجد زعيم عربي قضى على النفوذ الاجنبي أو اضعفه...؟

اليس الذي قضى على هذا النفوذ أو اضعفه هي الظروف الدولية الجيـــدة المتناقضة؟

ان هذه الظروف هي التي ولدت هؤلاء الزعماء وصاغتهم ووهبتهم القـــوة والانتصارات والعبقرية التي لا يحملون في انفسهم منها شيئا... حتى جـــهارة اصواتهم احدى عطاياها.

ان أي بلد عربي قامت فيه ثورة عسكرية معها شعارات تقدمية أو ملامـــح حضارية، لم يكن من الممكن ان تقع فيه مثل هذه الثورة بكل ملامحها الحديثة، لولا وقوع هذا البلد في قبضة هؤلاء الغزاة... أي تحت تأثيرات حضـــارتهم، فالتأثير كله لحضارتهم لا لغزوهم أو احتلالهم. انهم هم الذين اوجدوا بلا قصد

منهم ظروف هذه الثورة، وافكارها وشعاراتها والقدرة عليها... انهم هم الذين اعطوها صيغها الانسانية. ولهذا فان هؤلاء الثوار المحررين أو من زعموا كذلك، قد وجدوا في البلاد العربية التي حكمها الاجانب، أو وجدوا - اي هؤلاء الثوار المحررون، على مستوى اعلى، أو وجدوا في زمن اسرع، ولم يكن الأمر كذلك في البلدان العربية الاخرى التي ظلت حرة مستقلة، تعيش على فضائل تاريخها، وعلى سخاء اربابها الذين قد ماتوا جوعا.

ان كل بلد عربي يسبق اليه الاجانب يتقدم على البلد العربي الذي يتأخرون عنه... واريد هنا بالأجانب هؤلاء الذين جاؤوا الينا يحملون هذه الحضارة. ان كل قيمتهم في انهم يحملون حضارة لا يوجد بديل عنها، ليست قيمتهم في انهم غزاة... لقد كان التاريخ طريقا طويلا من الغزاة والمخربين الذين لا يحتاج اليهم احد.

اذن فالثورة ضد الاستعمار أو النفوذ الغربي ليست إلا انعكاسا لنفس هذا النفوذ أو الاستعمار. ان الوجود الغربي في العالم المتخلف جاء يحمل نقيض ما جاء له. لقد جاء بالثورة ضد اهدافه وحوافزه العدوانية، لقد جاء بالانتصار على حوافزه واهدافه... لقد جاء ضد نفسه ولهذا فقد مات الاستعمار الغربي منتحرا لا مقتولا. انه هو قاتل نفسه... انه لم يوجد من يستطيع ان يقتله، بل لقد انتحر. ان الاستعمار الغربي كان نتيجة حضارته المتفوقة، وحضارته المتفوقة هي التي هزمته... قتلته. ان القتيل هو القاتل... ان المنتصر هو المهزوم.

ان الغرب هو الذي طرد الغرب من مجالاته المغتصبة. لقد ثار ضد وجوده كمستعمر ومحتل ومتسلط. لقد سقط تحت اقدام حضارته التي اعطته القدرة لكي ينتصر ويتكبر، لقد مات بتفوقه. ان الرصاصة التي نطلقها عليه، وكذا الفكرة التي نجادله ونحاربه بها، كلتاهما من هباته. ان كل الشعارات الطيبة التي

نرفعها في وجهه بعنف، والتي نحتج بها عليه ليسلم ويعطي ما في يديه ويخرج، فلا يجرؤ على اعلان رفضها أو احتقارها أو الخروج عليها، هو الذي جاء بها... هو الذي جعل لها هذه القوة العالمية... هو الذي ارهب بها نفسه. اننا نشكو من الغرب ونلعنه ونطرده بلغته وبأساليبه وشعاراته ومنطقه... بما اعطانا من سلاح وقيم وتحريضات انسانية...

ان جميع الذين يحاربون الغرب انما يحاربونه بحضارته... حتى الكتلة الشرقية لا تقاومه وتستقوي عليه إلا بما اعطاها من مذاهب ومبتكرات وتقدم صناعي وعلمي.

لقد جاء الينا الغرب يحمل سلاحا واطماعا وكبرياء... لقد جاء يحمل علما وافكارا وشعارات واساليب جديدة في الحياة، وفي كل شيء... لقد جاء يحمل حضارة مبتكرة، حضارة لا بديل عنها ولا مثيل لقوتها، فاخذنا عنه المذاهب والافكار والشعارات وبعض العلم، وكثيرا من اساليب الحضارة والحياة ومعطياتها، واستعرنا منه كذلك بعض السلاح والقوة.

انه يعطينا السلاح والقوة لنحاربه... انه يعطينا المذاهب والشعارات والنظم لنتحداه ونلعنه، لنطاوله ونفخر عليه، لنخطب ضده بكل بداوة اخلاقية، بكل بداوة لغوية.

لقد راح هو بلا تدبير منه وبلا قصد انساني متزه، يقيد تصرفه ويضعف استبداده، بما جاء به من مذاهب وفلسفات ونظم، وتعقيدات وظروف جديدة. لقد اخذت قوته المتفوقة الغازية تذل شيئا فشيئا امام نفسها، وامام هذه المذاهب والفلسفات والنظم والتعقيدات والظروف الجديدة التي خلقها هو. لقد تعاظمت التناقضات بين دوله وطبقاته، وبين افكاره وقوته. لقد تحدت حضارة الغرب قوته فانتصرت حضارته على قوته دون ان تضعف قوته... لقد قاومناه

به، فانتصرنا به عليه... لقد اصبح مهزوما دون ان يصبح ضعيفا. ان الغـرب هو خصمهم نفسه... انه كحضارة، هو خصم نفسه كتسلط وغزو... انـه المرض والشفاء... انه الذنب والكفارة... انه الخطيئة والتوبة...

انه من هذا الطريق قد جاءت حريتنا وتقدمنا، وجـاءت الينـا الافكـار والنظريات التي نحاج ونحارب بها، وجاءت الروح الجديدة والصيغة الدولية التي اجهزت على هذا الغازي الواهب الذي لم يرد ان يكون واهبا... هذا الغـازي الذي لم يستطع ان يتصور يوم جاء غازيا، ان يوم هزيمتـه مختـبيء في يـوم انتصاره.

وقد نجرؤ الآن على ان نقول شكرا لهذا الخصم الذي جاء غازيا ناهبـا، فتحول معلما، مع الاعتذار لما بقي فينا من عيوب نفسية وفكرية، تجعلنا نهـاب التحدث مع انفسنا بصدق وتواضع.

ان اعظم اساليب الثناء على النفس هي القدرة على رؤية مزايا الخصـوم وعلى التحدث عنها وعلى تضخيمها.

ان الاطفال هم اعجز الناس عن رؤية الآخرين.

ان العالم كله مدين بحضارته وحياته الحديثة لهؤلاء الذين جاءوا اليه فاتحين، فاصبحوا منقذين له من تاريخه الكئيب المتوقف عن الحياة. ان العالم كله مدين بحريته لهؤلاء الذين جاءوا اليه ليسلبوه حريته... انه مدين برخائه لهؤلاء الذيـن جاءوا اليه ليسرقوه رخاءه. لقد جاءوا لشيء فاصبحوا شيئا آخـر... لقـد اصبحوا نقيضا لما جاءوا له. ان عمل الإنسان خير من نيته... انه اعظم اخلاقية منها.

لقد تعلمنا الثورة المتحضرة، وتعلمنا القدرة عليها، وجعلنا لها شـعارات جديدة تقدمية، وصرنا نفهم شيئا من معاني الحياة وقيمـها، ونحـاول رفـع

مستوياتها المختلفة، ونجعل لها تفسيرا دينيا مقدسا، بسبب قدوم هؤلاء الغـــزاة الينا بما معهم من قيم وأشياء رائعة... ما اكثر ما ارتفع مستوى حياتنا بسببهم. ان مشروعات التصنيع والقدرة عليها، وفكرة التصنيع الذي نفاخر به، ليســت إلا احدى عطاياهم.

ما اكثر ما اعطونا ارادة التغيير والقدرة على التغيير... ما اقوى وجودهـــم في انفسنا وفي حياتنا.

ان النفط الذي نباهي به ونمن عليهم بوجوده في ارضنا، ونزعم انهم ينهبونه منا، وانهم لا يستطيعون الحياة ولا الحضارة لولاه... ان هذا النفط الذي هـــو كل مجدنا، ومصدر دلالنا على العالم، لا يمكن ان تكون له اية وظيفة في هــذه الحياة لولا هؤلاء القوم... لولا حضارتهم. حتى ولو كان انهارا أو بحارا جاريــة امام بيوتنا وتحت اقدامنا. انها هي التي اســـتطاعت اســتخراجه وتســويقه، واستهلاكه، ودفع ثمنه، وتحويله الى رخاء عربي وعالمي. ان الحضارة الغربية هي التي اعطت النفط العربي عبقريته واخلاقه... انها هي التي اعطته بلاغته وصفاته الدولية... حتى بلاغة النفط العربي وموهبته الخطابية، انما همـــا منحـــة هـــذه الحضارة التي نبالغ في الامتنان عليها. ان النفط العربي لم يستطع أو يجـــرؤ ان يواجه العالم كله بمواقفه الخطابية البلاغية المتعالية إلا بقوة هذه الحضارة.

ما اصعب واطول العملية التي ابتدأت بجعل النفط حاجة، وانتهت بجعلـــه بضاعة معروضة في الاسواق للاستهلاك العالمي.

ما اصعب واطول العمليات السحرية التي اجراها هذا الإنسان الســـاحر، لكي يحول هذا السائل السخيف الى حضارة عالمية، ولكي يحول الارض العربية الى عرش لإله يحول هذه الحضارة الى مخزن لأسرار هذا الاله.

ان هذا السائل الثمين سوف يتحول الى تهديد وخوف لنا، لو كان انهـــارا سائلة في ارضنا، لو لم يبدع الغرب حضارته التي جعلته ضرورة وقوة محركـــة ورخاء دوليا.

انه حينئذ يتحول الى حرائق وآلام أخرى، دون ان نعرف ماذا نصنع به ولا كيف نتقيه. ان هذا النفط العربي بدون الحضارة الغربية ليس إلا حريقا مدفونا. لقد كان من المفروض ان يظل دائما حريقا مدفونا في ارضنا، كما كـــان في عهد آبائنا وانبيائنا لولا حضارتهم.

*

نعم ان كل ثائر عربي، ان كل ثائر بالاسلوب الحديث، انما هـــو احـــدى نتائج التأثيرات الحضارية والخارجية. ان كل زعمائنا وثوارنا الذين يتحدثـــون بلغة الحضارة وشعاراتها، هم صناعة اجنبية بكـــل صراخـــهم وغوغائيتـــهم ومذاهبهم المزعومة ابتكارا. وإذا لعن هؤلاء الثوار والزعماء هؤلاء الصـــانعين لهم، فكما نتصور ان صناعة تلعن صانعيها. انهم يلعنون ويتحدون من اعطوهم القدرة والجرأة على ان يلعنوا ويتحدوا. ان اللاعن والمتحدي انما يلعن ويتحدى بلغة وقوة من يتحدى ويلعن. ان الملعون الموجه اليه هـــو خـــالق اللعنـــات والتحديات... هو معلمها وواهب القدرة والجرأة عليها.

ان على كل زعيم أو ثائر عربي يهزه الاعجاب بنفسه لشعوره انه اكثر من الزعماء والحكام الاخرين تقدما، أو استجابة لمل يسمى بحتمية التاريخ، أو ايمانا بالحضارة ومزايا العصر، أو لشعوره ان بلده اعظم قوة وتطورا من البلاد العربية الأخرى...

نعم... ان على مثل هذا الزعيم، أو الثائر، الراضي عن النجوم الجاهلة التي حابته بما ليس فيه، لتجعل منه اعلى صوت يتحدى ويشاتم، ويدعي ويهدد، ان

يتواضع وان يعلم ان سبب هذا التفاوت أو التفوق هو سبب خارجي... سبب موهوب.

وان يعلم انه لا فضل له على نفسه، ولا فضل لتاريخه عليه... انه لم يبدع نفسه، وان تاريخ بلده لم يبدعه... انه لا ابداع فيه ولا ابداع في تاريخه... انه كائن صغير جدا... وان تاريخه تاريخ متواضع جدا... وان كل ما عنده من مزايا وقوة، ليس إلا بللا قذف به ذلك النهر الكبير الآتي من المكان البعيد... انه ليس إلا مكانا لما عنده، لا خالقا له.

لقد كان بعض ملوك هذه المنطقة اكثر ديمقراطية وتطورا ونزاهة في الحكم من الملوك الآخرين... ملوك هذه المنطقة، بل ومن بعض رؤساء الجمهوريات فيها.

لقد كانت اوطان هؤلاء الملوك افضل في كل شيء، من البلاد المجاورة التي كان نظام حكمها جمهوريا.

انه لو ظلت مصر والعراق ملكيتين، بينما تحولت جميع الاقطار العربية الاخرى الى النظام الجمهوري، لبدا للناس جميعا ان النظام الملكي افضل من النظام الجمهوري.

لقد كان التفسير لهذا ان مصر والعراق قد تأثرتا بالحضارة الغربية اكثر مما تأثرت البلدان الاخرى.

ان من الفروق بين الملكيات في المنطقة وبين الجمهوريات، ان الملكيات قد امكنت الثورة ضدها لأن قبضتها وطغيانها لم يكونا قاتلين الى المدى الذي يعوق كل حركة، بل عن كل تفكير في ذلك... اما البلاد التي تحولت الى جمهوريات، فقد اصبحت الحركة ضدها اكثر عسرا وأصعب منالا لقدرتها على القتل، ولعبقريتها في صياغة الارهاب، هذه الصياغة التي جعلت المجتمع

عاجزا عن الغضب... خائفا منه... عاجزا عن الرؤية خائفا منها... عاجزا عن البكاء خائفا منه... عاجزا عن التوقع، عن التطلع، خائفا منهما... عاجزا عن المقارنة، خائفا منها... عاجزا عن التذكر، خائفا منه. لقد قتل هؤلاء الرؤساء غير الملوك في شعوبهم كل معاني التململ والتألم، والاحتجاج وممارسة الكرامة. وهذه مزية لا يستطيعها الملوك.

ان البلاد الملكية المتأخرة لا يمكن ان يكون سبب تأخرها انها ملكية، كما انها اذا كانت متقدمة لم يكن ممكنا ان يكون نظام حكمها هو سبب تقدمها. واذا كانت جمهورية ومتأخرة لم يكن من الصواب ان يعد نظامها الجمهوري هو سبب تأخرها. ان السبب الدائم هو التأثر أو العجز عن التأثر بهذه الحضارة الغازية للعالم...

انه لا يوجد في عالم اليوم اله آخر يصنع التقدم غير الحضارة التي ابدعها اولئك الابالسة، اولئك الغزاة المؤخرون لنا في زعمنا الدائم...

وهم باطل

يظن كثيرون ان الثورة الروسية هي اكبر التجارب التاريخية على ان الثورات هي التي تطور الانسان، وتنقله من الهوان والتأخر، الى اعلى مستويات التقدم والحرية، بسرعة تشبه القفز فوق الكواكب... لقد كانت روسيا القيصرية هوانا وتخلفا، فاصبحت روسيا الثورية قمة عالمية.

ولكن ما هو اعظم ما جاءت به الثورة الروسية... أو لماذا جاءت نتائجها عظيمة...؟

ان اكبر ما جاءت به هذه الثورة هو تقدمها العلمي والفني... هو اقتباسها للحضارة العلمية الصناعية الغربية.

ان مزية روسيا ليست في نظامها الاجتماعي، ولا في اسقاط قياصرتها الطغاة... ان روسيا ليست عظيمة لأنها شيوعية، ولكن لأنها مبدعة.

انها لو كانت شيوعية ولم تكن علمية ولا مبدعة، لما كانت شيئا عظيما.

ولو كانت علمية مبدعة، ولم تكن شيوعية لما ضعف قدرها. ان عظمة روسيا في تقدمها الصناعي والفني، لا في مذهبها أو نظامها. ان التقدم الصناعي والفني والعلمي هو مجد كل مجتمع، ورخاء كل مجتمع، وقوة كل مجتمع. وهذا التقدم الذي هو كل القوة والمجد والرخاء، ليس موهبة أو نظام معين. انه موهبة الإنسان الذي يصنع موهبته ويمنحها، تحت كل نظام ومذهب... تحت كل طقس.

وقد كان من الممكن ان تصبح شيوعية متأخرة، أو تظل رأسمالية وتتقدم.

انه لو لم تكن الحضارة الغربية موجودة قبل الثورة الروسية لما كان لهذه الثورة أي شأن، حينئذ لن تستطيع ابداعها، لأن ابداع الحضارة ليس حالة مذهبية. وقد كان من الممكن ان تصبح دولة قوية وعظيمة بدون ان تقوم فيها ثورة، وبدون ان تأخذ بنظامها الجديد. لقد اصبحت اليابان والمانيا وامريكا وغيرها دولا عظمى بدون ان تغير نظمها الاجتماعية. ولو ان الثورة الروسية وقعت منذ ثلاثمائة عام لما زادت على ان تكون انقلابا عقيما لا يفعل اكثر من ان يلطخ ثياب التاريخ بالدماء.

وقد يظن بعض المذهبيين ان التقدم والتأخر مرتبطان بالنظام والمذهب، ولهذا فالتقدم محتوم في تقديرهم تحت النظام الاشتراكي أو الشيوعي. ولكن لقد تأخر مجتمع وتقدم آخر وكلاهما رأسمالي... كذلك يحدث تحت النظام الاشتراكي أو الشيوعي... انه غير محتمل تساوي المجتمعات في التقدم لتساويها في المذهب والنظام.

ان التغير أو التطور، يفرض نفسه على الثوار وغير الثوار، مهما قاوموا ذلك وكرهوه، كما يفرض نفسه على كل وحدات الطبيعة. وكما يفرض الموت، والشيخوخة نفسها على الأحياء. ان الناس يسيرون في الطريق مهما انكروا السير فيه... انهم يسيرون وان زعموا أو ظنوا انهم لا يسيرون، وان ارادوا إلا يسيروا... وهم كذلك يصنعون الحرية والتقدم.

والفدائية لذة ذاتية

ان الفرق بين الزعماء والحكام في اختيار المذاهب والنظم ليس فرقا في العبقرية أو الاخلاق. انه فرق مصالح وأهواء وظروف.

ان الحاكم أو الزعيم... أي حاكم أو زعيم، ما يرى انه يزيده قوة أو مجدا، أو رضا عن نفسه أو استجابة لطموحها واحقادها أو لضعفها ومخاوفها، أو يختار ما يظن انه يلائمه في تحديه ومفاخرته لخصومه والاستعلاء عليهم.

ان اختيار النظام الملكي أو الجمهوري، الديمقراطية أو الدكتاتورية، الرأسمالية أو الاشتراكية، ليس بحثا عن مصلحة الآخرين أو سعادتهم أو ارادتهم، ليس بحثا عن الأفضل، انه بحث عن مصلحة الحاكم، أو هواه، أو ضرورته، أو ظروفه أو تاريخه.

كل الحكام والزعماء يختارون لأنفسهم... ليس فيهم من يختارون لشعوبهم. انهم لا ينقسمون الى اصدقاء واعداء، ولا الى خبثاء وطيبين. انهم جميعا طراز واحد من البشر يتحولون الى شتى التعبيرات بحالة من الشبق والانانية والقسوة، تشبه الشبق الجنسي وانانيته وقسوته.

ولكن، لعل الحكام والزعماء لا يختارون، وانما يكونون هذا أو هذا دون اختيار كما يوجدون. ان الملك لم يختر النظام الذي يقف فوقه، لقد وجد فوقه،

أو كان محتوما ان تصنع الظروف ذلك. وكذلك الرئيس الذي يقف فوق نظام ما. انه محكوم بظروفه... ان الظروف تمنعه من ان يجعل النظام ملكيا، ومن المحتوم انه تحت ظروف اخرى سيختار النظام الملكي ليكون فوقه بنشوة.

اجل ان عمل أي حاكم أو زعيم، ليس إلا محاولة للتغذي بالآخرين... ليس محاولة لاطعامهم. كما ان الذي يؤدي علاقة جنسية لا يقصد ان يهب الإنسان الآخر اللذة على حساب نفسه، بل ان يهب نفسه اللذة على حساب ذلك الإنسان الآخر. فالحاكم، وكذا المتعاطي للعملية الجنسية، ليس فاديا، بل باحث عن اللذة، ومعتمد على الآخرين لتحقيق لذته الخاصة، التي هي في حوافزها واخلاقها عدوان وافتراس، مهما جاءت نتائجها... وحتى الفدائية ليست إلا بحثا عن اللذة الخاصة. ان الفدائي ليس إلا حشرة تقتل بلذة ذاتية... انه حشرة تقتل أو تقتل وهي تغني لنفسها، لتطرب كما تطرب الحشرة.

ويل للمهذبين

واذا كانت الثورة كل ثورة – لا تعني في خطوتها الاولى إلا استبدال رجال برجال بحد السلاح، فكيف يعطي السلاح ضمانا أو احتمالا، بأن الذين يجيئون بحده، سيكونون افضل أو اقدر من الذين يجيئون بغيره...؟

ان السلاح ليس جهازا علميا لمعرفة عباقرة الانسانية من اغبيائها... انه ليس ضميرا الهيا، يتحول صاحبه أو مالكه الى نبل اله... انه لو افترض السلاح جهازا اخلاقيا فان هذا الافتراض لا يعني ان الذين سيحكمون بعد الثورة سيكونون اخلاقيين أو عباقرة... ان الذين يحملون السلاح ليسوا وحدهم الذين سوف يحكمون، بل سيحكم آخرون غيرهم يعرفون كيف يخدعون توتر

السلاح، وحاجته القوية الى المؤمنين، الهاتفين المتوترين، الغوغائيين، والى الذين لا يثقلهم أي قيد من قيود الشرف أو الضمير.

ان كل ثورة تحتاج الى مزيد من النفاق والجبن، والضعة الفكرية والأخلاقية. انه لا يوجد إلا احتمال واحد، هو ان مستوى الإنسان النفسي والاخلاقي يهبط بعد كل ثورة.

انه لا يمكن ان تكون ثورة بدون اصوات عالية. ان الأصوات العالية تستهلك حماس الإنسان وطاقته... انها تفسد قدرته على الرؤية والتفكير والسلوك الجيد. ان الاصوات العالية هي الثمن السخي الذي تهبه الثورات للمجتمعات التي تصاب بها. ان الاصوات العالية هي العقاب الغوغائي الذي تعاقب به كل ثورة اعصاب ووقار مجتمعها، واحيانا اعصاب ووقار المجتمع العالمي كله. وان الاصوات العالية هي هدية كل ثورة للمشاكل الصعبة.

ان الثورة تريد من المجتمع ان يؤمن وينافق، ويطيع ويموت بهتاف وغباء. انها لا تريد من يكون ذكيا أو ناقدا، أو نزيها أو صادقا أو اديبا. ان ذلك يفسد عليها حماسها وتصميمها ورضاها عن جنونها. واذا كانت حظوظ الذين يتقنون فن الضعف والملق واسقاط الضمير، في كل زمان عظيمة، فان حظوظهم في زمان الثورات هي اعظم الحظوظ. ان الذين تلمع اسماؤهم في غير ثورة لاتقانهم هذا الفن الشرير سوف يصبحون هم أو نموذجيتهم اقدر الناس على اللمعان بعد الثورة، لأنهم قادرون على اخضاع فنهم لكل الظروف المختلفة ببراعة لا يقيدها أو يزجرها شيء من الفضائل الانسانية. ان افضل عميل للثورة هو الضعيف ثم الغبي ثم المنافق. ان الثورة لا ترحب بالمنافق الذكي مثلما ترحب بالغبي فقط، أو بالمنافق الغبي.

لقد كان المفروض دائما ان الذي يستطيع ان يصعد في أي عهد من العهود لأنه متسلق بارع، فلا بد ان يصعد بتفوق اكبر في عهد الثورات ما لم يعقه عن ذلك عائق غير اخلاقي... أي ما لم يقهره متسلقون آخرون اكثر براعة وقدرة منه، في فن التسلق الشرير المنتصر. ان المعركة ليست إلا معركة صراع بين المتسلقين الاشرار في عهد الثورات. ان النصر دائما للاقوى في فنه. اننا لا يمكن ان نشك في نوع الاخلاق التي يعيشها أي انسان يتألق في عهد اية ثورة. اننا اذا سمعنا عن انسان انه قد صعد في مجتمع يحكمه ثوار، لم نستطع ان نجهل انه انسان ضعيف، وغوغائي، وكذاب ومنافق وانه يعيش بلا مستويات انسانية. ان الثورة وليمة لا يتصدرها إلا ذوو الايدي والثياب والتعبيرات الملوثة بكل ما في الطبيعة من وحل ووقاحة وفجور. ان مجتمع الثورة هو مجتمع الخوف والهوان... انه مجتمع الركوع والغوغاء والبذاءة... انه مجتمع الكآبة والعدوان والشحوب الانساني... انه مجتمع الاتهامات والمحاكمات... انه مجتمع المشانق والأحزان.

انه لمن المحتمل ان يتسع الراي للقول بأن الثائر قد يكون مصلحا، أو قويا أو ذكيا أو شجاعا. ولكن من اللغو القول بأنه قد يكون شريفا، أو صادقا أو نظيفا أو عادلا أو متسامحا أو صديقا للحرية أو محبا لمن يثور من اجلهم أو – كما هو الصحيح – لمن يثور باسمهم، لا من اجلهم، أي لمن يثور عليهم باسم الثورة لهم، أو يثور بهم معلنا الثورة من اجلهم. ان كل ثائر لا يحس نحو المجتمع الذي يقول انه يثور من اجله، إلا كما يحس الطفل العنيف نحو لعبه وحيواناته التي لا يريد بها إلا اجتلاب اللهو والمسرة الى نفسه، ولو بقتلها. انه لا يريد إلا التعبير عن المباهاة وتحويل الأشياء الخارجية الى موضوعات ذاتية والاستجابة

لأصغر ما في النفس من نقائص وآلام وطفولة تعرض مشاعرها واعضائها الداخلية، عرضا دينيا بطوليا.

ان الثائر ليس إلا انسانا يقاتل الآخرين، مهما بدا انه يقاتل من اجلهم... ان الثائر يقاتل فقط مهما بدا انه يقاتل من اجل شيء.

ان رغبة الثائر في الاذلال والانتقام ممن يثور بهم، أو يثور عليهم، أو ممن يثور باسمهم، لا من اجلهم، لتحركه اكثر مما تحركه رغبته في التغيير والعدل... انه اذا قاوم الثائر الظلم والفساد، ودعا الى حالة من المساواة، فان غرضه ان يذل الاقوياء لا ان يرتفع بالضعفاء.

ليس هم الثائر – اي ثائر – ان يهدم فسادا أو نظاما ما، ان همه ان يهدم قوما ما. ان حقد الثوار ليس مشحوذا على النظم أو الاوضاع، ولكن على الناس، لأن الناس هم الذين يصنعون الحقد والغيرة والمرارة والمنافسة والكراهة والشعور بالضعة والهزيمة والضعف، دون المذاهب والنظم مهما كان فسادها وغباؤها.

ان المذاهب والنظم لا تغضبنا، ان الذي يغضبنا هم الآخرون المرتبطون بتلك المذاهب والنظم أو المتسترون وراءها. والاقوياء يثيرون حقدنا وغيرتنا اكثر مما يثير الضعفاء شفقتنا وحبنا. ان الحقد والغضب في تحريكهما للبشر اقوى من الشفقة وحب الاحسان. ليس هوان الضعفاء والمقهورين هو الذي يحرك الثوار، ان الذي يحركهم هو حقدهم على الاقوياء وغيرتهم منهم. ولهذا فان ضرباتهم موجهة الى قهر الاقوياء، لا الى ازالة القهر عن الضعفاء، بل انهم يوقعون من القهر بالمجتمع اكثر مما يوقع به من كانوا قبلهم.

ان الثائر يقهر، لا يزيل القهر. ان الثائر هو انسان يقهر ويذل، وليس انسانا يشفي من القهر والاذلال.

ان الثورة عملية ذاتية يؤديها الثائر ضد المجتمع أو مع المجتمع، لا ضد الذات من اجل المجتمع. ان الناس كما يسرقون ويقتلون ويحقدون بحافز ذاتي غير صالح، كذلك يثورون. ان الثوار قوم كارهون لأنفسهم وظروفهم ومجتمعهم يعبرون عن هذه الكرهة باسلوب يدعونه ثورة، ولهذا فان اكثر الثوار ثورية لا بد ان يكونوا اكثر الناس كراهة وتنافرا مع انفسهم ومع الآخرين. ان الثائر هو انسان يحول طموحه ونقائصه وهمومه الخاصة، الى تعبيرات اجتماعية حاقدة، الى تطبيقات على الآخرين بدون اية صداق، أو محبة لاولئك الآخرين.

سحقا، حتى العظم

ان الثورة تعني ان عهدا فيه منافذ واحتمالات للتسامح والضعف، وبعض الحرية، وبعض فرص الافلات من البطش والانتقام قد زال ليجيء مكانه عهد مغلق، فيه كل الرغبة في الانتقام، وكل القدرة على القمع والضرب والانتصار، وعلى التباهي بالجنون وبالقسوة وبصلب كل الحريات تحت اعلى الشعارات دويا.

ان معنى الثورة ان يذهب من يجرح ليأتي من يقتل... ان يذهب من يضرب باحدى يديه، ليأتي من يضرب بكلتا يديه... ان يذهب من يمنعك من ان تنقد، ليأتي من يمنعك ان ترى.

الثوار دائما يتحدثون عن نقيض ما يعطون. انهم يتحدثون عن الحرية والاستقامة وهم اقوى اعدائهما... وعن الصدق وليس في البشر من يعاقبون الصادق، ومن يمارسون الكذب ويجزون الكاذبين مثلهم... وعن حقارة النفاق وهم احسن من يزرعونه، ويستثمرونه ويتعاملون عليه... وعن الرخاء، مع انهم اذكى من يبتدعون جميع اسباب الافقار والازمات والحرمان... وعن التقدمية،

وهم اعتق البشرية رجعية، انه لا مثيل لهم في الخوف من التغيير الذي لا يهبهم تسلطا وطغيانا... ويتحدثون عن العدل والحب وهم يعنون بهما تخويف كل الطبقات وتسخيرها وقهرها وسوقها لمصلحة كبريائهم واحلامهم، ويعنون بهما كذلك ان يخضعوا جميع ما في مجتمعهم لانفعالات الرضا والغضب ولاغراض الطموح والخوف... بل جميع ما في الدنيا.

انه لم يحدث ان جاءت ثورة من الثورات لتكون اكثر تسامحا وحرية، أو لتكون اخف قيودا مما كان قبلها. بل لقد كانت جميع الثورات تجيء كالاحتجاج على التسامح واللين الذي كان موجودا.

لهذا كانت دائما تجيء اقوى بطشا ومعاداة للحريات، بحجة الدفاع عن الحريات.

انه لمحتوم ان من يثورون باسم الحرية، يصبحون اذا انتصروا اشد عداوة للحرية من كل اعدائها القدماء. وانه لمحتوم ان من يثورون باسم التقدم، يصبحون اشرس اعداء التقدم حينما يحكمون. ان الإنسان طيب دائما ما لم يكن هو المطالب بأن يكون طيبا، وان الإنسان حر دائما ما دامت الحرية على حساب خصومه، وما دام هو المستفيد منها. وقد يكون ذلك بلا تدبير أو رغبة منهم، وقد يكونون كذلك بمستواهم النفسي والتاريخي.

ومهما كان الناس طيبين فكم هو غباء ان نلتمس الحرية لدى من قفزوا فوق التاريخ بالتآمر والسلاح.

ان اشد الناس خوفا من الحرية والتطور هم الذين انتصروا بالمؤامرات... هم الذين ارتفعوا فوق اكتاف التاريخ بالقفز عليه في الظلام.

ان الثوار لا يمكن ان يصنعوا الحرية، انهم ابدا خصومها. ولكن الحرية تحفر طريقها بلا تشريع ولا ثورة، كما يحفر النهر مجراه بمواصلته السير في جـــوف الصخور والتراب وبمقاومته الطبيعة.

ان الحرية لا توجد بالارادة أو الخطة أو الأمر.

ان الحرية توجد بالتعامل مع الأشياء الصعبة، والمتناقضة والمضادة.

ان الحرية هي التعود على السير في طريق مسدود بالتناقضات والاحزان.

واننا نتعلم الحرية كما يتعلم الأعمى السير بين حقول المـــهالك، مبصـــرا بعصاه.

ولا يبدأ المجتمع، أو الثائر يشفى من عيوبه وطغيانه بل ورجعيته إلا اذا بـدأ يشفى من مشاعر الثورة. ان الثورة هي في جميع ظروفها، بديل عـــن التقـــدم والنضج وشعور بالعجز عنهما... انها ليست طريقا اليهما أو بحثا عنهما... انها نوع من المشاتمة للآخرين. ان الثوار قـــوم يشـــاتمون انفســـهم ومجتمعـــهم بالسلاح... ان حوافز الثوار ومشاعرهم هي حوافز ومشاعر من يشاتمون.

ان الثورة – اية ثورة – قد تزيل قيودا قديمة لتصنع مكانها قيـــودا اخـــرى جديدة... هي اقوى واعتى، انها قد تهدم اصناما متداعية، لتشيد اصناما فيـــها قوة، واغراء وشباب... انها قد تسقط رجالا شاخوا ووهنوا وفقدوا القـــدرة على الافتراس والرغبة فيه ليأتي رجال اعظم جبروتا وفتوة وقدرة على الافتراس ورغبة فيه... ليأتي رجال فيهم كل معاني وأحاسيس الجوع التاريخي... ليـــأتي رجال فيهم كل معاني الجوع والظمـــأ الى الدمـــاء... الى الضحايـــا... الى التعذيب... الى الارهاب.

نافقوا... ان كنتم اقويـــاء

يصاب التفكير وكل فنون التعبير بنكسة هائلة مطلع كل ثورة، وتحتـــاج حينئذ المجتمعات الى نضال كبير لكي تتغلب على هذه النكسة التي تصيبها بهـا العهود الثورية. انها فترة تلويث واذلال هائلة لذكـــاء الإنســان ولكبريائـه العقلية... انه عقاب كل ثورة.

انه لا يوجد عقاب للمفكر والكاتب، ولكل من يتعاطى الكلام اقسى مـن الثورات... انها العقاب الهائل للتفكير، وللاستقامة العقلية والتعبيرية المطلوبـة على ارفع مستوى، من كل حامل قلم، ومن كل نبي يحاول ان يصنع النـــاس بالوحي وبالكلمة، يتحدث بها من اعالي قمم الزمان.

ان الكلمة لا تفقد كل اخلاقيتها، إلا في زمن الثورات. انها تنتحر وتتحول الى نوع من المعصية البذيئة... انها تتحول الى دين من الوقاحـة والاكـاذيب الغبية... انها تتحول الى صراخ يهدد اعصاب الإنسان وذكاءه بالجنون.

ان الكلمة في عهد الثورات تتحول الى هجاء لقانون التطور الذي خلـــق الإنسان وعلمه الكلام.

انه لا يفسد الكلام والتفكير في عصر من العصور... انهمـــا لا يـــهونان ويركعان مثلما يركعان ويهونان ويفسدان في عصر الثورات. انهما يتنازلان عن كل نزاهة وصدق وذكاء وكرامة... انهما يتحولان الى عار... الى هجاء لكـل البشر.

ان الكتاب والمفكرين في عصر الثورات، يسقطون الى اعمق مهاوي الخسة والنفاق والضعف... انهم يصغرون ويصغرون حتى يمسخوا نمالا ضئيلة تعيـــش في الشقوق وتحت التراب بلا غضب أو اشمئزاز... انهم يتخلون عـــن جميـــع مستويات الشرف والرفض... ان ظهورهم تتحطم من الانحناء، ويتحول كـــل

ادهم الى صلوات ذليلة تحت الاحذية الطويلة التي تطأ رجولتهم بكبريـاء... ان رجولتهم تهون ثم تهون، حتى ليذهبوا يصقون على انفسهم ببكـــاء، بتوبـــة، باستغفار... انهم يعلنون لعنها وتلطيخها بكل التهم والحقارات باسلوب ضارع ذليل، راجين ان ترضى عنهم هذه الأحذية وتغفر لهم ما حسبته عليهم تراخيـا في الولاء فالتراخي في الولاء للثورة هو الزندقة التي لا يمكن غفرانها.

ان تحقير الإنسان لنفسه عبادة للطغاة. انهم يجدون فيها اقوى مشاعر التفوق والانتصار. و لم يزل الطغاة والأرباب في جميع العصور يفرضون على الإنســان ان يحقر نفسه بكل الاســاليب... بالهتــاف والايمــان... والاســتعراضات والاستغفار... والبكاء والدعاء... وبالقوانين والعقوبات الوحشية التي يشرعها ضد نفسه... وبالحروب والثورات التي يذهب فيها الناس يقتل ويعادي بعضهم بعضا بجنون وايمان وجبن ونذالة، بدون ان يعرفوا لماذا يفعلون... وبـالاعتراف على النفس وتحقيرها، لارضاء الطغاة الذين تقتات همومهم وعاهاتهم بتحقـــير الآخرين.

ان تحقير الإنسان لنفسه، طعام جيد للارباب والطغاة، في جميع العصور. ان الحرب والثورة هما افضل اساليب البشر في تحقيرهم لأنفسهم، وفي عدوانهـــم عليها. و لم يبتكر البشر وسيلة لتحقير انفسهم وتأديبها مثل الحرب والثورة.

ان اصحاب الكلمة، هم اسوأ الناس حظا في عصر الثورات. انهم حينـذاك لا يفقدون حريتهم وكرامتهم فقط، بل ويفقـــدون انفســهم مـــن داخـــل انفسهم... انهم يموتون كبشر... انهم في اكثر الاوقات ليسوا منافقين، انهم اقل من المنافقين... ليتهم يظلون منافقين، انهم حينئذ قوم يقاتلون... يرفضون، لأن النفاق مقاومة سلبية... مقاومة على نحو ما... أو استسلام غـــاضب محتـــج. ولكن هم فقدوا كل غضب، واحتجاج داخلي... كل مقاومة ولو سلبية.

ما ابشع عهدا يصبح النفاق فيه افضل من الايمان، لأن الايمان اسقاط للمقاومة من الداخل، ولأن النفاق هو المقاومة الوحيدة الممكنة في مثل هذا العهد.

ما اقبحك يا عهد الثورات... ان النفاق يصبح فيك هو ابسل اساليب المقاومة... يصبح هو العزاء في شرف الانسان.

ان اقبح ما يحدث في عهد الثورات ان يؤمن بها الناس... ان يعجزوا عن كراهة ما فيها من حماقات وهمجية، من داخل ذواتهم، بعد ان عجزوا عن كراهتها من الخارج.

انه لا يكفي من ارباب الكلمة في عصر الثورات ان يسكتوا، ان يعموا عن بشاعات الطغيان والجنون التي لا بد ان تمارسها كل ثورة.

انهم لابد ان يهتفوا لذلك... انه لا يكفي الهتاف، انه لا بد من ان يؤمنوا.

انه لا يكفي الايمان، انه لا بد مع الايمان من التوتر والافتضاح، والتخلي عن كل وقار واحتشام، وذكاء ورجولة، والا اتهموا في ولائهم للثورة... وهذا معناه اتهامهم بالخيانة.

انه لا يكفي كل هذا...

انه مفروض عليهم ان يتحولوا الى دعاة ومبشرين بأخطاء الثورة... بذنوبها، وان يفسروا كل شيء بها دون ان يفسروها هي بشيء... انها تفسير لكل الأشياء، وان كل الأشياء تعجز عن ان تكون تفسيرا لها.

اني لأشعر بالعزاء والفخر والراحة حين اجد كاتبا ينافق عهدا ثوريا، لأني اخشى عليه ان يؤمن... ان يموت من داخله... انه مفروض ان يقاوم، فاذا لم يقاوم فالافضل ان ينافق.

كم اشعر بالغضب والكآبة، والرثاء الحزين حينما افكر في هذه الأقلام التي اذلتها الثورات، وحولتها الى هوان بذيء، حتى لم يبق لها من احتمالات الشرف غير ان تنافق.

انه لا عزاء لنا في هؤلاء الكتاب الدافنين لشرفهم تحت احذية الثورة، إلا الاحتمال بان يكونوا منافقين... عزاؤنا فيكم انكم منافقون لا مؤمنون... ما اعظمه من عزاء.

ايها الكتاب... ايها المفكرون العائشون في مجتمع ثوري، نافقوا... نافقوا، فهو افضل من ان تؤمنوا.

ايها الكتاب... ايها المفكرون... نافقوا... نافقوا في عهد الثورات.

عهد الايمان الهمجي

ومرة اخرى.

انه لا مكان في الثورات للمتفوقين بمزاياهم العقلية والأخلاقية. ولكن في الثورات اوسع الاماكن للاذلاء المثخنة اخلاقهم وعقولهم وتاريخهم بالجراح... ان الثورة هي المدينة الفاضلة لضعفاء النفوس وقحاء الاخلاق. ان اية ثورة من هذه الثورات التي تقع امامنا في هذه الايام بتتابع مثير، لا بد ان تقتل وتسجن أو تنفي أو تذل امثال افلاطون وسقراط وسبينوزا وفولتير وجان جاك روسو وابي العلاء وابن رشد، لو كانوا يعيشون في عهدها. وانها لا بد ان تفعل ذلك بموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الانبياء لو كانوا معاصرين لها، وحاولوا ان يؤدوا رسالاتهم. ولكن ما اسعد التافهين والوضعاء والاغبياء فيها. انهم سيجدون لديها اعظم الحظوظ وارفع المناصب... انهم سيصبحون انبياءها ومعلميها الصارخين المحظوظين.

انه بمقدار ما تتكاثر الثورات، تموت احتمالات وجود شجعان النفوس، والعقول، وذوي المزايا القوية. واكثر الثورات اذلالا للمزايا والتفوق، هي اكثرها ثورية.

انه لما كانت اية ثورة تصر على ان يؤمن بها كل من في المجتمع ايمانا غبيا موحدا، وكانت لا تقبل أي شك أو نقد أو تردد أو تسامح أو خلاف في الولاء لها، ولا تتراخى في معاقبة كل ذلك وسحقه، وكان الايمان الغبي الموحد لا يمكن ان يوجد إلا في قوم متساوين في ضعفهم، ومستوياتهم العقلية والثقافية والنفسية والاخلاقية، وكان من المستحيل ان يخضع المتفوقون لمثل هذا الايمان، بل لا بد ان يثوروا عليه ولو من داخلهم، اذا لم يستطيعوا اعلان ثورتهم، فالمتفاوتون في مواهبهم وثقافاتهم، لا يمكن ان يتفوقوا في ايمانهم...

اجل... لما كان ذلك كذلك، اصبح شيئا محتوما ان تعادي الثورات كل المتفوقين، ان تعادي كل من لا يستطيعون ان يؤمنوا بغباء وولاء متشابه، ان تعادي كل من يرفضون ان يتخلقوا بمزايا القطيع.

واذا كان من المفروض ان تقاوم الثورة امتياز المولد والطبقة، فان مقاومتها لامتياز الخصائص الذاتية اشد. انها تريد ان تجعل الناس متساوين في هوانهم وغبائهم.

ان مزايا الذات اكثر تحديا للثوار من الطبقة والمولد. لقد كانت جميع الثورات ولا تزال كذلك، تبحث عن النموذج الواحد في البشر... انها لا تريد التفاوت بينهم... انها تحارب الفروق العقلية والاخلاقية، لانها تخشاها... لأنها تتحداها.

ان تفاوت المزايا يرهب الثوار ويهجوهم، لأن ذوي المزايا المتفوقة لن يؤمنوا كما يؤمن ذوو المزايا المتخلفة. انهم لابد ان يرفضوا، أو ينقدوا، أو يروا ولو

من داخلهم. الهم مخيفون جدا... الهم عيون محدقة، مبصرة، محتجة، رافضة والهم عيون مخترقة.

ان الثوار يخشون العيون الناظرة القارئة المتسائلة، لهذا كان من المحتوم الدائم، ان تعاقب كل ثورة جميع المتفوقين، لأن لهم عيونا ناظرة قارئة متسائلة. ان هؤلاء هم التحدي المحقر لها... هم التحريض القوي عليها... هم الاحتجاج الدائم على غباء قطعالها واستسلامهم الفاضح. ان هؤلاء يبادلوها نفس العداء واللغة... الهم ليعادوها لنقيض الاسباب... هي تمقت فيهم التفكير، والفهم والنقد والشك والتسامح، والرؤية البعيدة الشاملة، وهم يمقتون الغباء والتعصب والبغض والتسلط والكذب والغرور وضيق الرؤية. اذن لا بد ان يضيق كل منهما بالآخر. الهما خصمان بالموهبة والمزاج والموقف. ان الخصومة بينهما اقوى من الخصومة على المصلحة. ان الخصومة على المصلحة يمكن علاجها أو وقفها... اما هذه الخصومة فلا.

وقد كانت النتيجة المحتومة لهذا ان تفرض الثورات في كل زمان على المتفوقين تفوقا ذاتيا، نوعا من الاذلال والقهر، لا تفرضه على من سواهم من التافهين والمغفلين الفاسدين. الها تنظر اليهم دائما كأعداء ومحاربين ومذنبين واشرار لا يمكن شفاؤهم أو هدايتهم... الهم محكوم عليهم من داخلهم. الها تفرض عليهم كل الوان العزل والحرمان والتحطيم، وتبدع في قهرهم وقهر مزاياهم وشموخهم، ثم تكرههم على ان يشكروها على ذلك، وان يعترفوا ضد انفسهم، وان يلعقوا دماءهم ويأكلوا قيئهم. وقد تعلن بعد ذلك الها قد غفرت لهم، لتزيد من اذلالهم وتحقيرهم، ولترضى عن نفسها حينما تشعر بالقدرة المطلقة، وبخضوع الجميع لها على اذل المستويات، ولتعلن عن سعة رحمتها وعفوها الذي لا حد له عن المذنبين والاعداء. وذلك بعد ان يتوبوا التوبة

القاتلة... بعد ان يعلنوا التوبة على يد شيطان جاهل، يقتات بالقسوة والضلال.

اما التافهون والمغفلون... فهم العزاء الجميل لكل ثورة... انهم قطعانها الفاضلة المؤمنة.

ولكن هنا شيء، فالثورة مع انها تبحث عن الايمان، وتصر على ان يؤمن بها المجتمع بلا ذكاء أو نقد، فانها قد تفضل النفاق احيانا على الايمان... انها قد تفضل التعاون مع المنافق الذي لا يملك اخلاقا، على التعاون مع المؤمن بها، الصادق، اذا كان يملك اخلاقا قوية. ذلك ان المنافق بلا اخلاق، مستعد دائما ان يسير مع الثورة في كل طريقها، دون ان يرفض شيئا من ذنوبها أو اوحالها، ودون ان يعاني أو يتردد في تقبل كل ما تريد وتفعل هاتفا مصليا. اما المؤمن بالثورة ذو الاخلاق القوية، الموالي لها بصدق، وعن فكرة ومثالية فانه سيصدم بها، وسيرفض السير معها في كل طريقها الى آخر الشوط، لان ايمانه لن يتوافق معها دائما، وهنا مكان الخطر والتناقض. ولهذا فان اكثر الناس حظوة لدى الثورات هم المنافقون لها، لا المؤمنون بها ما لم يكونوا ضعفاء واغبياء، وقد يبدو هذا غريبا.

واذا كان من المفروض ان الثوار انما يثورون باسم الحرية والافكار التقدمية، فان المعلمين والمفكرين العظام، يشقون في عهد الثورات، ويشقون بالثورات... يشقون بها وفيها، اكثر مما يشقون في كل العهود. ان الثوار ليضيقون بهؤلاء المفكرين والمعلمين العظام، ويعملون على اذلالهم، اكثر مما يفعل بهم خصوم الثورة التقليديون. ان المفكرين وذوي الاخلاق القوية الذين ماتوا أو تعذبوا في عصر الثورات، اكبر كثيرا من الذين ماتوا أو تعذبوا منهم في عصور غير ثورية. وان الوحشية التي نزلت بهم كهدية من الثوار افظع من اية وحشية نزلت بهم.

ان الثورات احوج الى الانتقام... وأسرع الى الانتقام... واجـــــرأ علــى الانتقام... ومن احق بالانتقام من المتفوقين...؟

وللثورات دائما عدوان، اولهما خصومهما بالنظرية وبالوضع الاجتمـــاعي والتاريخي والطبقي. وهؤلاء هم الذين توجه اليهم ضربتها الاولى. وثانيهما ذوو الافكار والمذاهب الحرة التقدمية الجريئة، وذوو الاخلاق الشامخة الرافضة، مــع ان هؤلاء قد يكونون من انصارها بالنظرية والطبقة. وقد تقسو على هـــؤلاء اكثر من قسوتها على اولئك. ان الثورة لا تعادي أو تصـــادق بـــالمذهب أو التفكير، بل بالخوف والأنانية. ان الثورة تبحث دائما عن الطاعة بلا ايمـــان أو عن الايمان الضعيف... عن الانتصار، لا عن الحب أو الذكاء.

ان الناس في زمن الثورات، محتوم عليهم ان يؤمنـــوا، ومحـــرم عليـــهم ان يفهموا.

واذن فالذين لا يستطيعون ان يؤمنوا، ومحكوم عليهم ان يفهموا، لا بـد ان ينافقوا.

والذين لا يستطيعون ان ينافقوا بمهارة وذكاء لا بد ان يموتوا، أو يلقوا مـن الهوان كل فنونه.

والثورة تشترط للنفاق لكي تقبله شروطا باهظة. انها تحدد في مســـتويات النفاق وأساليبه. انها تريده ان يكون مهينا وصغيرا بلا حـــدود... تريـــده ان يكون موتا، لانها لا تتسامح في اسلوب النفاق المطلوب. ان الثورة – اي ثورة – لا تريد من النفاق ان يكون طاعة لها فقط، بل وان يكون هوانا وســـقوطا للمجتمع الذي تتسلط عليه... انها تبحث عن السقوط، لا عن الطاعة فقـــط، بلا سقوط... انه لا بد من السقوط.

لهذا كان عصر الثورات دائما هو عصر النفاق، أو الايمان الهمجي... فامــا مؤمنون بلا كرامة عقلية، أو منافقون بلا كرامة اخلاقية، وهم في الحالتين بــلا كرامة حضارية.

انه لا كرامة للانسان، لا عقلية ولا اخلاقية في عصر الثورات. ان شمــوخ العقل وشموخ الاخلاق هما أسوأ الأشياء حظا في عهد الثورات.

ان اكثر من يشقون بهذا النفاق ويفرض عليهم تجرعه بــلا رحمــة هــم المتفوقون، هم ذوو العقول والأفكار العظيمة وغيرهم من كبار الرجال، واذا لم يقبلوا ان يموتوا، أو يتحطموا تحت ظروف من الوحشية والرفض، لا مثيل لهــا في ازدواجها... لا مثيل لها في وحشيتها... ولا مثيل لها في رفضها.

لقد مات الانســان

ليست الثورة مطهرا اخلاقيا يطهر الرجال، ويصوغ نفوسهم على المستوى المبرأ من جميع العيوب والأهواء وأسباب العجز. ان اية ثورة لا تستطيع ان تقتل الشيطان في نفس أي ثائر. ان كل ثائر لا بد ان يظل انسانا صغيرا، فيه كــل صغائر الإنسان واضغانه وضعفه وانانيته. ان الثائر يكون في الاغلب متوتــرا وسوقيا... ان هذا يجعله محتاجا الى المبالغة والادعاء والصياح ومعاداة الوقــار والصمت والرصانة. انه لابد ان يكون افتضاحا. ان الثائر لا يمكن ان يكــون متوقرا، لهذا لا يمكن ان يكون مهذبا أو صادقا.

ان الوقار نفي للثورة. اذا كنت وقورا أو متوقرا فانت غير ثائر. انــك لا تستطيع حينئذ ان تضع ثورة، ولا تستطيع ان تتلائم مع الثورة، أو تفعل مــا يرضي الثورة. اذن فالثورة عي نفي للوقار، والوقار نفي للثورة، فالثورة محكوم عليها ان تكون معادية للوقار. وحينئذ هل يكون الثائر مهذبا أو صادقا...؟

ان الثائر لا يمتاز باخلاقه ولا بعبقريته...

اذن كيف يرتجى منه ان يحقق للمجتمع مستويات اخلاقيـــة وعبقريـــة لا يملكها هو...؟

كيف يستطيع ان يحقق للمجتمع ما لا يستطيع ان يحقق لنفسه...؟

ان الثورة – اية ثورة – لا تجيء بقطع غيار بشرية جديـــدة، تركبـــها في المجتمع ليكون مجتمعا متفوقا. انها تتعامل مع القطع الموجودة علـــى احســن الفروض. ان هذه القطع الموجودة هي التي تصنع الثورة وتعيشها. وليس مــن الممكن ان يستعمل الثوار هذه القطع استعمالا اذكى أو افضل أو ان يغيروهــا، لأن الثوار ليسوا كائنات فوق المجتمع الذي جاءوا اليه. انه اذا امتاز أي ثـــائر بمزية من المزايا فليس امتيازه سبب ثورته، ولا بسبب ثورته، بل كما يمتاز غـير الثوار بأشياء كثيرة. فالثورة لا تصنع امتيازا، ولكنها قـــد تســـتغل الامتيـــاز الموجود.

ان الثورة لا تبدع، ولكنها قد تجد. ان جميع الثورات التي عدت مبدعــة لم تبدع، ولكنها قد وجدت الابداع فادعته، ولكن مرضها الأصيل الدائم حكـم عليها ان تذهب لتملأ الدنيا زعما بأنها هي الخالقة لكل شيء... هي الخالقة لما كان ولما سوف يكون ولما لن يكون.

ان جميع الثورات لا بد ان تزعم انها هي الخالقة لما لن يكون... هي وحدها الخالقة لما لن يكون... كلها خالقة لما لن يكون...

ان الأسباب التي تجعل غير الثائر ضالا أو عاجزا أو رجعيـــا توجدأيضـــاً بالنسبة نفسها أو بنسبة اصغر واحيانا بنسبة اكبر لتجعل الثائر كذلك أو اردأ.

ان الفرق بين حاكم يجيء باسلوب الثورة، وحاكم يجـــيء بالأســـلوب السلمي فرق في الوسائل... انه ليس فرقا في ارادة الخير والعدل، ولا في القدرة

عليهما، ولا في الظروف المطلوبة المؤاتية ولا في العصمة من اشتهاء التعامل مع الشيطان. بل ان الشيطان لا يرضى عن نفسه كل الرضا إلا في عهد الثورات.

وقد يختلف نوع الخطأ والفساد والشهوة والرجعية التي يحتاج اليها ويمارسها هذا وهذا. وقد تكون آثام الثوار هي اكبر الآثام... من المحتوم ان تكون حاجاتهم الى خرق الناموس الاخلاقي والخروج على الفضائل المتسامحة اقوى من حاجة الآخرين... بل محتوم ان تكون رجعيتهم هي افظع رجعية. ان رجعية الثوار لا مثيل لها في قسوتها وتعصبها وغبائها.

ان الثورة مثل أي عمل أو تصادم، أو خصومة أو منافسة أو مقامرة في هذه الحياة. انها لم تعمق ما في الاخلاق والنفوس من مرارة وضراوة وشراسة وخوف والم، فانها لن تشفيها من ذلك. ان الضراوة والشراسة والمرارة هي فضائل كل ثورة. ان الشراسة والضراوة والمرارة، هي عطايا الثورة التي لا بديل عنها ولا تعويض عن شرورها.

ان الحكام بلا ثورة يمنحهم التاريخ والاسلوب الذي جاءوا به الى الحكم نوعا من الصداقة النفسية والفكرية والاخلاقية، ومن التقاليد الرزينة ومن الحب للتاريخ... ان معنى هذا ان يكونوا اكثر استعدادا للتقبل والفهم والايمان بالحريات بلا مبالغة في الخوف من النقد أو من خلاف المخالفين. ان معنى هذا ان يكونوا اكثر استعدادا لقبول التغيير وتسامحا ازاء دعاته. ان معنى هذا ان تكون رجعيتهم اقل وحشية وفتكا وخوفا. ان معنى هذا ان يكونوا افضل الثوار في شيء ما، أو في اشياء كثيرة.

اما الذين يجيئون الى الحكم باسلوب ثوري، فلا بد ان يصابوا بالتوتر، والخوف وشهوة الانتقام. انهم لا بد ان يفقدوا الوقار والشعور بالأمان والثقة بكل شيء. انه ليس بينهم وبين التاريخ معاملة أو تجربة أو صداقة سابقة تجعلهم

يثقون أو يطمئنون... لقد وثبوا على التاريخ بوسيلة هجومية عنيفة، وتلاقوا معه بهذه الوسيلة بلا اتفاق بلا عشق، بلا زواج، بلا تعارف. ان هذا يجعلهم حتما قساة، طغاة، متوترين، يمارسون كل الوحشية، ويعادون كل فضائل اللين والتسامح والتواضع... يجعلهم لا يرون في النقد والخلاف إلا خيانة وتآمرا. انهم لا بد مضطرون الى الايمان بالدم والمعتقلات والمحاكمات والسجون والجاسوسية بأجهزتها الغالية الرهيبة. انهم لا بد ان يروا ذلك افضل علاج عبقري يلجأ اليه الأقوياء الذين يحتقرون التسامح ويرون في الخضوع للقوانين والاخلاق ابشع أساليب الضعف والغباء والرجعية. افضل علاج يلجأ اليه المغتصبون للتاريخ... القاهرون له... الباصقون عليه.

ان مذاق المجد الحديث، ليهب ضراوة ونذالة اكثر مما يهب مذاق المجد القديم. ان القائد أو الحاكم الذي يخرج من تراب الشعب، لأجرأ على الفتك به من الحاكم أو القائد الذي يهبط عليه من فوق الشمس. ان السارق للمجد لأكثر نذالة وخسة في خوفه على مجده الوليد المسروق، من الوارث للمجد. ان سارق المجد هو اعظم وحش عانت منه البشرية.

ان الذين اعتادوا الشراب لا بد ان يكونوا اكثر اتزانا وتماسكا حينما يشربون، من الذين يجربونه لاول مرة... ان اخطر الكؤوس على العقل والاخلاق هي الكؤوس الاولى، انها اقوى الكؤوس جنونا... ان المجد كالمشروبات الروحية، انبله واعظمه قيمة ووقارا اكثره تعتيقا.

ان المجد القديم قد يكون مذنبا، قد يكون مذنبا جدا، بل انه مذنب حتما. وقد يكون غبيا جدا، ولكن لن يكون في وحشية المجد الحديث، أو المجد السارق أو المجد المسروق.

ايها الثوار خوفي منكم لأنكم سارقون للمجد.

ان شعوركم بأنكم سارقون للمجد لن يبقي أي احتمـــال لأن تكونــوا متسامحين أو اصدقاء أو غير قتلة.

من الحقائق أو المخاطر المألوفة والمتكررة ان اقدر الناس على التســـلل الى اعصاب الثورة والسيطرة عليها والتوافق معها، هـــم المنـــافقون والاوغـــاد، والمتوترون والمرضى والهتافون بلا ايمان، والمؤمنون بلا اخلاق، والمتعصبون بــلا ذكاء، والاذكياء بلا عقول، والصارخون بلا قدرة والانسانيون بلا انســـانية والأنبياء بلا سماء ولا جنة ولا قداسة.

ان كل ثورة لا بد ان تعيش تحت رهبة الخوف والتوتر والشعور بأنها تواجه ارضا جديدة عليها، غريبة فيها، وبأنها مغتصبة تحتاج الى من يشـــرعون لهــا اغتصابها... لهذا هي تغتبط بالتعامل مع هؤلاء الذين يعيشون كل هذه المزايـــا الشريرة، لأن الثورة كل ثورة هي التعبير القوي عن هذه المزايا. ان اصحـــاب هذه المزايا هم الأصدقاء الدائمون الاحتياطيون لكل ثورة.

انه لا يمكن ان يصنع الثورة أو يتلائم معـــها الانســـانيون المعتدلـــون، أو الاصحاء في اخلاقهم واجسامهم وتفكيرهم ومشاعرهم واوضاعهم الاجتماعية والداخلية. ان السوي لن يستطيع ان يصنع ثورة ولا ان ترضاه اية ثورة ليكون صديقا أو عميلا لها... ان بينهما تناقضا.

ان الثورة دائما هي الصيغة العدوانية للتعبير عن الألم والقســـوة والتوتـــر والضياع والحقد والأنانية والهرب من شيء ما. ومهما افترضت الثورة متدينـــة ونبيلة، فانها في حوافزها ووسائلها، ليست إلا سطوا وطموحا شخصيا مسلحا. انه لو كان الذين قادوا الثورات يعيشون في ظـــروف ومســـتويات نفســـية، واجتماعية واخلاقية، افضل مما وجدوا لما ثاروا. لقد ثار بعضهم لأنهم لم يكــن متزوجا. أو لأن زوجته كانت دميمة أو جاهلة أو بذيئة... أو من طبقة ليست

مما يتحدث عنها التاريخ بانهار وخشوع... وبعضهم لأنه لم يكن في زواجه أو بيته سعيدا... وبعضهم لأن وضعه الطبقي لم يكن مرضيا... وبعضهم لأنه كان مريضا أو عصبيا. فالثورة هي دائما احتجاج على الذات، يجيء في صورة الاحتجاج على المجتمع أو للمجتمع.

ان الثائر يحاول ان يغير وضعه، أو يلعن وضعه، بحجة المحاولة لتغيير اوضاع الآخرين... انه يغار لنفسه وينتقم لها، ثم يزعم انه انما يغار وينتقم للانسان المظلوم، أو للاله المهجور في سمائه.

ما اشد ما يبدو الإنسان صغيرا، ذليلا وغبيا، حينما يبدو دائما في جميع تاريخه مطيعا خاضعا واهبا نفسه للمرضى ولذوي العاهات، والحاقدين والمغمورين المتوترين، لكي يجربوا عليه احقادهم وتوتراتهم وعاهاتهم المختلفة بالثورات، وبالتلاعب بالحكم، وبالتنقل بين المذاهب والنظم والآلهة، ولكي يستشفوا من آلامهم الخاصة، ومن جنون طموحهم ووحشيتهم المفترسة، بالتعاقب على امتلاكه، ينقلون امتلاكهم له من ملاك قبلهم، كانوا هم قد نقلوا امتلاكهم له من آخرين قبلهم ايضا، وهكذا... ثم يظل هذا الإنسان يهتف لنفسه ولمجده وبكبرياء، ثم يصعد به غروره بعيدا، بعيدا، لكي يتحدث الى الاله عن عبوديته له وحده بلا شريك؟

ماذا في نفسه يمكن ان تقبل الآلهة بيعه لها، أو اهداءه اليها...؟

لقد امتص الطغاة والثوار والمعلمون الأغبياء كل ما فيه من احتمالات للكرامة والحرية والذكاء والطهارة.

لقد امتصوا فيه كل احتمالات الانسان... لقد مات كانسان... لقد مات.

ان الآلهة والافكار الطيبة، لم تستطع في أي وقت ان تدخل في مناقشة على أي معنى أو فضيلة في الإنسان مع اللصوص، لقد مات الانسان... لقد صلب

في المعسكرات والمعابد والاستعراضات وفي المعتقـــلات، وميـــادين الحـــرب والخصومات وتحت اقدام الارباب الآكلين لأخلاق البشر.

لقد مات الانسان... مات قبل ان يولد. وانه لا يزال يموت... انه يمـوت دائما لأن الطغاة والثوار والمعلمين، يجربون عليه انفسهم دائما. انه لا يرفض ان يتعلم، وانهم لا يملون أو يتعبون مهما استمرت التجارب.

كم هو سخيف هذا الانسان.

كيف يجرؤ على الذهاب الى المعابد ليتحدث الى الإله...؟ انه لم يبق شـيء يمكن ان بقدمه اليها.

كيف يجسر على مخاطبتها زاعما انه يساومها على نفسه...

كيف يجرؤ على ان يرفع رأسه...

كيف يجرؤ على النظر الى النجوم...

كيف يجرؤ على مساومة الآلهة... على الصلاة لها... هل بقيت له جبهـــة يذلها بالسجود للآلهة...؟

لقد اكل الطغاة والمعلمون والثوار جبهته... انه بلا جبهـــة... انـــه بـــلا هامة... انه بلا قامة. لقد تحطمت قامته من الانحناء... انه بلا انسان... انـــه مقبرة انسان... لقد مات الانسان...

مصاب بحالة ثورية

اني كلما رايت زيا عسكريا، اشعر اني لا ارى إلا اعلانا بذيئـــا مربوطـــا بانسان اسمعه ينادي:

انا وحش... انا قاتل... انا مخرب... انا صانع الايتام... صانع الأرامل... صانع الدموع... انا حشرة باهظة التكاليف... انا حشرة عالمية... انا كل ذلك... انا اكثر من ذلك، واوقح من ذلك...

ان الجميل الدميم... انا المحترم المحتقر... انا القوي الضعيف، المنتصر المهزوم... انا القاتل الذي يمشي متبخترا فوق المجتمع، حاملاً زي القتل، حاملا ادوات القتل وشعاراته... انا القاتل الذي تعده كل المجتمعات، وتفاخر به كل المجتمعات... انا صانع الانتصارات، التي هي هزائم للانسان... انا صانع الهزائم دائما... انا صانع الهزائم حينما انتصر، وصانع الهزائم حينما الهزم...

انا دائما الموت، والخراب والخوف، والبذاءة...

قد يأتي وقت يعلن فيه الرجل بانه ثائر... فيقال "هذا ثائر" للطعن فيه، كما يقال اليوم: هذا رجعي.

قد يقال في يوم من الايام: هذا الإنسان أو هذا المجتمع مصاب بحالة ثورية أو عسكرية... مثلما يقال اليوم، هذا نصاب بحالة مرضية أو بحالة الهيار اخلاقي أو الهيار عصبي.

قد يقال في يوم مقبل، "هذا ثائر... أي هذا مخرب، سارق قاتل، محارب للناس، مريض، مصاب بالشذوذ الاخلاقي العدواني النفسي.

*

اني اخاف الثورات، لأني اخاف على مستويات الحرية والذكاء والكرامة... لأني اخاف على المعارضة الشجاعة والتمرد الخلاق... لأني اخاف ان يموتا... ان يقتلهما الثوار.

اني اخاف الثورات، لأنها خطر على العبقرية... لأنها تهديد للتفوق... لأنها تخافهما... لأنها تغار منهما.

اني اخاف الثورات لأنها تعصب... لأنها رفض للتسامح... لأنها تتحول الى رجعية لا مثيل لها... الى خوف من التجديد والنقد لا مثيل له.

اني اخاف الثورات لأنها تكره تعدد النوافذ، تعدد العيون. انها لا تريد للدنيا إلا عينا واحدة، ونافذة واحدة... انها لا ترى للدنيا إلا عينا واحدة ونـــافذة واحدة. انها تغلق جميع النوافذ، جميع العيون غير العـــين الواحـــدة والنـــافذة الواحدة، اللتين هما عينها ونافذتها. انها تحارب تعدد النوافذ، تعدد العيون.

اني اخاف الثورات، لأني قرأت عنها... لأني عشتها... لأني رايت مـــن يعيشونها... لأني فكرت في المقارنة بينها وبين العهود التي اسقطتها.

اني اخاف الثورات، لأنها تتحول الى ثورة في تشييد الغباء... في غوغائيـــة الاخلاق... في سوقيتها... في وحشيتها.

اني اخاف الثورات، لأني ارى... واعاني... واغضب.

اني اخاف الثورات، لأني رايتها تحول حريتي ورخائي وكرامتي وذكائي الى خطب واكاذيب واستعراضات ومقامرات ومؤتمرات ومساومات.

اني اخاف الثورات، لأني لا ازال انسانا... لأني لم امت بعـــد... لأني لا اطيق ان ارى كل الهامات والقامات والعقول والأخـــلاق، تنحـــني دون أي غضب، لرجل واحد ليس له من مزية، غير انه يضرب اكثر... ويتآمر اكثر... ويتوقح اكثر... ويكذب اكثر.

اني اخاف الثورات، لأني اخاف الغوغائية والغبـــاء والبـــذاءة والخـــوف والظلام.

اني اتعذب بالثورات، لأني لا استطيع ان اؤمـــن بهـــا، ولا اســـتطيع ان انافقها... لأني لا استطيع رؤيتها ولا استطيع معايشتها، ولا استطيع الفـــرار منها... لا استطيع الفرار من رؤيتها.

اني اخاف الثورات، اني اتعذب بها.

*

ايها السلاح...

اني احتقرك... اخافك؟

ان انساناً صغيرا جدا... ان انسانا كل مزاياه ان يحملك، يطلقك فوق كل الناس... فوق كل التاريخ، ليصبح اعظم عبقري... اعظم مفكر... اعظم فيلسوف...

ايها السلاح...

اني احتقرك... اخافك... ارفضك... ايها السلاح...!

ايها الثوار...

اني اكرهكم... اني اخافكم، لأني اكره ان يتكلم الحقد والبذاءة باسم الانبياء والمذاهب... باسم القرآن والتعاليم والفلسفات...

عاشق لعار التاريخ

ان آفة كل دكتاتور مهما كان صغيرا انه يريد ان يكون الطبيب العـــالمي للتاريخ... انه لا يستطيع ان يكون في حسابه لنفسه عظيما إلا اذا كان كل من كان قبله حقيرا. ان مجده يعني حقارة من سواه... ان حقارة من سواه تعـــني مجده، تعني تفرده بالمجد.

انه الكائن الكريه الذي لا يكون وجهه جميلا إلا اذا كانت كل الوجـــوه الاخرى دميمة، ولا يكون جلده نظيفا إلا اذا كانت جميع الجلود متسـخة. ان الكائن الذي لا يستطيع ان يشعر بالسعادة، إلا اذا كان كل من سواه ملونـين مهزومين.

الدكتاتور هو اتعس الناس حين لا يجد معارك يخوضها، ولا اعداء يتغـذى بعداوتهم، وبالتشنيع عليهم... انه وحش غذاؤه الاعراض والكرامات، يقـهرها ويلعقها.

حين تنفجر الطبيعة

اريد ان افترض فرقا بين الدكتاتور والطاغية والمستبد. وفي هذا الافــتراض ليس كل مستبد أو طاغية، دكتاتورا. انه توجد دائما اوضاع مستبدة وطاغيـة ولكنها بلا دكتاتور. ان الاستبداد والطغيان هما احدى مركبات الدكتاتور. ان الدكتاتور لا يكون إلا مستبدا وطاغيا. ولكن هذه هي صفته الأولى المتواضعة. ان كثيرا من الحكام ظالمون ومستبدون وطغاة كبار ولكنـــهم مـــع ذلـــك لا يرتفعون الى مرتبة الدكتاتور.

الدكتاتور انسان غير طبيعي. انه لا يوجد إلا قليلا... تفجر الطبيعة فجورا غير عادي، وتتخلى عن كل وقار واحتشام، وصداقة للارض حينمـــا تلـــد

دكتاتورا... ان جميع الطغاة في التاريخ يتحولون الى اولاد مهذبين مسالمين، لو دخلوا في مباراة انسانية مع دكتاتور واحد.

ان خصائصه الكثيرة المتعبة، تجعل وجوده ظاهرة لا تتكرر كثيرا. تحدث الزلازل والبراكين والمجاعات والاوبئة والاحداث الكونية الصعبة، اكثر مما يحدث وجوده. ان محصول البشر منه نادر جدا. انه لا يخلق نفسه، ولا يخلقه المجتمع... انه بذرة تجمعت فيها خصائص خطيرة، وانه تربة تتقبل هذه الخصائص وتطلق النمو والازدهار الشرير.

في أي الظروف يوجد الدكتاتور...؟

انه لا يوجد في احسنها ولا اسوئها. ان الظروف الجيدة جدا لا تأذن بوجوده وان السيئة جدا لا تتحمل وجوده. انه يوجد في ظروف متطورة، ولكنها غير متكاملة ولا مستقرة... انها ظروف فيها مرارة والم وحيرة وفراغ واتكالية. انها كالظروف التي توحي فيها السماء الى واحد من اهل الأرض ليكون رسولا.

لم يحدث ان قام دكتاتور لا في مجتمعات بدائية ولا في مجتمعات متكاملة. انه نبت لا ينمو فوق القمة ولا في الحضيض. انه اذا وجد في شعب مثل الشعب الالماني، كان دليلا على ان هذا الشعب غير سوي، وان كان مبدعا. ان كثيرا من الشعوب ذكية جدا كخالقة، وغبية جدا كمفكرة، وكبشر... انهم كالطبيعة تبدع كقانون، دون ان تكون ذكية أو مفكرة. ويبدو ان الشعب الالماني وشعوبا اخرى، تبدع وتعمل كطبيعة لا كبشر يفكرون ويتوازنون عقليا وسلوكيا. انهم لهذا قد يسيرون وراء أي مجنون ليصنعوا اضخم الحماقات، من غير ان يفهموا أو يعارضوا، كما يصنع البشر. انهم معرضون للاصابة بهذا الجنون دائما. انه قد يروعنا فهم الجمع المثير بين العبقرية المتفوقة

والغباء المتفوق... وهل بين العبقرية والغباء أي تزاحم أو تدافع... وهل في الغباء من الغباء اكثر مما في العبقرية من الغباء... وهل في الغباء من تحدي الذكاء، من الخروج على الذكاء، اكثر مما في العبقرية...؟

الدكتاتور لا يجيء في كل الظروف، ولا في كل المجتمعات. انه يجيء في ظروف خاصة قابلة لأن يمارس فيها كل جنونه. انها ظروف تهيء للوقوع في شباك الدعاية والاستهواء.

وانه من جهة اخرى لا يؤمن بالاخلاق ولا بالمنطق... انه يكذب ويضلل ما استطاع، لا يمنعه من ذلك مانع... انه لا يشعر ان احدا يراه أو ينكره أو يحاسبه، انه لا يخجل من النور... انه لا يراه... انه لا يحسب أي حساب لكل ما في الشمس من قوة ورؤية وكشف.

ومن جهة ثالثة، ليس للجماهير مناعة - أية مناعة - ضد الانخداع والخوف وتصديق السحر. ان استعداد الجماهير للاتباع والانخداع مشكلة قديمة وحديثة، لم يوجد لها علاج... انه لن يوجد لها العلاج.

ان هذه الامور الثلاثة تعطي دعايته المرهقة كل الفرص لكي تبلغ منتهاها.

فاذا وجدت المجتمعات الهاربة من نفسها، الباحثة عن الغواية، ووجدت تلك الغواية بكل مغرياتها وأساليبها وانبيائها الكذبة، ثم سلطت على تلك المجتمعات كل كذبها وفجورها وانطلاقاتها المتوحشة، ثم كانت المجتمعات بظروفها النفسية، محتاجة الى الضلال والاتباع والايمان وتسليم القلاع للغزاة القادمين من وراء الضباب... اذا اجتمع ذلك كله، كان محتوما ان تجيء دعاية الدكتاتور شيئا مثيرا وحاسما. ان هذا هو التفسير لما يثبت دائما من تفوق الدعاية الدكتاتورية على دعايات خصومها... انها تجيء تعبيرا عن حالة اليمة موجودة.

ان هذا يجعلها رسالة وانقاذا في تصور الجماعات. لهذا يـــترامون تحـــت اقدامها بلا وقار أو ذكاء. انهم بذلك يهربون من انفسهم ومن فراغها الاليـــم العقيم. انهم لا يجدون ما يملأ هذا الفراغ غير الايمان بالتعصب والحقد والكذب والوعود التي تطلقها هذه الدعاية الباهظة. اما خصومها فليست لهم هذه المزايـا فلا يتكافأون معها. ان الجنون في السوق شيء متفوق ساحق لا ينافس.

ان المجتمعات في الغالب تؤمن بالذين يعلمونها الكذب والغواية والبغـــض والحماقات لا بمن يعلمونها الحب والحقيقة والصداقة والعقل. ان الأكـــاذيب اقوى سحرا من الحقائق... ان المهرجين الصارخين، يعطون الجماعات الفرصة لكي تريح آلامها واعصابها، أو حرمانها اعظم مما يعطيها العقلاء المتوقرون.

ما اسخف العقل حيث يطلب الجنون... ما اسخف الاتـــزان في مخاطبـــة الجماهير، في قيادتها. ان الاعتدال والصدق والوقار، قيود لا تطيقها الجماهـــير. ان الجماهير تجد في الاكاذيب والمبالغات والتحويمات، تعويضا لها عن فقدهـــا وعجزها وحاجتها. كل الناس يحتاجون الى تعويض ولـــو بـــالكذب، ولـــو بالاحتلام، ولو بالشتائم والحقد.

تدمير متبادل

يحدث الدكتاتور في العلاقات الدولية نوعا جديدا من الاخلاقية الكريهة... انه يشيع اساليب الوقاحة والسباب والبذاءة والاتهامات غير المألوفـــة... انـــه يحدث اشياء لا عهد للبشر بمثلها... انه يعلم البشر اخلاقا جديدة... انه يضـــع لهذه الاخلاق الجديدة لغة جديدة... انه يتحول الى عار في تاريخ البشـــر، وفي تاريخ اخلاقهم وفي لغات اخلاقهم.

ان آذان البشر تتعلم في عهد الدكتاتور ان تفقد تهذيبها وحياءها ورفضها. انه يتحدث عن خصومه واليهم، كأنه حشرة تطلق كل ما في جوفها من اشياء

على نفسها وعلى من حولها... انه لا يراعي أي قيد من قيود الآداب، أو احترام الذات... انه لا يرى للغة اية قيود، اية اخلاق... انه ليس انسانا يتكلم، انه اوحال تتفجر... انه يستخدم لغة ومعاني لا عهد للكبار بها... انه يحول لغة الصغار ومشاعرهم الى لغة والى مشاعر للكبار... انه يتفوق على الصغار والكبار... انه يتحول الى معلم للصغار، يعلمهم الاخلاق واللغات الجديدة.

انه لما كان لكل فعل رد فعل، كان محتوما ان تنطلق من الجبهة الاخرى اساليب مشابهة.

ان الدكتاتور يتخلق من نسيج الأرض، من المها، من غبارها... فاذا اصبح كبيرا يتحدث بلغة الكبار، لم يستطع ان يتخطى بسرعة وسهولة، لغته ولا اسلوبه في التعبير عن مشاعر الصغار. انه يقفز من الشارع الى العرش، فينقل معه كل اخلاق الشارع، مضافا اليها شعوره غير العادي بالقوة والكبرياء، وبالخوف الرهيب. ان هذا يجعله متفوقا على كل ما عرفت الاسواق من اخلاق الصغار ولغاتهم... انه متفوق بظروفه وخصائصه الموهوبة... انه موهوب بذاءته بقدر ما هو موهوب وحشيته... ان نفس هذه القفزة لا بد ان تصيب توازنه بخلل عظيم... ان القفز العالي خطر على الاتزان... ان الفرحة الخارقة المفاجئة قد تقود الى الجنون، قد تسلب الشخص وقاره... ان هذه المشاعر المقفوز بها هي التي تضرب الدكتاتور - مهما تأخر ذلك - بالانهيار والحماقات وعبادة الذات... انه يقود الجماهير اولا الى الجنون، ثم تقوده تلك الجماهير الى ما قادها اليه... انه اولا يفسدها بدعاياته وبانتصاراته الخارقة السريعة، وانها ثانيا تفسده بهتافها وركوعها وايمانها... انه يدمرها، وانها تدمره جزاء وفاقا... ليس خطره على الجماهير باعظم من خطرها هي عليه... انه القاتل المقتول... انه قاتل يستحق رحمة قتلاه ورثاءهم.

انه لمستحيل ان ترتفع فجأة بانسان من تحت الارض لتضعه فوق اعتى عرش، دون ان يصاب عقله واخلاقه بكل الاحتمالات الشريرة الاليمة.

ان وجود الدكتاتور علامة هائلة على استعداد العقل العالمي للاصابة بالجنون.

ان الدكتاتور لا يتألق إلا في ظروف دولية خطيرة. ان المفروض في مثل هذه الظروف ان تكون في غاية الحساسية... ان تكون عملية التوازن بينها دقيقة جدا، دقيقة بحيث قد يكفي أي عامل تحريض جديد ليجعلها تجن، وتفقد كل ضوابطها، لهذا كان ظهور الدكتاتور علامة كبيرة على الكارثة. لقد كان دائما هو اقوى جهاز لتفجير الحرائق الكبرى، التي يسميها الناس بالحروب لأنه يهيء الاحتكاك المدمر... لانه لا يقتات إلا بالآلام والمخاوف والاحقاد والتوتر... لأنه يعيش بالتحريش بين الدول والكتل المتخاصمة... لأنه غواية تاريخية... لأنه يصيب وقار التاريخ، اعصاب التاريخ بالجنون.

لقد ظل الدكتاتور مهما كان تافها، خليق بأن يهب الإنسانية اكبر الآلام.

ان قيمة الشيء لا تساوي الشيء نفسه، انها تساوي ظروفه، انها تساوي اهتمام الاخرين به وتقديرهم له، وتعاملهم معه وعليه.

ان الدكتاتور قد يصبح افضل مما تتعامل عليه الخصومات المتقاتلة... قد يتحول الى جهاز شرير يتقاتل به الاعداء المتناقضون والمتنافسون... قد يتحول الى افظع عميل للعداوات والخلافات المتناقضة بين الدول والكتل... قد توجد فيه كل الشرور المطلوبة المتعادية.

واذا تحدث الدكتاتور مع ذلك عن السلام، فلانه لا يحتم شيئا. انه لا يحترم نفسه ولا كلمته ولا الذين يتخاطب معهم.

انه لا يخشى الافتضاح... وما معنى الافتضاح في حسابات الدكتاتور...؟

وهل هو حقا لا يحترم نفسه...؟

ان المفروض انه لا يحترم شيئا غير نفسه، ولكنه مع ذلك لا يحترمها... انه يطلقها... انه يفجرها كما يطلق ويفجر جواسيسه واسلحته. ان اول ما يحتاج إليه الدكتاتور ان يسحق كل مقاومات نفسه لنفسه، ليتحرر من فضائل الإنسان... ان عليه اولا ان يتحول جهازا... ان يتخطى كونه انسانا لكي يستطيع ان يكون دكتاتورا مثاليا.

ان الدكتاتورية شجرة لا تنمو إلا في الجحيم، لا تنمو إلا في الحرب، وفي الخوف من الحرب وفي التهديد بالحرب...

انها شجرة ثمارها البغضاء والخوف والخصومات والازمات...

انها شجرة ثمارها الاحزان والدموع والمهانات والبذاءات...

انها شجرة لم تزرع الطبيعة اخبث منها...

علاقة افتراس

ان الدكتاتور لا يريد بمغامراته ان يحقق اهدافا معينة... انه يريد ان يصنع احداثا مثيرة... انه حدث لا فكرة. ان الازمات والمشاكل غذاء شرير لكل دكتاتور.

يطلب شيئا ويلح في طلبه، ويثير الدنيا ويهددها بكل الأخطار اذا هو لم يبلغ ما يريد، فاذا بلغه تحول بالاسلوب نفسه والاصرار نفسه والضجيج نفسه، يطلب شيئا آخر. انه يستمر يخلق الأحداث والمخاوف والخصومات ويحركها. ان الاهداف التي يتحدث عنها والتي يحولها الى مطالب ليست إلا وسائل يبرر بها تحركاته وتهديداته وخلقه للازمات. ان الدنيا لو اعطته كل ما يريد وكل ما فيها لظل أيضاً يهدد ويعادي ويطالب بالوقاحة نفسها. انه لو انتصر على جميع الشعوب، وركعت تحت قدميه ضارعة مبايعة، لأنكر هذه الشعوب واحتقرها،

لايمانها به وطاعتها له، ولراح يصنع من حولها الاخطار والمشاكل، لأنه لا بد ان يبحث عن المخاوف والخصومات والضجيج، فاذا كانت طاعة العالم له وركوعه بين يديه، تحرمانه من هذه السعادة الشريرة، فليخرج عليه العالم لكي يخاصم ويضج ويخيف.

انه يجد نشوة في حديثه عن معاداة العالم له، لا يجد مثلها في صداقة العالم له... انه لا يرضيه ان تحدث الأمور كما يريد... انه يصر على ان تحدث باسلوب ضاج، متحد، عنيف، وان تحدث بأمره هو... انه ليس المطلوب ان تحدث الأشياء، ان المطلوب ان يكون هو محدثها... ليس المطلوب فقط ان يأخذ، ان المطلوب ان يثير ويخيف وينتصر كجبار قاهر. انه يريد ان يأخذ اغتصابا... لا ان يأخذ وكفى.

وايهما افضل عنده... ان يطالب، ام ان يأخذ...؟

انه لو خيّر بين الأخذ بلا مطالبة وبين المطالبة بلا اخذ، لكان من الاهانة لاخلاقه الشك فيما سوف يختار. ولعله احيانا يفضل المطالبة بلا اخذ، على الاخذ بالمطالبة.

انه يبحث عن المشاكل لا عن الحلول... انه اذا تنازل له خصومه عن اية مشكلة اخترعها هو، فانه لا يلبث ان يخترع لهم حشودا من المشاكل... انه دائما يبحث عن الخصوم. ان افضل الخصوم عنده هم الذين يعطونه الفرصة ليكون في خصام دائم. ان شر الخصوم هم الذين يستطيعون ان يعالجوا اسباب الخصام معه. ان خصومه لا تحددهم صفاتهم... انه ليس له خصوم بالفكرة، انه يخاصم لأنه لا بد ان يعيش في مبارزة دائمة... في احداث.

لا يطيق ان يتحول الناس الى اصدقاء له، بل الى اهداف سيئة ليشغل اجهزته بمحاربتها ولعنها. افضل الأشياء عنده ان يكون خصومه سيئين...

سيئين جدا ليسعد بالتشنيع عليهم. انه يمقت السلام والصداقات. ان محاولة ارضائه أو اسكاته بالتنازل له أو باعطائه ما يريد افساد له. ان الذين يتنازلون له، أو يستسلمون لمطالبه ومشيئته، ليخلقوا منه صديقا أو مسالما أو متعاونا، يثيرون شهوته اكثر.

هو يختلق الاحداث ويدعيها، اذا لم تأت إليه عفوا... انه قد يدبر المؤامرات ضد نفسه... انه دائما يبحث عن الدوي ولو بالتآمر ضد نفسه. انه من المحال ان يفهم الآخرون كيف يرضونه، انه اذا اقلقهم واخافهم وهدد السلام، حاولوا ان يدفعوا هذا الخطر، ظانين ان له مطالب معينة كسائر البشر، يرضى ويقنع ويسالم اذا ظفر بها، فيسلمون له هذه المطالب... ولكن كم تأخذهم الدهشة حينما يجدونه بعد ذلك اشد صخبا ولجاجا وشهوة في المخاصمة.

ان ارضاء الدكتاتور محال لأنه لا يستطيع إلا ان يتحرك، ان يعادي ويهاجم... انه لو اراد بصدق ان يهادن ويسالم لما استطاع. انه لا يعترف بالحدود، انه لا يقف عند حد، ان حدوده هي حدود شهوته وقدرته. انه لا بد ان يزحف ليتقدم أو يتدمر. انه دائما عقدة دولية... انه خفقان دولي مهما كان صغيرا... انه احد امراض القلب الدولية.

وكما انه لا يحارب لهدف ولا لمطلب معلوم، كذلك لا يحارب دفاعا عن نفسه ولا عن جماهيره. انه يحارب لأنه لا يستطيع إلا ان يحارب. انه لهذا لا بد ان يسير في طريق الهلاك أو طريق النصر، في طريق النصر الذي تختلط اسبابه بأسباب الهزيمة.

ان شر ما في الدكتاتور انه لا شفاء له، انه اما ان يبقى بأمراضه، واما ان يذهب بها أو تذهب به.

انه لا يحتفظ لأحد بحب أو اخلاص أو احترام أو عهد. انه يعامل انصاره

واصدقاءه وكل احد، كما يعامل الأشياء... انه يشعر كشعوره نحوها، لا بود، ولا بتقدير، ولا باعتراف، ولكن باحتياج وضرورة، ثم يلقي وراء شـــعوره. الحب، حب الناس والأشياء ابعد العواطف عنه. ان علاقته بأي شيء هي علاقة افتراس.

*

انه فاجر الى ابعد الحدود التي يستطيع ان يكون بها فاجرا. ليس لفجـــوره حدود سوى حدود قدرته. ليس له حدود من اخلاقه.

الصدق والشرف والمواثيق والاتفاقات والصداقات لا تعني عنده اكثر مـــن ان يوقعها ويخطب بها.

الكذب والخيانة، منهاجان مرعبان في قوته ونظامه.

الكذب والخيانة، فلسفة وغريزة في حياة كل دكتاتور.

لعله يحتقر نفسه لو لم يكذب ويغدر.

لعله لا يفهم كيف ولا لماذا، لا يكون غادرا أو كذابا.

اذا لم يكذب ويغدر، فبماذا يمتاز على الآخرين.

انه حينئذ يفقد اعظم مزاياه، اقوى اسلحته... انه حينئذ يفقد كل سـعادته انه يفقد كل ما يهبه البريق والدوي والروعة.

ان الغدر والكذب، هما سحر كل دكتاتور، هما الدعاية الدولية له، همـــا الاعلان اليومي عنه، هما رواية التاريخ له وعنه.

انه لا يستطيع ان يكون غير متناقض، انه يمدح الشيء ويذمه... انه يـــذم الشيء ويفاخر بفعله... ان يتنقل بين المتناقضات في مهرجانات من الدعايـــة والاعلان... انه يعبد الشيطان ويلعنه... يمتدح الملاك ويصلبه... انه يكتـــب الدستور ويطلق الرصاص على من ينادون به... انه يدعو الى الحرية ويعـــاقب

من يصدقونه... انه يمجد الكرامة ويسحبها من السوق... انه يقدس اسم الشعب ويحتقر ارادته.

انه يفعل جميع الاخطاء، واضعا كل مكبرات الصوت في الطرقات للثناء على اخطائه، فاذا فعل خصومه واحدة منهم ارسل عليهم كل كلابه.

انه لا يحترم عقل الجماهير، ولا يخشى ذكاءها.

انه لا يؤمن بالمنطق ولا بالشرف، بل بالدعاية... ان الدعاية عنده سلاح رهيب... انها سلاح يرصد له كل شيء... انها سلاح يعتمد عليه لسحق جميع الاعداء. ان الدعاية في تقديره، مجموعة شريرة من الاكاذيب والاشاعات والسباب والتكرار والاصرار والاغتيال والرشوة والبذاءات والمؤامرات. ان الدعاية عند الدكتاتور تفوق السقوط... ان الدعاية عنده ليست بحثا عن قيمة، بل هي بحث عن اسلوب وتعبير. ان الأسلوب والتعبير الوقحين بلا قيمة، لأفضل عنده من القيمة العظيمة، اذا كان الأسلوب والتعبير مهذبين. ان الدكتاتور لا يستطيع ان يتصور ان الدعاية قد تكون مهذبة، ان الوقاحة ليست شيئا يصيب الدعاية... بل هي الدعاية.

ان الدعاية الكتاتورية تتفوق دائما على دعايات خصومها، انها تتفوق لأنها استهواء ضخم يتركز على فراغ مخيف... انها تتفوق لأنها قذائف هائلة، تظل تتهاوى بلا أي قيد من قيود الشرف أو التقاليد أو الصدق، على اضعف المواقع واكثرها لهفة وانتظارا للفاتحين. ليست الدعاية الدكتاتورية عملا من اعمال الإنسان، انها من نوع القاء الحجارة الثقيلة، انها لا تحترم التاريخ ولا تخشاه، انها لا تحترم المنطق ولا تعرفه.

ان التخويف هو المعنى الكبير في دعاية الدكتاتور. التخويف من كل شيء وبكل شيء.

ان غريزة الخوف هي اقوى واشمل غريزة تستثير الجماعات وتستهلك احاسيسها.

ان الخوف في الجماهير اقوى وافعل من الحب والعقل والقانون ومن كل شيء. وانه عن الخوف يتولد الحقد. وان الخوف والحقد هما اعظم قوة شريرة حركت التاريخ... دفعت بالجماعات الى التخلي عن جميع الفضائل الإنسانية، لتفعل شر ضروب الهوس والظلم والغباء... دفعت بها تحت اقدام اعظم واقسى المجانين والفاتحين في التاريخ.

ان الدكتاتور يلقي بثقل دعايته كله على مخاوف جماهيره واحقادها، فيملؤها بالاعداء المتربصين، ويملؤها بمؤامراتهم وخياناتهم التي لا تنتهي... انه يضيق عليها الجو بالأشباح والأبالسة... انه يظل يحدثها باعلى الضجيج عن اخطار هذه الأشباح والأبالسة... يحدثها عن الخطط الكبيرة التي توضع في الظلام لاغتصاب الحياة والسعادة من الجماهير، وللقضاء على منقذها العظيم... يحدثها عن الاستعدادات المضادة، التي يحكم وضعها لتحقيق الانتصارات التي لا ريب فيها.

الخائفون جدا لا يستطيعون ان يروا الشمس، ان يبصروا ما في الطريق الذي يساقون فيه. انه لا يحتمل ان يقاوموا أو يعارضوا أو يفهموا. انهم عميان... انهم لا يملكون مقاومة أو رفضا... انهم لا يفهمون... انهم لا يرون... انهم لا يستطيعون.

ما اسهل انقياد الخائف، ما اعجزه عن رؤية ما امامه.

الخائفون جدا لا يستطيعون ان يكونوا اذكياء ولا رافضين لأي اسلوب من اساليب الغباء.

ان الخائف وعاء مفتوح لاستقبال كل الحماقات والغباوات... لاستقبال

كل الهوان والتحقير... لاستقبال كل المجانين والطغاة والانبياء الكذبة.

لعل اكثر مخاوف البشر التاريخية، انما صنعها هؤلاء الذين ابتكروا الخوف من الجحيم والشيطان والآلهة.

ان اعظم افعالنا منبثق عن احقر مشاعرنا.

ولماذا التفكير

الدكتاتور لا يطيق المعارضة، ان من يعارضون الدكتاتور هم خونة، واعداء، ولصوص، وفاسدون، ومتآمرون واشرار. انه ليس لهم إلا ان يموتوا كما تموت الكلاب المريضة.

ان كل من لا يعبد الدكتاتور ولا يؤمن بعصمته فهو زنديق، فهو متآمر، يجب ان يموت. ان موته احترام للحياة... تحية للتاريخ. انه يجب ان يموت... ان موته هتاف للدكتاتور.

انه لا يطيق النقد والتفكير. ان الذين ينقدون ويفكرون لا بد ان يكونوا عملاء للاعداء، لا بد ان يكونوا من بقايا الظلام البعيد، ان التفكير، ان النقد، كفر بالقومية. انهما خيانة عقلية... انهما تفتيت للقوى... انهما تردد يجب ان يقضى عليه بلا شفقة.

لماذا التفكير... لماذا النقد...؟

ان الزعامة المطلقة قد اغنت عن كل ذلك بموهبتها، بالهامها الذي لا يخطيء. ان الحاجة الى الهتاف والتصفيق اعظم جدا من الحاجة الى النقد أو التفكير. ان الدكتاتورية صلوات، لا معرفة... ايمان لا تفكير... توتر لا اتوان. الدكتاتورية فترة افتضاح للتاريخ، افتضاح لموهبة التاريخ.

والذكاء، لماذا الذكاء...؟

انه لعنة انسانية لأنه يضعف الايمان ويضعف الرغبة في الاتباع. ان الذكاء

هو دائما عدو الزعامة اللدود... انه دائما زندقة وطنية.

ان الذكاء هو العدو الذي يتجمع فيه كل اعداء الدكتاتور. ان كل اعـداء الدكتاتور يتعلمون عداوتهم له من الذكاء. ان الذكاء هـو العـين القاتلـة، الشريرة، البذيئة، الوقحة، المقتحمة لحياة الدكتاتور... لكل ابعاد نفسه... لكل ظلماتها، لترى بوقاحة. بجرأة... بلا خوف من الغثيان من هول المنظر، كـل تشوهاتها، كل اوحالها.

ياللهول ما ابشع ما يرى الذكاء في نفس الدكتاتور.

والشك...

الا لعنة الله على من يشكون. ان الشك يضعف الغرور والتعصـب، وان الغرور والتعصب هما دائما جناحا الدكتاتور في تحليقه الى آفاقه المظلمة.

اما الخلاف...

فلا يوجد ما هو احق منه بالنقمة والعقوبة. اليس هو خصم الوحدانيـة... اليس نقيض الوحدانية المحتوم؟

الدكتاتور فاجعة انسانية، فاجعة غير معقولة. انه يعشـق ذاتـه... انـه يعبدها... انه يراها الحق المطلق، يراها كل شيء. انه يرى كل ما سوى ذاتـه هو الباطل، هو الهباء.

ان كل الناس مخطئون، كلهم آثمون، خونة، صغار...

انه هو وحده الراشد، النبيل، الكبير، المخلص...

انه هو وحده القوي المنتصر...

ان له وحده الدوام والمجد في الأرض وفي الأعالي...

انه دائما مصاب بجنون لم يجد البشر له تعريفا... بجنون لم يجد البشر لـه علاجا.

انه يريد ان يهدم كل احد، ان يمسخ ويلوث جميع البشر... حتى التاريخ... حتى الأموات لا يريد ان يوجدوا، أو يذكروا، ان ينسب اليـــهم خـــير لئـــلا ينافسوه أو يشاركوه في ابداع الحياة والحضارة، وفي صياغة التاريخ.

انه يريد ان يقتل، ان يخفي شيئا.

انه يغار من الآثار، من التاريخ، من الانهار، لأنها وجدت قبله.

انه يغضب من مشاعر الجماهير الموزعة بينه وبين التاريخ، وبين الآباء... انه يريدها كلها له وحده.

*

انه ليحزنه ويثيره ان يطيل الناس النظر الى الشمس والقمر... ان ضوءهمـــا قد يغطي على ضيائه، قد يشغل النظر اليهما عن النظر اليه.

قد يرى الناظرون الى الشمس والقمر، ان جمالهما مســـاو لجمالـــه، أو ان جماله ليس اكبر كثيرا من جمالهما.

قد يرى الناظرون الى الشمس والقمر، ان جمال الدكتاتور ليس وحـــده... ليس متفردا... قد يرون ان نوره ليس وحده... ليس متفردا... قد يشـــغلون بهما عنه، قد يفتنون بهما فلا يرون كل الفتنة فيه. انه لهذا يود ان يحرم الشمس والقمر، ان يعاقب على النظر اليهما، ان يقتلهما، ان يموتا... انه يود.

انه يكره النجوم لأنها تقاسمه اهتمام الجماهير لأنها صاعدة، لأن الصعود لـــه وحده.

*

انه احيانا غاضب على الله، لانه يقاسمه ايمان الناس، يقاسمه حبهم وولاءهم.

ان كل دكتاتور لا بد ان يضيق بالمؤمنين بالله، ان ينكل بهم، ليس لأنـــه ملحد، ليس لأنهم رجعيون، بل لأنهم ينصرفون عنه بايمانهم وولائهم. انـــه لا

يقبل من المؤمنين إلا من يحولون الله الى رعية من رعاياه، إلا من يحولون الله الى هتاف وتفاسير، وشهادة زور لشروره.

ان الله في عهد كل دكتاتور ليس إلا معلما لمزايا الدكتاتور، محللا لمظالمه.

ان الله لا يستطيع ان يكون منافسا للدكتاتور، انه لا يستطيع ان يكون شريكا صغيرا له، شريكا مغبونا مقهورا.

ان الله لا بد ان يكون مبايعا للدكتاتور، لكي يكون مسموحا له بالبقاء في دولته، ضيفا ذليلا.

ان الله لا يهون في أي عهد مثلما يهون في عهد يحكمه دكتاتور، انه حينئذ يتحول الى ارخص واغبى هتاف لآثام الدكتاتور.

اعتداء على الرجولة

ان الدكتاتور يكره الأشياء المرتفعة، يكره الرؤوس المرتفعة، والأسماء المرتفعة، والعقول المرتفعة، والأخلاق المرتفعة والتاريخ المرتفع. انه يكره كل انواع السماوات، وكل معاني السمو، انه يريد اشياء متساوية، اناسا متساوين، اخلاقا متساوية، ارضا متساوية. انه يريد اشياء متساوية. انه يريد الأشياء المنخفضة. انه يحارب الرؤوس والشرفات والقمم. انه يعمل على تذويب الفوارق الذهنية والثقافية بين الناس. انه لا يريد اذكياء ولا اقوياء ولا من يقاومون. انه يريد ركوعا، غباء، ومحاريب عالية جدا، فيها اناس منخفضون جدا.

ان الدكتاتور لا يبحث عن الأفضل. انه يبحث عن الاضخم، ان هرما واحدا كبيرا لأفضل لديه من ملايين الاهرامات الضغرى. انه لا يبحث عما ينفع الناس ولكن عما يبهرهم.

ان الأشياء المدوية هي دائما العابه المختارة. قد تكون الحرب والمبارزة

الدائمة مع الخصوم، هي اخطر اساليبه في البحث عن هذه الأشياء المدوية.

ايها الدوي، كم انت جبان... كم انت قاتل... كم انت سارق. ايـــها الدوي... لماذا انت ساحر...؟

*

الدكتاتور اله، مجنون، طفل.

ان اشياءه هي اجمل الأشياء، هي اقوى الأشياء، هي انبلـــها. ان خططـــه وجيوشه وافكاره وانتصاراته واتباعه ورعاياه، هي اقوى وافضل وانزه من كل الجيوش والخطط والأفكار والانتصارات والرعايا والأتباع.

انه لا يخطيء، ولا يضعف، ولا يهزم. ان خصومه لا يهتدون ولا ينتصرون ولا يقوون.

ان الانتصارات مثل الهزائم، كلتاهما تزيد جنونه حماسا... ان هذه تغريـــه، وان تلك تهيجه.

لقد ضاعت اعظم جهود البشر في تشييد القبور والقصور والمعابد والتماثيل والميادين، وفي هدم المدن وانشـــائها، وفي اعـــداد الجيـــوش والاحتفـــالات والاستعراضات وفي الدعاية والخطب واقامة الزينـــات امـــام المواكـــب وفي المشروعات الدعائية والامور الاخرى التي لا يقصد بها إلا الارضـــاء لرغبـــة المريض الكبير في بحثه عن الضخامة والاثارة، عما يذل الجماهـــير ويبـــهرها ويقهرها، عما يحوله الى دوي.

حتى العلم، لقد اخضع لهذه الرغبة في الطغاة... حتى العلم لقد اخضع لمـــا يبهر لا لما ينفع... حتى العلم، لقد حول الى دوي للاطفال الكبار.

ولم يزل الطغاة في جميع العصور يأكلون لحوم الإنسان وابداعه. لم يزالـــوا يحولون كل حياته الى غذاء لشهواتهم العدوانية. حتى الحكام الفضـــلاء ظلـــوا

يفعلون ذلك ايضا. وليست الحروب والمذاهب والوطنية العدوانية والمشاريع الكبرى، ليست كل هذه إلا عمليات زفاف لا تنتهي لشهوات الطغاة، وايضا لشهوات الزعماء الفضلاء.

قد تتحول روح الدولة الى دكتاتور. وإذن، فكل الدول حتى الدول الديمقراطية قد تتخلق ببعض اخلاق الدكتاتور، قد تتقمص بعض صفاته.

ان الجماعة، اية جماعة، كيفما كان مستواها الحضاري والنفسي، لا بد ان تتحول على نحو ما، الى موائد وتعبيرات للقادرين، تقتات بها شهواتهم، ويعبرون بها عن ذواتهم الخاصة، وعما فيها من تشوهات وجراح وضعف. فالطغاة، بل وحتى الحكام والزعماء الطيبون، لا يبحثون عن كرامة شعوبهم أو رخائها، حينما يحاولون ان يعطوها المجد أو الهوان... انهم يتغذون بها. ان التغذي بالشعوب هي المهنة الدائمة التي يمارسها كل الزعماء والقادة، حتى القادة والزعماء الصالحون المتواضعون. ان كل البشر آكلون للحوم البشر. ان كل انسان يتغذى بالانسان. ان كل العلاقات الاجتماعية، ان كل العلاقات بين البشر، ليست إلا اساليب مختلفة من اساليب تغذي البشر بالبشر. ان كل البشر يتغذون بالبشر.

ان ابشع ما في الدكتاتور انه اعتداء على الرجولة... انه يسحق رجولة الرجال... انه يحطم شرفهم وكبرياءهم... انه يحول المجتمع الى قطعان من الخصيان الفاقدين للفحولة العقلية والاخلاقية... انه يعفيهم من معاناة الرفض والذكاء والشرف... انه يعفيهم من معاناة الغضب واستبشاع البشاعات... ان الدكتاتور يمتص من مجتمعه كل هموم الكبرياء.

ان مجتمع الدكتاتور يفقد كل كبريائه... انه يفقد شعوره بأنه قد فقد شيئا من كبريائه، بل ان هناك شيئا يمكن ان يفقد. ان الدكتاتور يجعل مجتمعه لا

يشعر انه قد فقد شيئا، مهما فقد كل شيء.

واذا لم يتحول الدكتاتور الى خراب عالمي، فالسبب في ذلك ضعفه، لا حبه للانسانية ولا احترامه لها، ولا حصانته العقلية، ولا تقديره للامور تقديرا ذكيا أو سويا. ان الدكتاتور قد يعجز عن ان يكون خرابا عالميا أو احزانا عالميـة... انه يشتهي، ولكنه قد يعجز.

تعرّ امام القتلى

ان اعلى مراحل الطغيان للدكتاتور، واطغى مظاهراته البذيئة، ان يصـل في فحشه الى المرحلة التي يجرؤ فيها على ان يعلن نقده لنفسه.

ان اعلان الدكتاتور نقده لنفسه بذاءة عجيبة. ان ذلك اسلوب منكر مـن الكبرياء والتباهي والخداع والوقاحة. ان ذلك هو الصورة النهائية للفراغ مـن عملية الاذلال للمجتمع وقهره وسلبه كل انواع المقاومة والاحترام للنفس.

ان الدكتاتور حينما يعلن نقده لنفسه كأنه يريد ان يقول للمجتمع:

انت مقهور ذليل... انت غير موجود... انت اقل واضعف واجهل من ان تعرف ما يجب نقده في زعيمك أو تجرؤ عليه...

انت اعمى... انت... موات... انت شيء... انت لست انسانا...

انت لا يهاب التعري امامك...

انت اعمى... انت موات... انت شيء... انت لست انسانا...

وانا... انا الزعيم الاله، قوي، وعادل، وشجاع وحر الى المـدى الـذي يجعلني انا الشيء، وانا الثائر على الشيء... انا الوجه وانا المرآة... انا الاله وانا المصلح للاله.

انه لا يوجد شعب يقتات بالهوان مثل شعب يمن عليه حاكمه بنقده لذاته، بتظاهره بذلك، بينما يحرم على الشعب نفسه ان ينظر الى هذا الحاكم بكـل

بصره.

وكم هو قبيح وتواضع مهين، لمن يوجه إليه هذا التواضع ان يلعن الحـــاكم نفسه، ثم لا يباح للشعب ان يلعنه اذا كان لا بد من لعنه.

ان ابشع طغيان في العالم ان يقول الحاكم عن نفسه شيئا، يرفض بل يعاقب ان يقوله عنه الاخرون. حتى الذنوب التي يعترف بها لا يـــأذن لغـــيره بـــأن يذكروها.

ان الحاكم الذي ينقد نفسه، ثم يعاقب من ينقدونه، لهو مثل من يتعـــرى في الطريق العام، ويعلن تعريه، ثم يفقأ عيون من ينظرون اليه، أو يفقأ عيون كـــل الناس لئلا ينظروا اليه.

ان نقد الطاغية لنفسه، اسلوب لئيم مـــن اســـاليب التألـــه والاســـتهزاء والتضليل... انه ضرب من التحدي لأخلاق المجتمع، لرجولته، لذكائه... انـــه ضرب من الحديث عن التشوهات والعاهات الداخلية، تعبيرا عن الرغبـــة في الاثارة والتحقير والاستهزاء، لا عن الرغبة في التطهر أو العلاج أو التوبـــة أو الصدق... انه ليس اسلوب صادق متطهر، انه اسلوب فاجر ساخر.

ان اعلان النقد للذات في كل حالاته، ليس إلا محاولة للثناء على الـــذات، هذا في الناس العاديين، اما الطغاة حينما ينقدون انفسهم، فانهم يعنون ما هـــو اكثر جدا من الثناء على النفس. انهم يحاولون تســـويغ اخطائـــهم الكبـــيرة، والاعتذار عنها بالاعتراف باخطاء صغيرة، هي في حسابهم حسنات كبـــيرة، دون ان ينووا التوبة منها. انهم يحاولون بهذا الاعتراف ان يحولوا جميع ســـيئاتهم الى مزايا يشكرون على الاستمساك بها.

انهم يعترفون حيث لا يمكن الانكار، ليحولوا هذا الاعتراف الى انكار. انـــه اعتراف يعني اوقح اساليب الانكار. انهم يريدون ان يقـــرروا انهـــم موازيـــن

انفسهم... انهم مصححوها، فهم لا يحتاجون الى مصححين لأنفسهم من خارج انفسهم. ان الاعتراف هو دائما محاولة لتسويغ الذنب. انه ليس محاولة للاقلاع عنه. ان الذي يعترف لا يعني ان يشهر بنفسه، أو ان يعاقبها، أو ان ينظفها أو ان يقول الحقيقة.

ان الدكتاتور حينما يعترف ضد نفسه، انما يعني الاعتراف ضد رجاله، ومجتمعه، لا ضد نفسه. انه مثل الاله الذي يلوم عبيده اذا ضعفوا، مع انه هو الذي خلقهم ضعفاء.

ان الدكتاتور لا يعني حينما يتحدث عن اخطائه، إلا ان يتحدث عن اخطاء مجتمعه، عن اخطاء التاريخ، عن اخطاء الكون. فهو انما يمجد نفسه - باسلوب المتواضع - حينما يتهمها بذنوب غيرها. انه لثقته بنفسه يتهمها بذنوب الناس، والتاريخ، والكون، والحياة. انه بذيء... بذيء.

عاشق العار

ان الدكتاتور ليجد سعادة عظمى في ان يأمر اجهزته بان تتحدث بمبالغات حمقاء عن هزائم وآلام وطنه وقومه التاريخية، في ان يتحدث ويأمر بالتحدث كذلك عن زعماء وطنه السالفين الذين هزمهم الأعداء، أو هزمهم فسادهم وضعفهم أو ظروفهم، فركبهم الهوان، وذهبوا دون ان يكسبوا أي خير أو مجد لوطنهم، أو لأنفسهم. انه يريد بهذا التحدث ان يتفرد وحده بانتصارات الحياة وامجادها. يريد ان يقتنع ويقنع الدنيا كلها، بان التاريخ العظيم انما يريد ان يقتنع ويقنع كل الدنيا، انه هو الخالق الأول والخالق وحده لأمجاد قومه ووطنه، لأمجاد التاريخ كله.

ان اعظم ما يفسد على الدكتاتور رضاه عن نفسه، ويفوت عليه شهوته بالتفرد، ان يكون له شركاء في أي مجد قد مضى أو مجد قد يأتي، ان هذه علة

اصيلة وبعيدة المدى في اعماق نفس أي دكتاتور.

ان الدكتاتور لا يمقت احدا مثلما يمقت من يتحدثون عن مزايا زعماء كانوا قبله. انه لا يرضى عن شيء مثل رضاه عمن يهدمون كل الماضين. والمنافقون المشرفون على اجهزته الدعائية يعرفون هذا الخلق في الدكتاتور، فيستجيبون له بكل بذاءتهم.

ان الدكتاتور يعشق التاريخ الذليل المهزوم الملوث. انه يكره التاريخ النظيف العزيز الكريم... ان ذلك تحقير له، ورفض لتفرده... انه لهذا لا بد ان يزور ما كان... انه قد يود ان يحرق جميع الوثائق التي تناقض هذه الغاية، اذا لم يجد وسيلة اخرى... انه يبدأ به التاريخ، ان يبدأ به الإنسان، ان تبدأ به كل عبقرية... انه يريد ان يكون البدء.

ان الدكتاتور انسان عاشق لعار التاريخ... انه يريد ان يكون كل شيء فيه، فضائح وهوانا، زخيانة وعفونة... انه يريد ان يكون وحده المعالج المقوم له، المدعي لأبوته وامومته ولكل نسبه. ان آفة كل دكتاتور مهما كان صغيرا وضئيلا انه يريد ان يكون الطبيب العالمي للتاريخ... انه يريد ان يكون الوالد، والمولد، والمولود... انه يريد ان يكون الزوج، والعاشق والمعشوق والاب والابن وروح القدس... انه يريد ان يعيش في زفاف دائم... انه يريد ان تدفع تكاليف زفافه من رخاء الإنسان، من حريته، من سلامه، من دمه، من ذكائه... انه يريد زفافا يتألف موكبه من الخوف والتهديد، والضغط والتهريج، والكذب والاستعراضات، والحرمان، ومن الحرب احيانا، ومن التحقير لكل من كانوا، ولكل ما كان. انه في حسابه لا يكون عظيما إلا اذا كان كل من كان قبله حقيرا... ان مجده يعني حقارة من سواه... ان حقارة من سواه تعني المجد

له... انه الكائن الفظيع الذي لا يكون جميلا إلا اذا كانت كل الوجوه الاخرى دميمة.

... اكبر من الكلمات الشريرة

ان الدكتاتور هو اشد الناس تعاسة حين لا يجد معارك يخوضها، ولا أعداء يتغذى بعداوتهم والتشنيع عليهم. ان الدكتاتور لا يسعد بشيء يملكه... حتى الانتصارات الكبيرة لا تستطيع ان تسعده، لا تستطيع ان تشفيه من همومه العدوانية، من اشواقه الدائمة الى المعارك والخصومات. ان الانتصارات قد تعذبه. قد تعذبه الانتصارات كما تعذبه الهزائم.

ان الدكتاتور لا يقاتل أو يعادي ليكسب معركة، أو ليهزم خصما. انه يقاتل ويعادي نفسه. انه يقاتل ويعادي اشباحا تسكن اعماقه. ان انتصاراته في معاركه وعلى خصومه، لا تقهر اشباحه النفسية، انها تزيدها ضراوة وتوحشا واكتئابا. ان في كل نفس اشباحا تسكنها وتعذبها، ولكن الاشباح التي تسكن نفس الدكتاتور لا مثيل لها في عددها ولا في وحشية اخلاقها.

ان آلام البشر وهمومهم وتجاربهم المريرة، وكل نقائصهم، قد تتجمع في نفس انسان ما، تجمعا شريرا لتشوهها... لتملأها بالفزع والقسوة والحقد والمرارة والفظاظة وبشهوة الحروب والمخاصمات غير المتوقرة. وحينئذ تحاول هذه النفس، ان تخفف من عذابها بتوجيه ابلستها الى الخارج، لتقذف بهم في اية معركة خارجية، لتقذف بهم دون أي هدف خارجي لتحارب، لتخاصم، لتنتصر أو تنهزم، ثم لتظل كما هي وفي كل الحالات، عدوانية، حاقدة، ساخطة، تبحث عن المغامرات والعداوات... تبحث عن الهموم والآلام.

ان أي دكتاتور، لا يتعامل مع الاحداث التي يعيش فيها، أو التي يصنعها. انه انما يتعامل مع الاشباح المتوحشة التي تعيش فيه، التي تنهش كبرياءه وافكاره

وهواجسه، التي تضطره الى ان يحاول التخلص منها، وتحويل ضغطها عليه، الى العالم الخارجي حوله لتعذبه، لتعرضه لأبشع الاخطار والآلام.

ليست الاحداث التي يصنعها أو يعيشها الدكتاتور إلا طعاما يقدمه لهذه الاشباح المتحاربة داخل ذاته، لتكف عن افتراسه. انه يرشو اشباحه بالحروب، بالخصومات، بالحماقات... انه يشغلها بذلك لكي تكف عن تعذيبه، لكي ترفق به. ان في داخله كل العذاب.

حتى الاصلاح والانتصار، ليسا مطلبين مقصودين له. انهما تعبيران غير مهذبين من تعبيراته الفرارية عن حالته النفسية المزدحمة بالشرور والآلام.

ان القاء القنابل على ابو مدينة جميلة، لا يعني في حساب الدكتاتور وفي ارادته التعبير عن نفسه، إلا ما يعنيه انشاء الحدائق في الميادين العامة.

ان الدكتاتور كائن قد تجمعت الابالسة في نفسه تجمعا خبيثا، فكل تحركاته وحماقاته، ليست إلا محاولة لنفض هذه الابالسة، والالقاء بها على الناس، على المذاهب والنظريات وعلى الاطفال الابرياء...

ان كل دكتاتور شقي في نفسه، انه لهذا يصنع الشقاء للآخرين...

لقد تجمعت في نفس الدكتاتور شحنات هائلة من الانفعالات الاليمة... لقد تحولت هذه الشحنات الى وحوش ضارية. انه محتاج حتما الى اطلاقها في كل الاتجاهات، وانها هي كذلك لا بد ان تنطلق، حتى ولو حاول ضبطها، حتى ولو وضعها في اقوى الاغلال.

ليس الذي يحتاج إليه الدكتاتور ليسعد، ويشعر بالرضا والأمان هو الانتصارات. ان الذي يحتاج إليه هو السلام مع نفسه. ان الخطر عليه ومنه، هو ان مشاكله في داخله. انه يظل دائما جائعا، مهما التهم من الطعام... من الدماء... من الآلام... من المشاكل.

انه الحيوان العجيب الذي يشتد جوعه بالتغذي... انه الكائن الذي لا يشبع لا من انتصارات ولا من هزائم.

واذا كان جميع الناس لا يتعاملون مع الاحداث، ولكن مع اشباحهم، فمشكلة كل دكتاتور ان اشباحه ليست كالأشباح... ليست ظروفها مثل ظروفها... ليست اخلاقها مثل اخلاقها... ليس عذابها مثل عذابها... ليست اسلحتها مثل اسلحتها. انه يملك في يديه كل الوسائل القوية التي يستطيع ان يسلح بها هذه الاشباح على اعلى المستويات، ويجعلها قادرة على فعل جميع الحماقات.

ان الدكتاتور عقاب لنفسه، قبل ان يصبح عقابا للمجتمع. ان المجتمع الذي يشقى به اعظم شقاء، ليس اكثر منه شقاء بنفسه. ان كل ما في المجتمع من شقاء، ليس إلا بعض ما في الدكتاتور من احتمالات الشقاء، من القدرة عليه، من الارادة له، من التلاؤم معه.

ان الدكتاتور لا يستطيع ان يبتسم من داخله، ان يرضى، أو يشعر بالاطمئنان، حتى احلامه لن تكون سلاما. انها لا بد ان تكون احلاما متوحشة. ان فيها دماء وتدميرا وسقوطا ومؤامرات. ان ابتساماته ليست إلا نوعا من الانين والكآبة والوحشية. ان الوحشية التي وراء ابتساماته هي نفس الوحشية التي وراء كآباته. انه لا يستطيع ان يبتسم. ان الابتسام هو تحية للاشياء وللآخرين، وهو لا يستطيع ان يحيي شيئا. ان في اعصابه كل حروب الدنيا، كل مخاوفها، كل همومها.

انه ظالم... انه أيضاً مظلوم.

انه معذب... انه أيضاً متعذب.

انه مخيف... انه اكثر من ذلك خائف.

ان جميع صيدليات العالم واكتشافاته الطبية والعلمية، لا تستطيع ان تشـفيه من آلامه الذاتية التي يتداوى منها بخلق الاحداث والازمات الاليمة.

ان اعماله تجيء كانفجارات خبيثة يعاني منها، لا كولادة يستريح بعدهـا، يجد فيها الحب والامل والبهجة والمستقبل.

ان التكوين التاريخي والنفسي للدكتاتور، لا بد ان يكون تكوينـا اليمـا موحشا. لهذا لا بد ان تكون صناعة الحقد والألم والتغذي بهما احدى مواهبـه التي يتفوق فيها، احدى لذاته المفترسة. ان اسوأ عالم لدى أي دكتاتور هـو العالم الذي تمتنع فيه الحروب والمؤامرات والبغضاء والعذاب. انه لو وجد مثـل هذا العالم لمات فيه الدكتاتور مختنقا، كما تموت اية حشرة اذا لم تجد ظروفـها الملائمة.

ان الدكتاتور هو الحشرة العجيبة، والحشرة التي تتغذى بالحروب وبالتهديد بها، بالمخاصمات، بالبغضاء، بالآلام والاحقاد... انه الحشرة العجيبة الـتي لا تتغذى بذلك فقط، انها أيضاً تحوله غذاء لكل العالم. ان محصول العالم من هذا الغذاء يزداد كثيرا في عهد الدكتاتور. ان العالم في عهد الدكتاتور يزداد انتاجه من البغضاء والخصومات والاحقاد والآلام... انه يزداد تغذية بذلك.

هل يحب الدكتاتور زوجته...

هل يحب ابناءه... هل يحب نفسه...؟

سؤال تحتاج الاجابة عليه الى وقف.

اما السؤال المضحك فهو ان تسأل : هل يحب شعبه، هل يحب من يعمـل لهم أو بهم.

انه ليس له قلب يتعامل به، ولكن له شهوات غادرة متقلبة.

انه يستطيع ان ينسى انه انسان... ان يضرب بكل قبضته بلا اية معانـاة،

من كانوا اقرب الناس إليه واطوعهم واخلصهم له وان يفتك بهم كأنهم اغـــدر الاعداء. انه لم يحدث ان وفى لأحد من انصاره الى النهاية، دون ان يغـــدر أو يفكر في الغدر.

ما اسوأ حظه، ما اكثر شقاءه لو لم يجد من يغدر بهم.

لقد مات ضميره من كثرة ممارسته الخروج عليه والتعامل ضده... لقـــد طالت انيابه، واظافره من طول ما افترس.

ان خوفه الدائم لانه قوي ومغتصب وساحق، يحوله بالممارسة الى وحش.

ان احساسه نحو الناس مثل احساس العاصفة والزلزال والنيزك نحو من يفتك بهم... انه يعمل كقوة طبيعية لا كمنطق... انه يعمل بقانون الحركة لا بقانون الاخلاق.

لقد ماتت فيه كل مشاعر المعاناة... لقد ماتت فيه كل مواقفها.

لقد تحول داخله الى خراب... الى موت... الى سجون... الى حقد.

انه لم يبق فيه شيء من الإنسان.

*

انه ليس مغرورا ولا انانيا... انه اكبر من ذلك...

انه اكبر من كل الكلمات الشريرة.

يجيء كعلاج، ليبقى كداء

هل الدكتاتور يعطي...؟

اذا كان يعطي فهل ما يعطيه يساوي ما يأخذه...؟

انه يخلق حالة حادة من التوتر والحماس الاحمق... انه يخلق حالة حادة مـن الآمال والرغبة والحركة والتحفز والبريق والرضا عن النفس... انه يخلق كذلك انتصارات مدوية، احيانا... انه يخلق احساسا وطنيا عنيفا، وانه كذلك يحـلول

تغيير ما هو موجود ليصنع منه مخلوقا جديد، ليصبه في صورة متحركة نابضة... انه يحاول ان يحرك الهامد، ان يمنحه الحياة، ان يزين كل الشرفات، ان يضيء كل المنارات، ان يرفع اعلام الدولة فوق مناكب النجوم، ان يزحم جميع المنابر بالخطباء، واضعا في ايديهم السيوف المرهفة، ثم يركب الشمس ويطل من فوقها على العالم ليتحداه ويتهدده ويطالبه بالتسليم والمبايعة، متحدثا عن مولد التاريخ... عن مولد الإنسان... عن مولد الكون العظيم... عن مولد كل شيء عظيم لأنه قد ولد.

ان الدكتاتور يحاول ان يحول الكون كله الى طبول تدق وتدق... في كل مكان هاتفة باسمه وبمجده... تدق فوق النجوم وتحت الارض، وعلى كل اتجاه... تدق في مسامع كل الحاضر وفي مسامع كل الآتي.

ولكن هل في هذا عطاء...؟

اليس نوعا من ارهاق الدورة الدموية... اليس اسراعا بنبضات القلب...؟

ان هذا كله استهلاك، ابشع استهلاك. انه كالخفقان، يرهق الجسم والقلب دون ان ينظم الحياة، أو يهبها القوة. ثم ما هو الثمن الذي يتقاضاه...؟ ما افدح الحساب...!

ان انتصارات الدكتاتور وهزائمه مأخوذة من حسابات الحياة. ان دعاياته الهائلة الباهظة الثمن، ان مظاهراته، ان صهيله، ان مؤامراته، ان مغامراته... ان كل ذلك يدفع من حساب الناس. ان الرصاصة التي يطلقها احد اعوان الدكتاتور على احد المخالفين له في احد البلدان الأخرى، ليدفع الناس ثمنها...

ثم شراء الانصار ورشوهم.

ما افدح الاثمان...

ما ابشع ما يحدث...

ان المقتول يدفع ثمن قتله... ان القتل والدعاية يطلقان على الجماهير، ويؤخذ ثمنها من الجماهير.

ما ابشع... ما انبل هذا.

*

ان الدكتاتورية معناها الاشتباك والتصادم بكل الاشجار، بكل الحجارة. ومعناها البحث عن الخطأ والألم، عن الاثارة والعداوة والخوف والجنون... معناها المبارزة الدائمة... معناها المصارعة مع كل احد، في كل الاوقات.

انه لا وجود ولا بقاء للدكتاتورية من غير عداوة، من غير اشتباك.

ان هذا ثمن باهظ، باهظ. والشعوب وحدها هي التي تسدده... الشعوب هي دائما التي تدفع ثمن الآلهة، وثمن اخطاء الآلهة، وثمن حماقات الآلهة، وثمن احزان الآلهة، وتكاليف زفاف الآلهة.

ما ابشع زفاف الآلهة... ما اغلى ثمنه...

يظل رصيد الدكتاتور من الاعداء والحماقات يتراكم حتى يبلغ النهاية الخطرة. انه لا دكتاتورية بلا نهاية حتى ولو باستنفادها لنفسها. ان الدكتاتورية تستنفد نفسها اكثر واقوى مما يستنفدها اعداؤها. وانتصاراتها وهزائمها سواء في ان لكل منهما ثمنا ندفعه نحن الناس... نحن الذين يصنعون الانتصارات للطغاة، ويصنعون الهزائم لأنفسهم. وفي الحالتين نصنع الا لم والعار لأنفسنا، ولجيراننا وللتاريخ، ونصنع المجد للأصنام.

ان صناعة المجد للأصنام، هي اعظم ما سرق ذكاء الإنسان وسرق عمله.

ان الناس لا يحيون بالانتصار على الناس. انهم يحيون بالانتصار على الطبيعة. والدكتاتورية محاولة فادحة الثمن للانتصار على الناس. انه يوجد انتصار واحد فقط هو ابهظ من الهزيمة، ذلك هو انتصار الدكتاتور. ان البشر لم يدفعوا ثمنا

فادحا مثل الثمن الذي يدفعونه حينما يحولون حياتهم كلها وقودا لطموح احد المجانين. انهم لم يسرقوا سرقة اضخم من ان تنفق جميع احتمالات حياتهم في الدعاية لاسم واحد، حتى المشروعات الانتاجية والاصلاحية تتحول الى دعاية.

الدعاية... دعاية الدكتاتور، شيء رهيب، شيء فاجع، شيء اكثر من الجنون، فيها كل السرقة، كل الحماقات، كل البذاءة، كل البلادة.

يا دعاية الدكتاتور، فيك كل الحقارة، كل التحقير، يا دعاية الدكتاتور.

*

يروع الناس احيانا من الدكتاتور انه لا يسرق اموالا ليحولها الى اسمه.

يروعهم احيانا انه قد يحيا بلا ترف، أي بلا ترف ملك، أي حينما يتحول ترفه الى ترف اله.

وهل للاله ترف... وهل يوجد اكثر ترفا من الآلهة... وهل هناك ترف اعظم من ان تملك كل هذه المعابد، كل هؤلاء العبيد، كل هذه الصلوات والعبادات، كل هذه العداوات باسمها، كل هذا التحدث عنها، والاشتغال بها، وبشهواتها، وهمومها...؟

ان السرقة ليست هي فقط ان تحول اموال الآخرين الى حسابك، فان ذلك هو اصغر السرقات للناس.

ان اقبح السرقات واكبرها هو ان تحول كل جهود البشر، كل اموالهم الى بنوك الدعاية لك، الى الوجوه التي تثبت سلطانك وتعطيك القوة والبقاء والاستعلاء.

ما حاجة الذين يملكون حرية الامتلاك المطلقة الى السرق...؟

ان السرقة نوع من العجز والتحديد. انت قد تسرق اذا كنت لا تملك كل شيء، فالعاجزون والمحتاجون قد يسرقون، اما القادرون على كل شيء فلماذا

يسرقون...؟

قد يكون الترفع عن سرقة المال ضربا من التأله. ان الاله لا يتواضع ليملك مالا... ليكون سارقا... ان السرقة تواضع.

ان الذي تتحول رغبته الى السيطرة، قد يزهد في تملك الأسهم والسندات والعقارات. ان التفكير في حياة الترف ومظاهر شعور بالنقص. ان افجر المتكبرين هو الذي لا يحتاج الى ان يكون انسانا، فيه اضعف الناس ومشاعرهم واحتياجهم... هو الذي تتحول احتياجاته من احتياجات انسان ضال ضعيف، الى احتياجات اله متكبر ساحق. ان البنوك ليست هي وحدها التعبير عن السرقة. ان هناك تعبيرات عن السرقة اقوى من البنوك.

واذا كان الجيش القوي هو اكبر مفاخر الدكتاتور فان هذا الجيش هو اكبر عمليات الامتصاص لحياة الناس، لاعطاء القوة والجبروت والتألق لعدوهم.

ان الدكتاتور يصنع الجيش القوي لحماية نظامه، لهيبته، لا لحماية شعبه.

ان الجيوش كيفما كانت، ليست عملا من اعمال الحياة...

ان الجيوش ضد الحياة، ضد الناس مهما كانت باسمهم...

الحاكم الفاسد يسرق، ام الحاكم الاله فهو فوق السرقة لأن السرقة تحديد وهو مطلق.

الحاكم الفاسد يسرق لنفسه، اما الحاكم الاله فيسرق لمجده... يسرق لمغامراته، لمؤامراته، لطموحه، لحروبه، لدعاياته... يسرق لأحزانه، لمخاوفه، لأحقاده، لعداواته... يسرق ويسرق دون ان يمتليء أو يجد أو يملك. اذن لا بد ان يظل يسرق بلا حدود، بلا اكتفاء، مع تعاظم جوعه وفقره.

ان الفرق بين من يسرق لنفسه، ومن يسرق لمجده، كالفرق بين من يدخل حربا عالمية، ومن يقتل انسانا واحدا. ان ضلال الإنسان قد يرى فيمن يعلن

حربا عالمية بطلا... بينما يرى من يقتل انسانا واحدا، مجرما وعدوا للمجتمع... ان ضلال الإنسان قد يرى في الحاكم الذي يسرق كل شيء لمجده، لشفاء احقاده، للاستجابة لجنون طموحه، للاعلان عن كبريائه وطنية أو مذهبية أو فدائية يستحق عليها العبادة والموت تحت اقدامه.

الحاكم الفاسد يحرم على الشعب ان يقاوم، اما الحاكم الاله فانه يعجز الشعب عن المقاومة...

الحاكم الفاسد قد يسلب الشعب حريته، اما الحاكم الاله فانه يسلب الشعب رغبته بالحرية...

الحاكم الفاسد يكذب، اما الحاكم الاله فانه يعاقبنا، اذا لم نحول كذبه الى صلوات وشعارات وطنية...

الحاكم الفاسد يعاملنا كخصوم، اما الحاكم الاله فانه يتعامل بنا كأننا اشياء...

الحاكم الفاسد يعادي من يعارضون، اما الحاكم الاله فانه يصلب من يفكرون...

الحاكم الفاسد يفقر ويذل بعضا، اما الحاكم الاله فانه يفقرنا ويذلنا جميعا...

*

ان الانتخابات في عهد الدكتاتور ليست سوى عملية بالاكراه للاعتراف بشرعية بقائه...

وان الكذب والادعاء والازمات والمخاوف والاستبداد والمغامرات هي التسويغ الوطني لشرعية مجيء الدكتاتور وشرعية بقائه...

انه يجيء باسم الالم، ويبقى باسم الالم، ليتحول الى مزيد من الالم... انه يجيء كعلاج... ليبقى كداء.

*

ان المصانع والاعمال الانشائية التي تقام في عهد الدكتاتور، لا يراد بها ان تكون مصانع ومنشآت. انه يراد بها ان تكون حرسا دعائيا يحمي الدكتاتور، وتاجا يغطي الآثام الكبيرة التي تجلل رأسه، المجلل بكل معاني العار والوحشية. ولهذا فانها لا تخضع لقانون الربح والخسارة. انها لا تخضع للعمليات الحسابية أو التجارية. انها تخضع لقانون الدعاية مهما خرج على قانون الربح، مهما خرج على القوانين العلمية...

انه لا يسأل: هل هي الحل الافضل وانما يسأل: هل تقوي الدكتاتور... هل تهبه البريق... هل تهبه المجد ومزايا الدعاية...؟

اضخم هجاء للبشر

في النظام الديمقراطي يصل الرجل الى الحكم، أو الى منصب المسؤول، بالانتخابات العامة، أو التصويت الخاص. ان هذا الاسلوب ليس مثاليا. ان فيه نقصا خطيرا. انه يجب ان يضاف إليه شيء آخر، شيء خطير جدا. ان الذي يصعد الى الحكم، أو الى منصب المسؤولية العظمى، يجب إلا يكون مريضا، ولا منحرفا، ولا غبيا، يجب ان يكون سويا، ذاتا، ونفسا، وعقلا وصحة. يجب ان تشرف على التأكد من ذلك هيئة ممتازة جدا من الاطباء وعلماء النفس ومختبري الذكاء، قبل ان يجري عليه التصويت، قبل ان يرتفع الى الحكم، أو الى المنصب الكبير. انه يجب ان يبقى دائما تحت الكشف. ان توقيع الاطباء، وعلماء النفس، ومختبري الذكاء، على صحة الحاكم وصحة المسؤول الاكبر، لأعظم والزم من انتخاب السوق وتصويت البرلمانات واللجان المختلفة. ان

انتخاب هؤلاء الأطباء للحكام والمسؤولين، انبل واوجب من أي انتخـــاب في هذه الدنيا.

ان اصوات الناخبين لا تستطيع ان تتجنب أو تكشف المريض، أو الشاذ أو المنحرف نفسيا أو عقليا أو المصاب بآفة العرض الذاتي، أو بآفــــة الاســـتعلاء القتال. ان هذا من اخطر عيوب التصويت على الحكام. قد تتغـــير اســـاليب التصويت على الحكام في العالم. قد يصبح تصويت اجهزة الكشـــــف علـــى الصحة... على صحة النفس والجسم والتاريخ والارث واجـــراء اختبـــارات الذكاء قبل تصويت السوق. قد يصبح العلماء هم اول من يصوتون للحكام أو ضدهم.

والمشكلة التي هي اكبر خطرا، هي الحكام المرضى الذين يصلون الى الحكم من طريق القفز والتآمر.

نعم تبقى المشكلة هي مشكلة من يقفزون على الحكم باستعمال الســـلاح. ان طبيعة السلاح تتلائم مع المرضى والمتعبين والاغبياء والمنحرفين. ان الســـلاح انسان غير سوي. نعم ان السلاح انسان. انه انسان مريض، بليد، متعب. انـــه أيضاً شرير وعدواني. انه يجتذب المرضى والمنحرفين والاغبياء، وانه ليحولهم الى مرضى واغبياء ومنحرفين.

المشكلة اذن ان هؤلاء لا يمكن التصويت عليهم صحيا أو عقليا باختبارات الذكاء. ان السلاح خصم ابدي للانسان. ان وصول المريض الى الحكم، أو الى المنصب المتعامل بالمجتمع، أو بالوضع الدولي الحساس، ينطوي على احتمـــالات اليمة، وعلى اخطار عالمية ومحلية هائلة.

ان الحاكم المريض، وكذا المعلم المريض، تتحول الامهما وامراضـــــهما الى دول وقيم وقوانين وتعاليم. فاذا حكم أو علم المريض، فالمعنى ان المرض هـــــو

الذي يحكم ويعلم ويضع القوانين. واذا جاء نبي مريض كان المعنى ان مرضا قد جاء ليكون نبوة.

والمرضى والمنحرفون خليقون بأن يظفروا بايمان السوق، لأن المريض وكذا المنحرف يكون في العادة حادا ومتطرفا وقاسيا وصاخبا ومبالغا وعصبيا جدا ومثيرا للأسى والاشفاق والألم. وهذه هي المزايا التاريخية العظمى... هذه هي النبوات الحزينة التي كانت دائما تجتذب اليها ايمان الجماهير، واعجابهم وهتافهم وصلواتهم.

وغالبا ما نجد في التاريخ ان غير الأسوياء الأصحاء، هم الذين كانوا يقودون البشر ويحكمونهم، ويهبونهم الحكمة والنبوات. لقد كان البشر يستجيبون لهؤلاء المرضى، اكثر من استجابتهم للنقيض، لأنهم كانوا اكثر من غيرهم يتصفون بهذه المزايا العنيفة، أو بهذه النبوات الحزينة التي تثير حماس السوق وتسيطر على انفعالاتها. ان آلام الإنسانية واخطارها الضخمة وتعاليمها المتوهجة العصبية، مدينة بوجودها واستمرارها وانتصاراتها الباهرة، لهؤلاء المرضى المتفوقين... لهؤلاء الانبياء الحزانى العدوانيين.

انه لم تلعن السماء والأرض، بلعنة اكبر من ان تضعها في قبضة حاكم أو معلم مريض أو منحرف. ان الحاكم المريض لا بد يكون جبانا هيابا يخشى كل حركة، يخشى كل تغيير لما هو موجود، أو مخاطرا الى حد الجنون. يعالج آلامه وهمومه الحادة بخلق الأزمات وبالاندفاعات القاتلة. انه دائما يقدر المواقف التي يواجه، كما يقدر المحافظة على الكرامة، تقديرا مصابا بمرض الحساسية الوبيل.

ولا بد ان نتعلم هنا ان الصحة ليست مقدرة بوزن الجسم وابعاده. ان الصحة حالة عضوية كيميائية، انها توازن نفسي. ان اعظم ظاهرات المبالغة في تقدير الذات. ان الحاكم الذي يؤله نفسه، الذي يريد ان تكون له وحده

المشيئة، وله وحده التصرف والغلبة، مريض.

ان الطموح الجنوني، ان الثقة المطلقة بالنفس، ان الشعور بلذة الاستعلاء على الآخرين، واخضاعهم، وتحمل مسؤولية التاريخ كلها... ان ذلك كله، لا يحتمل ان يكون أي مستوى من مستويات الصحة. وهؤلاء الزعماء، والحكام والقادة الذين يبتهجون بكل هذا القيء من المديح الذي تتهاوى عليهم به كل الاجهزة الخائفة الجبانة، هل هم اصحاء... هل هم اسوياء...؟

انهم اكثر من مرضى، اكثر من اغبياء، اكثر من منحرفين. انهم كائنات يصعب وصفها. ان الذي يقف في ميدان عام لكي يبصق عليه المارة، لكي يبصق عليه كل الناس، لن يكون اكثر تحقيرا لنفسه، لن يكون اكثر شذوذا أو جنونا من الزعيم الذي يتقبل كل هذا الامتداح الكاذب.

ان الاسوياء لا يجدون في شيء من هذا لذة ولا سرورا. بل يشعرون انه اسوأ صور العذاب والتعذيب... اسوأ صور العذاب للنفس والتعذيب للآخرين. ان المرضى وحدهم، بعض المرضى، هم الذين قد يجدون لذة في تعذيب انفسهم وتعذيب الآخرين.

انه لو كان الناس جميعا اصحاء واسوياء، لما وجد من يرضى بأن يحمل على نفسه كل هذه الهموم، لما وجد من يحب ذاته حتى الجنون والعبادة، فيراها وحدها جديرة، يراها وحدها قادرة على ان تريد للناس كلهم، وتفكر لهم كلهم، وتفعل لهم كلهم... يراها وحدها قادرة على ان تكون اقوى منهم مجتمعين. ولما وجد أيضاً من يمارس نشوته الفاجرة باذلال الآخرين، وتحقيرهم واخضاعهم.

ان الذين يحبون ان يحولوا ذواتهم الى آلهة يعبدها الناس والتاريخ، هم قوم

مرضى بأخطر الأمراض... بأشد الأمراض كآبة ووحشية. انهم ليسوا مرضى فقط، هم أسوأ من ذلك، هم اضخم هجاء للبشر.

لماذا تكون قيصرا

ان الإنسان السوي يحيا ذاته، يحيا كل ذاته.

ان الذي يحيا ذاته، مفروض فيه، مشروع له ان يجهل، ويسمع العبث والكذب احيانا... ويكون له اصدقاء، ويكون هو صديقا... وان يعامل الناس ويعاملوه بمحبة وشرف ومساواة، واحيانا بغير ذلك... ويأكل الطعام الجيد، ويشرب عصير الفواكه الحي والمعتق، ويحيا حياة رخية نظيفة، واحيانا شقية بائسة ويعمل ويطور عمله، ويكون ناجحا، وتكون له زوجة وأولاد اذكياء اصحاء، واحيانا العكس... ويترنم بالاغاني بعض الأوقات بصوت مسموع ومرح لا يخفيه، ويصفق له الناس اعجابا بكثير أو قليل من مزاياه... وان يحب نفسه حبا مهموسا أو حبا غير منطوق... وان يكون طفلا وسخيفا بعض الأوقات، بل كثيرا من الأوقات... ويكون اضحوكة أيضاً في بعض المواقف.

ولكن ليس من حياتك ذاتك، ان تصبح قيصرا وان يصبح الناس لك عبيدا... أو ان تصبح ضجيجا يثقل سمع الدنيا... أو تمثالا كبيرا يقف على مدخل التاريخ كأنه يحرسه من المنافسين والأنداد، لتمر جميع الهامات من تحتك، لتمر من تحت قدميك. انك اذا احبت نفسك هذا الحب، أو حاولت ان تكون كذلك، فلا بد انك بذيء، ومريض وكائن غير عاقل...

لماذا تريد ان تكون قيصرا... هل لأنك تريد مصلحتك... هل لأنك تريد مصلحة الملايين التي تفرض عليها ان تحيا داخل ذاتك... داخل حماقاتك وبذاءاتك وهمومك...؟

انه ليس لك مصلحة في ان تكون الها. ان هذا هو العذاب والخطر. انه

عذاب لنفسك لأنك تشعر انك المسؤول الوحيد. ما اقسى الوحدانية... ما اقسى وحدانية المسؤولية. لقد حملت المسؤولية كلها، لقد حملت الملايين على ان يروك في كل شيء، ان يثقوا بك، ان ينتظروا منك ان تفعل لهم جميع ما يريدون، ان تدفع عنهم جميع ما يكرهون... حملتهم على ان يؤمنوا بك كإله، كإله يحيا في اساطير التاريخ، كإله يخلق خلقا مباشرا - ومفتخرا بنفسه - الحشرات والاحزان وامراض الطفولة والشيخوخة، كما يخلق المجرات والشموس والمحيطات. لقد علمتهم ان يثقوا بك اكثر من اله. ان الاله بعيد، بعيد، وبطيء، بطيء، وغائب لا يرى، اما انت فقريب وسريع، ومرئي في كل مكان، في كل شيء. اذن لقد علمتهم ان يثقوا بك اكثر من اله. انك لن تقبل ان يعاملوك مثل اله، ان يثقوا بك مثل اله.

وهذا له وجهان: وجه نفسي ووجه علمي. انه من الناحية النفسية لا اقسى ولا اشد عذابا لك، من ان تشعر ان الناس كل الناس قد وهبوك ثقتهم، انهم قد فرض عليهم ان يهبوك كل ثقتهم. ان هذا تعذيب لنفسك، انه توريط لا رحمة فيه، لا مثيل له. ان الثقة المطلقة بأي انسان قتل لذلك الإنسان، بحث له عن الجنون. اني لأعجب كيف لا تموت الآلهة من شدة ثقة المؤمنين بها، وكيف لا تصاب بالجنون، كيف لا تموت أو تجن من الحياء والحرج والمسؤولية...

ولكن كيف... إلا توجد دلائل على انها قد جنت، قد ماتت...؟

وقعوا الكشف عليهم

ان كثيرا من الحكام المطلقين الذين وضعوا انفسهم فوق مستويات الآلهة، كانوا في التاريخ ينتحرون بأساليب متوهجة اليمة من اساليب الانتحار. لقد كانوا يشبون الحروب، وكأنهم ينتحرون. كانوا يصنعون الأزمات والمشاكل، كانوا يجربون كل ضروب الحماقات والمقامرات الجنونية، كانوا يفعلون كل

هذا تحت ضغط شعورهم بأهم قد فرضوا على الناس ان يثقوا بهم ثقة مطلقة، وانهم هم وضعوا انفسهم في هذا المضيق، وان الجماهير تحت اقدامهم راكعة متوسلة تنتظر ما يفعلون بايمان أو باذلال. لقد كان كل ذلك اساليب مختلفة من اساليب الانتحار، من اساليب ارادة الانتحار.

ان الآلهة لا يمكن ان تكون معتدلة، ولا صانعة للسلام. ان اخلاقها واعصابها لا بد ان تكون متوترة. ان من يملك هذا الكون، ومن هو مسؤول عنه، ومن هو مهتم به، لا يمكن ان يكون عاقلا، أو متوقرا، أو صانع سلام.

اما من الناحية العلمية، فما اسوأ حال الحاكم أو الزعيم الذي يفرض على نفسه، أو يفرض عليه ان يعمل للناس كل افكارهم ومشاعرهم واحتياجاتهم ومذاهبهم، ان يصنع لهم الحياة والرجاء والمجد والحرية والحماية. انه لا يوجد اشقى من ذلك الحاكم أو الزعيم، انه لا يوجد من يعادي نفسه ويعذبها بمثل هذه القسوة والضلال.

وقعوا الكشف على الزعماء والمتألهين... وقعوا الكشف عليهم يا اطباء العالم، انهم مرضى باخبث الامراض.

ان الحاكم السوي، المحكوم بالقانون والمجتمع، والذي لا يأخذ شيئا من المزايا الضخمة التي يأخذها الحكام المتألهون، الموثوق بهم ثقة مطلقة... ان مثل هذا الحاكم الضعيف لأحسن حظا من اولئك الحكام الاقوياء، الذين يحكمون الشعوب كآلهة، ويفرضون عليها الايمان بهم كآلهة، ويحيون فيها كآلهة.

ان الإنسان هو دائما اسعد من الاله. ان أي انسان لن يقبل ان يعيش كإله، ان يمارس نفسه كما تمارس الآلهة نفسها، ولو انه جرب ان يكون الها، لو انه رأى كيف تتعذب، وتضل الألهة نفسها، لو جرب ان يكون الها، لو انه رأى كيف تتعذب، وتضل الآلهة في ممارستها لمهنتها.

ان كل انسان لا يستطيع ان يعيش بأكثر من مشـــاعره، ولا ان يســـتمتع بحدود اوسع من ذاته. ان الإنسان الاله مهما ملك، واستقوى وتصرف، فـــهو محدود بذاته وبمشاعره، محدود باحتياجاته وبقدرته على الحيـــاة. ان الحـــاكم الضعيف، أو الإنسان العادي. انه اذن لا مكاسب ذاتية أو شعورية خاصة لمـــن يملكون كل الأشياء. فما هو الثمن اذن الذي يأخذه الاله أو الحاكم الاله...؟

هل انت تستطيع ان تعيش بمسافات اطول أو اعمق من مسافات ذاتك...

هل انت تستطيع ان تمتد بمشاعرك البهيجة الى مسافات اطول أو اعمق من مسافات مشاعرك...

هل تستطيع ان تمارس الحياة أو السرور بلا حدود...

الست محدودا في ممارساتك ومسراتك...

اذن ما هي مكاسبك من ان تملك، أو تتسلط، أو تأخذ بلا حدود...؟

وقعوا الكشف يا اطباء العالم على الزعماء والمتألهين، انهم مرضى بـــأخبث الامراض.

وقعوا عليهم الكشف... انهم مجانين بأسوأ مستويات الجنون... انهم مرضى بأقسى الأمراض.

*

اما الخطر، فما افدح الاخطار التي تهدد من يريدون ان يحكموا المجتمعـــات كآلهة. ان هؤلاء اما ان يظلوا دائما آلهة... ان تظل لهم قوة الآلهة، وجبروتهـــا وقداستها ونزواتها واخطاؤها واعاصيرها، والا فمحتوم ان يصابوا بـــالموت أو الشنق أو بالسقوط... ما اروع واغلى سقوطهم... شنقهم.

انه لا يوجد اكثر تعرضا للاخطار من الآلهة. ان الآلهة القوية، هي اكـــثر استعدادا للاصابة بالامراض المستعصية، بأمراض الدم والقلـــب والاعصـــاب،

والحقد والخوف، أو بامراض الصلب والشنق.

ما اغلى واروع الصلب والشنق، للزعماء المتألهين.

اذن لا توجد مصلحة للحاكم الاله في ان يكـــون كذلـــك، فلمـــن اذن المصلحة... هل هي للمجتمعات التي تحكمها هذه الالهة...؟

انه لا توجد أيضاً مصلحة لهؤلاء في مثل هذا الوضع، لأن الحاكم الاله لـــن يستطيع ان يصنع غير ما تستطيع ان تصنع المجتمعات. انه لا يعطيها شيئا، انمـــا يعطيها ذاقما، عملها، قوقما، امكانياقما، زاعما انه اعطاها كل شيء.

انه يجعلها تثق به، وتعتمد عليه، وتستسلم له، وتتنــــازل عـــن حريتـــها وكبريائها تحت قدميه، بدون أي ثمن.

انه مثل آلهة القدماء التي كانت تنصر المؤمنين بها على اعدائــــهم، والـــتي كانت تمنحهم الرزق الوفير... ولكنها لم تكن تفعل ذلك إلا اذا فعلوه هم اولا لأنفسهم. انها لم تكن تفعل. ان ما يفعله المؤمنون كان ينسب الى تلك الالهـــة التي كانت هي أيضاً من فعل اولئك المؤمنين.

وكل ما يستطيع فعله ذلك الزعيم الرب ان يأمر وينهي، ان يختـــار احـــد المواقف. ولكنه في هذا لا بد ان يكون متكافئا مع طاقة الجماهير وظروفـــها، والا كان انتحارا. ان نتيجة اختياره للمواقف انما تفصل فيـــها أيضـــاً تلـــك الجماهير وتلك الظروف الاخرى. لهذا كان يحدث دائما في التاريخ ان هـــؤلاء الزعماء الآلهة كانوا يعطون الهزائم والفناء، اكثر مما كانوا يعطون الانتصـــارات والقوة، وذلك حينما يتحركون خارجين على الظروف وعلـــى احتمـــالات الموقف الذي يواجهون، وحينما يعملون تحت ضغط طموحـــهم وعبقريتـــهم الخاصة المتفردة، أو تحت ضغط جنونهم وآلامهم.

ان أي تدمير يصيب أي شعب في اية مغامرة، انما كان سببه زعيما اراد ان

يكون اكبر من الناس، اكبر من نفسه. ان الخسائر التي تسببها الزعامة القوية المتألهة، اضخم جدا من الارباح التي تعطيها.

ان الآلهة لا تفعل، وانما تشتهي وتطمح وتأمر... انها تتربع فوق ما يحدث... انها تتكلم باسمه كأنها الخالقة لكل شيء.

انه حتما... حريق

لا يصنع الحاكم الاله غير ان يضع اسمه وصورته على المجتمع، لكي يصبح المجتمع هو هذا الاسم وهذه الصورة. انه من اجل هذا الثمن الكاذب، كان يحول تلك الجماهير الى طوابير من الاطفال، يؤلف لهم الأغاني والأناشيد المتوحشة الكئيبة في تمجيده لنفسه، لينشدوها بين يديه في المواسم الكثيرة... ودائما، متفضلا بالاستماع اليها باعجاب ونهم وكبرياء، أو متفضلا بالاعراض عنها ان شاء، ثم يرمي لهم بقطع الحلوى التي صنعوها هم، مصرا ان يظلوا اطفالا لا يكبرون، يعدهم بالحلوى التي لم يشارك هو في صنعها، ويلقي بها اليهم كلما احسنوا النشيد والتأدب، واجادوا فن الطاعة له.

ان الزعماء - حتى الزعماء غير المتألهين - يتخذون المواقف التي تصبح مواقف لمجتمعاتهم. وانهم ليختلفون في اتخاذ هذه المواقف. ان بعضهم اجسر أو اشجع على اتخاذ مواقفه، وفي تصرفه ازاء المواقف المفروضة عليه، وعلى مجتمعه. ولكنهم جميعا لا يستطيعون ان يهبوا هذه المواقف والتصرفات نتائجها. ان الذي يهب هذه النتائج هو الإنسان، هو الظروف الملائمة أو غير الملائمة. ان القائد أو الزعيم قد يضع مجتمعه أو عصره كله في حرب أو في خصومة، ولكنه ليس هو الذي يصنع نتائج ذلك. انه هو الذي يشب الحريق، ولكن ليس هو الذي يطفئه أو يكيفه... انه حتما حريق.

الحاكم الاله يريد ان يجعل الناس معرضا لذاته، العابا لطفولته... انه يريد ان

يعمل فيهم ليحقق وجوده هو، كجبار ومبدع وخالق، لا ليحقق وجودهم هم. انهم من اجله وليس من اجلهم. ان الناس في حسابه اشياء مثل الاخشاب، مثل مادة التمثال في حساب النجار والمثال. واذا الحاكم الاله اجاد العمل والحكم... اذا حاول ان يعطي شيئا، فكما يجيد النحاتون اعمالهم الفنية، كما يجيدون اعمالهم في الحجارة. انه لا يفعل ذلك لأنه صديق أو رحيم. انه يفعل لأنه يريد ان يكون متفوقا قاهرا، لأنه يريد ان يبرر كينونته المطلقة، لأنه يريد ان يتلذذ بشعور التفوق والتفرد والغلبة.

ان العطاء مثل القتل في حسابه. ان القتل والعطاء كلاهما في حسابه عملية تفوق. انه لا يبحث إلا عن التفوق. انه ليس في نيته ان يصنع الخير، ان في نيته ان يصنع المجد لنفسه.

انه يعمل للخلود لا للفضيلة... وفي سبيل المجد والخلود، سرقت اعظم جهود الإنسان... حولت الى وقود لشهوات الأرباب المرضى.

كل المغازلة... دون شيء من الحب

ان الشعب في عهد الدكتاتور كاله في المجتمع المؤمن. ان له كل التعظيم والامتداح والمداهنة. ان كل الاعمال باسمه. ان كل الحديث عنه، واليه، ومن اجله. انه تصاغ فيه اقوى اناشيد البلاغة والحماس، وانه لتقترف تحت شعار العمل في سبيله والدفاع عن كرامته، ابشع المظالم والحروب والمغامرات. انه ليقترف كل العدوان عليه، والتحقير له، باسم احترامه، والدفاع عن حرياته. اما عند التطبيق فهو الملك الذي لا يملك ولا يحكم، هو القطيع الذي لا يحترم ولا يستأذن.

انه كما يفعل المؤمنون كل الحماقات والشعارات والمواقف المتناقضة باسم الاله، كذلك يفعلها الدكتاتور باسم الشعب...

انه يرتكب جميع التناقضات تحت شعار واحد...

انه ينادي بكل الشعارات المتناقضة في مواكب من الاعلان والمباهاة...

وهل الدكتاتور يداهن الشعب، ويكذب عليه، لأنه يخشاه أو يحترمه، ام لأن المداهنة والكذب اسلوبان من اساليبه... ام لأنهما من موسيقاه المتوحشة، وصلواته البذيئة...؟

هل ينافق الدكتاتور حيلة وذكاء ام فحشاء وتوقحا...؟

*

ان الشعب في عهد الدكتاتور ليسرق ويهان ويقتل وكبل باطغى القوانين والتشريعات المعادية الجاهلة دفاعا عنه.

انه يدافع عنه بالاساءة اليه، والكذب عليه، والكذب به، وبالاذلال والتحقير له...

انه يقتل في الطرقات والمغامرات والحروب كذباب، ثم يصلي على روحه الطاهرة، ثم يرثى... يرثى بابلغ الخطب...

انه يضحى به احتراما له...

ان كل المغازلة له، ولكن ليس له شيء من الحب.

*

ليس للاله في المجتمع المتدين، ولا للشعب في زمن الدكتاتور من الأمر سوى الاسم والبسمة...

ان لهما التوقيع على جميع الأشياء، ولكن ليس لهما سيادة على أي شيء... حتى التوقيع، انه ليس بيديهما ولكن باختامهما. انه لا وجود لهما إلا في التحدث عنهما...

ان الآلهة محقرة مستضعفة في مجتمعات المؤمنين. ان الآلهة في المجتمعات

المؤمنة محتقرة مستضعفة، انها كالشعوب في مجتمعات الطغاة...

انه مع هذا لا احد يتحدث عن امجاد الشعوب اكثر من الطاغية. انه مع هذا لا احد يتحدث عن امجاد السماء مثلما يتحدث المؤمنون الخارجون على اخلاق السماء...

ان المؤمنين يظلون يتحدثون عن الآلهة لأنها لا شيء لها في حياتهم. ان الطغاة يظلون يتحدثون عن الشعوب لأنها لا شيء في عهدهم.

عرض للذات الشاذة

انه في زمن الحاكم الفرد يتحول الشعب، يتحول كل ما فيه الى اعمال استعراضية ضاجة، بذيئة متواصلة، لذات مريضة واحدة. حتى التشكيلات والشعارات المضادة في لغتها الفردية، المشابهة لتعبيرات الديمقراطية... حتى هذه الاستعراضات ليست إلا توكيدا لهذه الفردية، توكيدا لهذه العمليات الاستعراضية التي تتعاطاها ذات واحدة باهظة الثمن.

ما اغلى الدكتاتور... ما اغلى ما يأخذ من الحياة واحقر ما يعطي...

ان ذات الدكتاتور لهي اغلى ذات ظلت الإنسانية تدفع ثمنها على امتداد تاريخها...

ان الدكتاتور هو اكبر سارق لدماء البشر... لرخائهم... لحريتهم... لكرامتهم... لذكائهم...

ان دماء الشباب ممزوجة باقوى الخمور، هي اشهى الأطعمة الى كل دكتاتور.

ما اذكى الإنسانية... لقد ظلت تدفع اهظ الاثمان لأحقر الأشياء، دون أي احتجاج. لقد ظلت تدفع كل ذكائها، كل حرياتها، كل دمائها، كل رخائها، ثمنا لدكتاتور باهظ.

ما اذكى الإنسانية... ما اعظم كبريائها.

حتى الايمان بالله، والدفاع عن الانبياء وتشييد المعابد وادخال الاضاءة القوية اليها... كل هذه لا بد ان يكون القصد بها استعراض هذه الذات الشاذة التي تريد ان تحول كل الاشياء، ان تحول كل الآلهة والأديان الى ادوات استعراض في المعرض الكبير الذي يتحول إليه المجتمع في وقتها، ليعرض جنون انسان ما...

ان تكبير الله والثناء عليه وعلى شرائعه، وعلى تدبيره في الكون، لا يعني في عهد الدكتاتور، اذا نطقت به اجهزته أو خطبه، غير الهتاف لذلك الدكتاتور والثناء على عبقريته الملهمة الخيرة...

ان الدكتاتور يغازل نفسه، انه يبتسم لها وينظر اليها، محولا كل شيء الى مرآة، اكثر مما تفعل اية غانية مفتونة... ان كل اعمال الدكتاتور وقوف امام المرآة...

انه اذا حارب أو صادق أو انشأ مصنعا أو وضع تشريعا أو خطب، فهو انما ينظر الى صورته باسلوب مغازل مفتضح...

ان كل الأشياء في حساب الطغاة يجب ان تتحول الى ادوات زينة، الى مرايا لينظروا بها الى انفسهم حيثما كانوا، حيثما نظروا...

ان كلمة : ما اعظم الله، لا يقصد بها إلا : "ليعش القائد"...

ان كلمة: الكون جميل، لا تفسر إلا بأن العهد الذي نعيش فيه هو اجمل العهود...

ان أي شيخ أو رجل دين يذيع أو يكتب حديثا في تفسير صفات الله، في تفسير اخلاق انبيائه، لا يمكن ان يكون الحافز المتخفي وراء هذا الشيخ ووراء احاديثه، ووراء بحثه عن الله وعن الطريق الى الاستقامة، لا يمكن ان يكون

الحافز غير الامتداح لذلك الحاكم، لذلك الحاكم الذي سخر جميع ما في الدولة وجميع ما في المجتمع ليصبح كله ثناء عليه، حتى اذاعة الاحاديث الدينية، واضاءة المآذن في المناسبات، حتى البحث عن الله وعن الآخرة، حتى ذلك سخر ليكون ثناء على ذلك الحاكم... على ذلك الحاكم الذي يريد ان يكون كل شيء ثناء عليه، حتى تفسير صفاته وتفسير كلامه.

ان شهوة تحويل الناس والاشياء الى عملية استعراضية لفرد طاغ مريض، قد كلفت الإنسانية على امتداد تاريخها كل ذكائها ووقارها. انها لا تزال تكلفها.

ليست الحروب في كثير من حالاتها، إلا هدية من الجحيم يبعثها دكتاتور ما، الى اهل الأرض تعبيرا عن هذه الشهوة الاستعراضية. قد يكون اشعال للحرب هو اعلى اساليبه الجنونية في البحث عن وسيلة شريرة جدا لاستعراض ذاته، استعراضا فيه كل اهوال الجحيم. قد يعلن الحرب ليعرض ذاته عرضا عالميا.

ان الحرب كصورة من صور الاستعراض الذاتي امام الذات، لا مثيل لها في الاثارة والبشاعة والاشباع.

قد يكون الاستعراض الصانع لأضخم الآلام والدمار هو افضل الاستعراضات التي يمارسها الدكتاتور. قد يكون في الاستعراض الاليم معنى خاص في مزاج الدكتاتور.

انه لو استطاع العلم في يوم من الأيام ابتكار طريقة علاجية لشفاء هؤلاء الرجال الباهظين من هذه الرغبة الاستعراضية، لكان ذلك من اعظم انتصارات الإنسان العلمية.

ما اعظم العلم لو استطاع ان يشفي الطغاة من شهوات العرض للذات.

وهل يوجد في البشر من لا يمارس اسلوبا ما من اساليب العرض لذاته...؟

شهوة الانتصار

توجد في الإنسان رغبة اخرى قد تختلط بالرغبة الاستعراضية... تلك هي الرغبة في الانتصار.

ان الرغبة في الانتصار جنون قديم في البشر. انه جنون قديم، وانه حديث... انه جنون دائم.

انه جنون الإنسان، جنون الإنسان القديم والحديث. ولكن كم بين الجنون القديم والجنون الجديد من فروق في القدرة على ممارسة الجنون، على ممارسة الأهوال. لقد حول البشر هذا الجنون في تعاليمهم المتوارث الى احدى مزاياهم العظيمة التي يحاول التطلع اليها والتلبس بها كل الناس، حتى اغباهم، حتى اقلهم شأنا.

كم مات البشر وتعذبوا، كم خسروا وتعادوا، كم قاسوا من الهزائم، لأنهم كانوا يسيرون وراء رجال ضالين، ووراء رجال كانوا يسيرون وراء الانتصارات، بنفس الجنون والحماس والمخاطرة.

ان ارادة الانتصار على الناس نوع من الشذوذ الخطير. ان الإنسان الطبيعي ليس هو الذي ينتصر، ليس هو الذي يريد الانتصار. كما انه ليس هو الذي ينهزم أو يريد الانهزام. فالانتصار كالانهزام، كلاهما خروج على الصحة والاستقامة. واذا كانت الهزيمة شرا لأنها اذلال للانسان، فان النصر كذلك، لأنهما شيء واحد.

هل يوجد انتصار دون انهزام...؟

ان السعادة ليست هي ان تشعر الناس بالمرارة والهوان والهزيمة، ولا ان يشعرك الناس بالمرارة والهوان والهزيمة. ان الانتصار هو اقبح الاشياء، لأن الهزيمة هي اقبح الأشياء، ولأنه لا نصر بلا هزيمة. انه لو كان النصر شيئا طيبا، لكان

المعنى ان الهزيمة شيء طيب.

ان المجتمعات والطبيعة، تشوه الناس وتصيبهم بالانحرافات. انهم لهذا يحاولون ان يتعالجوا من هذا التشويه، بان يهبوا انفسهم مزيدا من التشويه. انه لن يشوه انسان نفسه بافظع من ان ينتصر على انسان آخر، فالانتصار تشويه للمنتصر بقدر ما هو تشويه للمنهزم.

ان المنتصر اما ضارب شاتم للناس، أو سارق لهم. انه ليس فاضلا ابدا بانتصاره. ان الانتصار لا يكون فضيلة، إلا اذا كان اذلال الناس وسرقتهم والاعتداء عليهم والسخرية منهم فضيلة.

ان المنتصر في كل حياته ومستوياته، ليس إلا انسانا قد شتم أو ضرب أو سرق أو اهان أو خدع انسانا آخر أو جماعة أو مجتمعا. ان الناس حينما يتعالجون من آلامهم بمحاولة الانتصار على الآخرين، انما يحاولون ان يتعالجوا بما يزيدهم مرضا وتعاسة وخوفا واحتمالات هزيمة.

ان المنتصر يتعذب ويخاف ويخسر ويتوتر كالمنهزم، واحيانا اشد. انه في الغالب لا يبحث عن شيء، انما يهرب من شيء ليقع فيما يهرب منه، ليقع فيما هو أسوأ. ان المنتصر لا يتداوى وانما يقع في المرض. ان الانتصار على الإنسان لا يعالج شيئا.

ان الانتصار لا يصنع امانا ولا سعادة، وقد ينقلب الموقف فيشعر المهزوم بالامان والراحة اكثر ممن يشعر بهما المنتصر.

ان اقرب الناس الى الهزيمة هم المنتصرون، لأن الانتصار هو اسوأ اساليب التحقير والتحدي والسباب والبحث عن الهزائم والاخطار.

ان الانتصار نوع من الحبل بالهزيمة، ان المنتصرين ليس إلا حبلى بالهزيمة...

هل يمكن ان توجد اية هزيمة لو لم يوجد أي انتصار...؟

ان المنتصر يشتم المهزوم بلغة لا مثيل لها في التحقير والاذلال والقسوة. ان الهزيمة جراح لا تشفى إلا بجراح اشد... ان الانتصار ذنب لا بد من التكفير عنه... ان الانتصار ذنب عقابه الاحقاد والخوف والازمات... انه ذنب عقابه الهزيمة.

انه حينما تشفى المجتمعات من انحرافاتها، فسيهرب الناس من الانتصارات كما يهربون من الهزائم والعار والمرض. انهم سينظرون الى من يبحثون عن النصر، مثلما ينظرون الى المصابين بالشذوذ الجنسي، وبالامراض العقلية.

قد تشاد المستشفيات يوما لعلاج المرضى بحب هذا الجنون.

ما اخطر الانتصار على اخلاق المنتصر، على اعصابه، على ذكائه. ان بعض الانتصارات تصعق وتقتل... انها كلها تهزم ولو بعد حين.

ما اقسى معاني الهزيمة...

ما اوقح ما تصنعه الهزيمة بأخلاق المهزوم...

ما اكثر ما يتحمل البشر من المعاني الرديئة... من الاذلال... من التحقير.

انت مريض وبذيء وهمجي وعدواني وغير اخلاقي، بقدر ما تريد ان تنتصر... بقدر ما تريد ان ترتفع صورك فوق جميع الشرفات، وقدماك فوق جميع الهامات.

انت كذلك... انت اسوأ من ذلك، بقدر ما تريد ان تظل واقفا شامخا كتمثال ضخم بذيء... بقدر ما تريد ان يركع كل من سواك تحت قدميك، يهتفون ويتضرعون... بقدر ما تريد ان يتحول جميع البشر الى نمال وفئران وارانب ودجاج، وان تتحول انت الى ذئب وثعلب وديك.

ان أي زعيم أو قائد عسكري أو حاكم أو كاتب أو عالم يشعر بالنشوة، لأنه قد انتصر على قرين أو مثيل أو خصم أو مزاحم، ليس إلا انسانا غابيا

يعيش في عصر الحضارة.

كم انت همجي وبذيء، حينما تقيم مهرجانا - قد يكون سنويا - لتتحدث بكل جلافة عن انتصاراتك... انت لا تعرف معنى ذلك... انت تتحدث عن اوقح الأشياء باسلوب اعلاني... انت ابدا همجي حينما تفعل ذلك.

واذا كان مستوانا الحضاري والانساني، يرفض اليوم ويستبشع ان نسير واقدامنا على هامات الآخرين، فعلينا ان نعرف ان انتصارنا على المجتمعات، على الشعوب الأخرى، على الزعماء الآخرين، على المخالفين في الرأي أو الدين أو المذهب أو الوطن، على أي منافس من أي نوع آخر، هو اسلوب فظيع من اساليب السير باقدامنا على هامات الناس.

ان المنتصر لا يسير واقدامه فوق رؤوس الناس. انه ابشع من ذلك... انه اوقح... انه اكثر اذلالا وتحقيرا وتعذيبا. ان المنتصر لا مثيل له في عدوانه... في همجيته...

ان الاصابة بشهوة الانتصار هي اخبث واخطر اصابة يصاب بها انسان ما. ان اكثر الناس جنونا بالانتصارات، وبحثا عنها باسخف الاساليب نزقا، هم الاطفال... الطغاة... هم القادة العظام... هم الآلهة.

ان القادة العظام هم احقر هدايا الحياة الى البشر. ان القادة العظام هم الاطفال الباحثون عن التفوق على الانداد.

ما اكثر ما بذل الإنسان من دمه ونضاله وذكائه وخلقه، ثمنا للرغبة في الانتصار على الناس. ان هذه الرغبة هي قمة الضعف، قمة البذاءة، قمة التفاهة، قمة التشوه النفسي والاخلاقي. ان الصغار والاغبياء اكثر رغبة في الانتصار على الناس من الكبار، من الاذكياء، من ذوي الاخلاق العظيمة.

انه لا ينبغي ان نعتقد ان البحث عن النصر هو وحده الذي يصوغ تقدمنا. انه ليس كذلك، انه كثيرا ما يعوق هذا التقدم ويحطمـــــه. ان البحـــث عـــن الانتصار على الطبيعة هو الذي قد يصوغ تقدمنا، اما البحث عن الانتصار على الانداد، على الناس، فهو الدمار.

ان عبقرية الدكتاتور الكبرى، ان يبحث عن الانتصار على الناس، علـــى الانداد، عن هدم الانداد، لا على الطبيعة.

ان الطبيعة منتصرة دائما في الدكتاتور على الدكتاتور... ان الدكتـــاتور لا ينتصر على الطبيعة، انها تنتصر عليه. انها تنتصر به على الإنسان، وعلى الحياة. انه دائما هزيمة للانسان، للحياة. انه دائما انتصار للطبيعة على الإنسان، علـــى الحياة.

طفولة بذيئة

ان المؤمنين لم يزالوا في كل عصر يوجهون الى الله مثل هذا الدعاء البعيـــد عن التهذيب والمعرفة وعن الاحترام لله... انهم لا يزالوا يقولون : انصرنا يا الهنا على الأعداء، انصرنا على المخالفين، على كل الناس، على الكفار.

انهم يتصورون الله شيئا صغيرا، شيئا بلا أي مستوى مـــن الاخـــلاق، أو الذكاء أو التقاليد العظيمة. انهم يتصورونه طفلا في السماء. يتصورونه جنديـــا بدويا يحارب في صفوفهم تحت شعار"انصر اخاك ظالما أو مظلوما " انهـــم في جميع الحالات لا يرتفعون بالله عن مستواهم النفسي والعقلي والاخلاقـي... لا يرتفعون به عن مستواهم قبل ان يتحضروا.

ان الله في تقدير المؤمنين قوة فقط. انه قوة عمياء. ليســـت الاخـــلاق أو الفضائل الاخرى هي مزيته، ان مزيته العظمى هي القوة. انه اله لأنه قوي، انه ليس الها لأنه فاضل. ان الداعين بهذا الدعاء كأنما يقولون: ايها الاله، ايها الاله

العظيم، كن همجيا متوحشا، كن سخيفا، ظالما، غير متحضر، كن يـــا الــه العالمين عميلا وخادما لغبائنا وشهواتنا وبداوتنا، كن لنا وحدنا ضد خصومنــا وضد اصدقائنا وايضا كن سخيفا، كن غبيا، كن همجيا ايها الاله العظيم.

انه لا شيء يهجو الله مثل هذا الدعاء. انه لا احد يحقر الله مثل المؤمنين به.

اليست طفولة بذيئة جدا ان يطلب منك طفلك ان تنصره على انداده مـن الاطفال... واذا استجبت له فماذا يمكن ان تكون...؟

وكم يبدو الموقف هزليا وغبيا محيرا، حينما نتصور ان الآخرين الذين يدعى الله ضدهم لينصر عليهم، هم أيضاً يدعونه نفس الدعاء، ليهبهم وحدهم النصر ضد خصومهم. فياله من موقف محير... ياله من موقف سخيف... من موقف تغرق فيه عبقرية الاله وحكمته واخلاقه... ياله من موقف يضيع فيه تـــوازن الاله، تضيع فيه ثقة الاله بنفسه وبنبل مستواه... ياله من موقف يوقع الالـه في اقسى امتحان يصعب عليه الخروج منه بنزاهة وكبرياء.

كيف يفعل هذا الاله ازاء اطفاله المتناقضين الاشقياء... كيف يتصرف ازاء اطفاله الذين يصر كل منهم على ان يكون له وحده، على ان يقتـــل جميـــع الاطفال الاخرين لكي يرضى هو ويترك البكاء... من ينقذ هذا الاله من اطفاله الذين لا يحترمونه... من اطفاله الذين يريدون ان يفسدوا اخلاقه...؟

وازاء هذا الموقف السخيف المحير، توجد ثلاثة فروض أو حلـــول لانقـــاذ موقف الاله، من هؤلاء المؤمنين المتناقضين الاغبياء.

هي ان يستجيب لجميع الذين يطلبون من النصر...

او لا يستجيب لأحد...

او يستجيب لفريق دون فريق...

ان الافتراض الأول مستحيل وسخيف الى ابعد الحدود.

وان الافتراض الثاني يجعل التوجه الى الله عبثا... انه يبطل معنى الالوهية... انه يجردها من مغزاها، ومن اسباب البحث عنها والايمان بها.

والافتراض الثالث يجعل الله متحيزا غير اخلاقي وغير معقول.

ولكن هل المؤمنون يفترضون الله اخلاقيا أو معقولا...؟

انه لا يحتمل ان الاله ينصر صاحب الحق فقط اذا طلب منه النصر، لأن ذلك يعني ان كل من انتصر فهو صاحب حق، وان كل من الهزم فهو صاحب باطل، ولو كان ذلك كذلك، لكان المنطق في هذا العالم منطقا رائعا.

وهل لو كان ذلك كذلك، يمكن ان يتغير موقف البشر من الحق والباطل، أو من الانتصار والانهزام...؟

ومع ان الدنيا لم تزل مملوءة بالأغبياء والضالين فان احدا منهم لم يهبط به غباؤه الى التزام مثل هذا الرأي في سلوكه أو منطقه الشامل.

ان الشيء لا ينتصر لأنه حق. انه ينتصر لأنه قوة وظروف مؤاتية... لأنه ارادة انسانية.

واذا كان الشيء كذلك، انتصر مهما غضب الحق أو احتج أو ادعى لنفسه الدوام والتفوق. ان النصر ليس فضيلة تبحث عن اتقى القلوب، ولكنه شهوة تنحاز الى اقوى الاجساد. ان الانتصار هو دائما محاباة للأقوياء. انه ليس احتراما للحق والفضيلة... ليس بحثا عنهما. ان الانتصار لا يعرف اية لغة من لغات المعاني الادبية.

واذا انتصر الحق، اذا انتصر ما ندعوه حقا، فليس لأنه حق، بل لأنه يعيش في ظروف مؤاتية، كما ينتصر الباطل... كما ينتصر ما ندعوه باطلا اذا وجد مثل هذه الظروف. ولهذا فان كلا منهما ينتصر حينا، وينهزم حينا آخر، بل انهما لا ينتصران ولا ينهزمان، انما ينتصر أو ينهزم من ينادون بهما... انما ينتصر

أو ينهزم الناس بظروفهم وقدراتهم وحيلهم. انه لا ينتصر ما عندهم من حق أو باطل.

انه لا ينتصر الاله الافضل ولا المذهب الافضل... وانما ينتصـــر الإنســـان الاقوى.

ان الحق... ان الاله لا ينتصر ولا ينهزم... انما ينتصر أو ينهزم النـــاس... والظروف المؤاتية، وارادة الإنسان لا تسيران مع هذا دائما أو ضد هذا دائما... انهما تتحركان باسلوب غير اخلاقي، غير منطقي.

وما من شيء انتصر في وقت، إلا انهزم في وقت آخر. ان الشيء ينتصـر أو ينهزم لتغير الظروف وتغير الرغبة والقدرة، لا لتغير ذات الشيء. انه ما مـــن مذهب أو موقف انتصر إلا وكان يمكن ان ينهزم. انه ما انهزم إلا وكان يمكـن ان ينتصر.

ان اعظم الاديان والجيوش والنظم التي انتصرت، لم تنتصر لأنها حـــق، وان التي انهزمت لم تنهزم لأنها باطل. ان الجيوش والاديان والنظم التي انتصـــرت في وقت، انهزمت في وقت آخر، وان التي انهزمت قد انتصرت، أو قد تنتصـــر في وقت آخر.

ان الناس لا يستطيعون ان يعرفوا الحق، ولا ان يعرفوا البـــاطل. وهـــم لا يبالون بهذه المعرفة. وان من الخير لهم إلا يعرفوا. لعلهم لـــو عرفـــوا لتبلـــدوا وتوقفوا. اعني ان هذا هو ما يقضي به المنطق، أو على الأصح لعلهم لو عرفـــوا الحق والباطل لكان ذلك حريا بان يفسد عليهم غبـــاءهم وغرورهـــم... ان يسلبهم لذة الحماقات المريضة بالكبرياء والغباء. انهـــم فقـــط يريـــدون أو لا يريدون. انهم فقط يستطيعون أو لا يستطيعون. ان هذه هي كل القضية.

وكما ان هذه هي كل حقيقة الإنسان منذ وجد، فهي كذلك كل حقيقـــة

الحياة من وجدت. ان الحياة ليست معرفة، ان الإنسان ليس معرفة. انهمـــا لا يكونان أو يقبلان بالمعرفة، أو بالحق والفضيلة، ولكن بالاستطاعة والكينونة.

ان مقاييس الحق والباطل مأخوذة من الإنسان لا قادمة اليه. انها مـــأخوذة من ارادته وقدرته وحاجته، لا من عقله ولا من اخلاقه. ان ارادته وحاجتـــه ليستا مضبوطتين بأي قانون ولا بأية نسبة من النسب. انهما تعملان في فـــراغ واطلاق وفوضى. انه لا يمكن تحديدهما بأية مطالب معينة. انها لا توجد ايـــة مطالب ادبية أو مادية تحددهما أو تفسرهما. ولهذا فان الخـــبراء لا يمكـــن ان يخططوهما لتسيرا في الطريق المحدد كما يسير النهر في مجراه المصنوع، أو يســـير القمر الصناعي حول الارض أو الشمس. انه لا شيء يحـــدد ارادة الإنســـان وقدرته وحاجته، سوى ارادته وقدرته وحاجته، كما انه لا شيء يحدد جســـم الشمس، أو اتساع الكون سوى جسم الشمس واتساع الكون.

ان ارادة الإنسان وقدرته تجيئان بلا قياس أو منطق، كما جاء هو بلا قياس أو منطق.

*

لقد كان المفروض ان يكون دعاء المؤمنين: "اللهم لا تنصرنا ولا تنصـــر علينا... اللهم لا تنصر احدا على احد... اللهم لا تجعل لنا اعداء لنطلب منك النصر عليهم... اللهم لا تجعلنا اعداء لأحد ليطلب اليك ان تنصره علينا...

انه لظلم لا يليق بك...

انها الحقارة، تترفع عنها صفات الارباب ان تخلق الناس لتجعـــل منـــهم منتصرين وتجعل منهم منهزمين...

انها هرطقة ووحشية منا ان نتصور ذلك في اخلاقك...

انها لهرطقة ووحشية، ان ندخلك في معاركنا الصغيرة الظالمة الوقحة، ذات

الاهداف والحوافز السخيفة"

ان على البشر جميعا ان يغيروا من صلواقم التي يوجـــهونها الى الله. لقـــد تحضروا فعليهم ان يتحضروا في تصورهم للاله، وفي مطالبتهم له، وضراعـــاقم اليه. انه لذنب كبير ان يظلوا يدعونه باللغة التي كانوا يدعونه بها ايام بداواقم.

الرجعية المتوحشة

ان الذي يتحدث عن انتصاراته على الاعداء بابتـــهاج، ليشـــبه الحيـــوان المفترس حينما يبدو مرحا لأنه قد افترس حيوانا آخر. انه ليشبه الطفل حينمـــا يتحدث بترق كترق الطبيعة، عن اهاناته للأطفال الآخريـــــن، عـــن شـــجه لرؤوسهم، عن تحطيمه لأدواقم.

ان أي قائد أو زعيم يبتهج بانتصاراته على اعدائه ومنافسيه، فانه ليـــس إلا طفلا كبيرا يعلن عن ابتهاجه باهانته للاطفال الكبـــار الآخريـــن، وبشـــجه لرؤوسهم، وبتحطيمه أو بسرقته لأدواقم.

ان الدكتاتور هو قمة التوحش لأنه قمة البحث عن الانتصـــارات بكـــل مستوياقا وانواعها. لهذا كان دائما هو قمة الاخطار مهما كان مصلحـــا أو ذكيا.

والدكتاتور يصبح خطرا دوليا محتوما حينما يكون بظروفه ومجتمعه قويـــا وندا لمبارزة القوى التي تحكم العالم.

وفي عصرنا هذا، في عصرنا العجيب، قد يوجد دكتاتور لا يســـتطيع ان يتحدى قوى العالم لأنه ضعيف بظروفه ومجتمعه، بل تصبح هذه القوى العالمية المتناقضة المتنافسة، حماية له من اخطائه وحماقاته القاتلة. انها تحميه من نفســـه ومن القوى الاخرى المنافسة. انه حينئذ يذهب يتطاول على كل العالم ويشتمه ويتحداه... انه في امان.

ان حبالا قوية تمسكها ايد قوية، تحميه من الموت باخطائه، ومن الآخرين.

انه لما كان من المقرر الدائم انه لا حد لما يمكن ان يهبط إليـــه الإنســـان ويهبط إليه المجتمع من مذلة وشقاء، كانت النتيجة الكئيبة الدائمة، انه لا حـــد كذلك لما يمكن ان يرتفع إليه الطغاة من جنون واستعلاء. ان كل مجتمـــع، ان كل انسان قد يتحمل راضيا أو لاعنا جميع الوان التحقير والتعذيب. اذن فـــان كل دكتاتور قد يدعي لنفسه جميع الوان التأله والكبرياء. انه قد يفعل جميع مـا تأمره به نفسه العدوانية الشاحبة من شرور وحماقات.

انه لا حد لجنون الحكام الطغاة، لأنه لا حد لهوان الشعوب وغبائها. انه لا يوجد حد ادنى من الضعف والاستسلام تقف عنده الجماعات، اذن لن يوجـد حد اعلى لألوهية الطغاة. لقد فقد الحدان، حد العبودية، وحد الالوهية. لقـــد فقد حد الهوان وفقد حد الكبرياء. ان الهوان والكبريـــاء يعمـــلان في البشـــر ويتعاملان معهم بلا حدود.

لقد ظل التاريخ لهذا يسير دائما في طريق طويل كئيب، مســـدود بالعـــار والجبن والجنون. ان كل اله مجنون كان يجد في المجتمعات ما شاء من معـــابد ومصلين، مهما تعرى، مهما افتضح، مهما خطب لجنونه في الاسواق.

هل يمكن ان يوجد حد ادنى يرفض الإنسان أو يحرس من ان يهبط تحته...؟

وهل يمكن ان يوجد حد اعلى يمنع الطاغية أو يمتنع مـــن ان يتخطـــاه، أو يصعد فوقه...؟

اذن ما اسوأ ما يمكن ان يحدث.

*

انه ما من دكتاتور إلا ولا بد ان يستجمع في ذاته كل آثام التاريخ ورجعيته

باسلوب رجعي بليد مهما كانت خصائص العصر الذي يجـــيء فيـه هــذا الدكتاتور.

انه بقوة الظروف التي يعيش فيها الدكتاتور، قد يعرض نفسه في الاســواق كرسول عظيم، ينادي بمحاربة الرجعية والاقطاع والاستغلال والاســترقاق... ينادي بمحاربة محقري الكرامة الإنسانية... ولكن لكي يصبــح هــو وحــده الاقطاعي المستغل، المستعبد المحتكر لتحقير الإنسان... ليستمتع وحده بلـــذة الانفراد بالطغيان... ليتحول وحده الى ابشع الصيغ الرجعية المتخلقة في احلك ارحام التأخر... ليصبح ابشع تمثال للظلام.

الاقطاع والرأسمالية هما ان تملك طبقة طبقـة اغلـب ثـروات المجتمـع، والدكتاتور يتحول وحده الى مالك لكل ذلك. والاسترقاق هو ان يمتلك قــوم من الاقوياء حياة جماعة من البشر، يملكون تصرفاتها وحرياتهــا، والدكتــاتور يمتلك وحده حياة كل المجتمع وتصرفاته وحرياته.

انه لا يوجد في التاريخ محتكر ابشع من الدكتاتور. ان الدكتاتور لا يحتكـر الأشياء وحدها، انه يحتكر الافكار والعقائد، وخلجات النفس، وحرية النقــد والرؤية، انه يحتكر البذاءة والجنون.

انه هو وحده الذي يجب ان يستمتع بلذة البذاءة والجنون. انــه يجــب إلا يمارس الآخرون منهما شيئا إلا ما كان صدقة منه ممنونة. انه هو الذي الــذي يجب ان يضع حدودهما وصيغهما، ان كان يطلب لهما حدود أو صيغ.

واذا كان من اقبح ذنوب القدماء المتوحشين انهم كانوا يجرون عمليـــات الخصاء على الرجال... على عبيدهم، فان اكبر متفنن في خصاء البشــر هــو الدكتاتور. ان الدكتاتور لا يقتل في البشر الذكورة فقط، انه يقتل فيهم أيضــاً الذكاء والشجاعة والغضب والارادة... انه يقتل فيهم الإنسان.

ان كل دكتاتور لا بد ان يقتل في مجتمعه الإنسان... لا بد ان يقتل الإنسان الغاضب الرافض، الذي الشجاع... انه لا بد ان يقتل الإنسان... لا بـــد ان يقتل حياته في الحروب، في المؤامرات، في المبارزات، في الخصومات.

ان الدكتاتور لا يوجد، لا يعيش إلا اذا مات الإنسان... اذن محتـــوم ان يموت الإنسان لكي يعيش الدكتاتور... ان المجتمع الذي يحكمه دكتاتور ليـس إلا وعاء ضخما لبشر قد ماتوا.

واذا كانت الرجعية هي استعادة ما كان في العصور الخوالي المتخلفة مـــن اخلاق وافكار، وبداوة انسانية، ومن نظم وايمان بالقوة، وعداء للحرية، فـــان الدكتاتور هو اخبث مستعيد لتلك العصور.

ان وجود الدكتاتور، ان مجرد كونه موجودا، مجرد كونه قد وجد هو اوقح وجوه الرجعية.

انه اذا هاجم أي دكتاتور الرجعية كان المعنى ان الرجعية في اعلى درجاتهـا تهاجم الرجعية في احدى درجاتها. والدكتاتور الذي هو اكثف صيغ الرجعيـــة واعلى مستوياتها يضج وتضج اجهزته دائما بهجاء الرجعية، انه بذلك كأنمـــا يحاول ان يستر نفسه، ان يخفي انه ابشع رجعي تعامل مع الحياة.

ان الدكتاتور لا بد ان يهجو كل احد، بكل صفات الهجاء، اذن لا بـد ان يشاتم الرجعية مع انه قطبها الاعظم.

وفي حساب الدكتاتور النفسي الذي قد يخفى على ذكائه، ان حملاته علـى الرجعية انما تعني حملاته على التاريخ، على كل الماضي، وكل الحاضر الـــذي ينافسه ويتحداه ببعض مزاياه التي لا يملكها هو، والتي انما صعد هو باسـقاطها. انه حينما يسب الرجعية كأنه انما يريد ان يسب كل احد ليبقى هو، كأنما يريد ان يسب كل مزية لا يملك هو مثلها.

اما تحقير الإنسان فلن يوجد اسلوب للتحقير ابلغ من ان تصبح شـــهوات رجل واحد... ان يصبح توتره، وطموحه، واحقاده، واختلال غدده الجنســية وسائر غدده الصماء، هي الوحدة القياسية لأخلاق الإنسان، لافكاره لآمالــه، لفهمه الأديان، والحياة، والطبيعة، والتاريخ.

ان يصبح هذا الرجل الواحد. ان تصبح أفاته وهمومه كذلك المنفذ الوحيـد الذي يطل منه شعب بأسره على الدنيا، ثم يصبح هذا الرجل الواحد هو المـرآة السحرية التي تتحول فيها جميع الوجوه الى وجه واحد، ان يصبح هو المرآة التي لا يستطيع أي انسان ان يرى وجهه إلا من خلالها.

*

اني اتمنى ان يبتكر البشر نظاما جديدا اتخيله الآن، اتمنى ان يقوم كل مجتمـع على فترات معينة بعمليات مسح بشري، فاذا وجد ان فردا ما مصـــاب مـــن الناحية النفسية، أو يمكن ان يصاب بالشذوذ الذي يؤدي الى الاصابة بمـــرض الاستعلاء أو شهوة الاستعراض الذاتي أو البحث عن الانتصارات المخربة، هذا الشذوذ الذي تتكامل ابشع تعبيراته في شخصية الدكتاتور... نعم، فاذا وجـــد ان فردا ما، مصاب بهذه الآفة أو محتمل ان يصاب بها، وجب ان تجـــرى لـــه عملية اخصاء لتقتل فيه هذا الشذوذ أو تضعفه.

ان حوافز الطموح الخبيث، والمغامرات العدوانية تضعـــف أو تمـــوت في الخصيان.

اتمنى ذلك مع ما فيه من وحشية وتراجع عن المدنية. انه لأفضل للبشرية ان تخصي طغاتها، من ان يخصيها طغاتها...

ليت جميع قادة العالم وزعمائه الخطريـــن يخصـــون... اذن لأصبحـــت احتمالات الشر اقل.

*

ان المجد والخلود هما اكبر الوحوش... هما، اكبر اللصوص في حياة البشر.

ايها المجد، ايها الخلود.

كم انتما قاتلان... كم انتما لصان. يا مجد الاصنام، يا خلود الاصنام، متى يصلبكما الإنسان... متى يحاكمكما على كل ذنوبكما... ؟

*

انه لا مصلحة للشعوب ولا للحكام في الوهية الحكام.

ان الحاكم الاله مظلوم معذب... وان الشعب كذلك مظلوم ومعذب.

هل يمكن ان يوجد رجال اسوياء يريدون أو يقبلون ان يكونوا حكاما آلهة يملكون امتيازات الآلهة وتبعاتها وآلامها الفكرية والنفسية وهموم وجودها الرهيب...؟

انه لا بد ان يكون هؤلاء الرجال شيئا لا يعقل لكي يفعلوا ذلك. ان مهنة الالوهية هي اخطر مهنة. انها اتعسها واقلها حظا من السعادة والسرور والامان والراحة. انها احقها بالشفقة الكئيبة.

لقد كان المؤمنون ظلمة قساة، حينما تصوروا الآلهة بكل تبعاتها ومسؤولياتها... لقد كانوا وحوشا لا يملكون اية رحمة في تصورهم لها على هذه المستوى من الارهاق والتورط... لقد كان المؤمنون يهجون الآلهة ويعاقبونها ويسخرون منها حينما وضعوها فوق هذا الكون.

انه حينما تزول الامراض والآلام، فلن يوجد في الأرض من يرضى بأن ينصب الها فوق هذا الكون.

*

ايها الكون ما اقسى العذاب الذي تعاني منه اربابك.

ايها الكون اسمح لأربابك بالانفكاك منك، ان كان لك اربـــاب، وكـــن شهما رحيما...

ايها الكون، هل انت عقاب لأربابك... هل اربابك عقاب لك...

ايكما الهجاء...

ايكما العار...

ايكما الضحية...

من الذي اجتذب الآخر...

من الذي عشق الآخر...

من الذي القى بنفسه على الآخر...؟



اللغة حرام بقرار دولي

ان كل من في العالم مشغول بالتحديق الى وجهه، عــن النظــر الى الآلام والعار في وجوه الأشياء... في اخلاقها، في وجه الشمس... في اخلاقــها، في وجه القمر... في اخلاقه.

ان كل من في العالم مشغول بمشاكله، بممارسته لذنوبــه عــن الغضــب لكرامته. مشغول بمشاكله، بهمومه ذات المستوى البرغوثي، عن هموم النجــوم ذات المستوى الكوني.

ان كل كائن في هذا العالم لتشغله آلام البرغوث التي يعيشـــها، دون آلام النبي التي لا يعيشها...

أن كل من في هذا العالم ليغضبه جوع البرغوث الذي يعنيه، دون جــوع الشمس الذي لا يعنيه.

إن انتحار الشمس التي لا نتعامل عليها، لن يصنع لنا شيئا من الانزعـــاج الذي يصنعه لنا انتحار الشمعة التي نتعامل عليها.

كان اعظم حبلى

ثم نبتت في الإنسان اللغة، وكان يعيش في صحراء التاريخ حينما نبتت فيـه اللغة.

لم يخترع الإنسان اللغة. إن اللغة نبتت فيه، وجدت، تفجرت، كما نبتـت فيه أعضاؤه وشهواته أتحزانه، كما وجدت، كما تفجرت.

لم يحاول الإنسان أن تكون له لغة، كما لم يحاول أن تكون له رجـلان، أو عينان، أو يدان، أو أن تكون له غرائز، وهموم، وجوع، واحتياجـــات. أو أن يكون كما كان... أو أن تجيء ذاته أو صورته كما جـــاءت... لم يحـــاول

الإنسان أن تكون له لغة.

لم يؤلف الإنسان مجامع لكي تضع له لغاته، كما لم يؤلف مجامع لكي تخلق فيه الأعضاء، لكي تخلق فيه القدرة على الحب، والممارسة والتناسل... لكي تركب فيه المشاعر.

إن اللغات هي عطاء البداوة، بداوة التاريخ. انها عطاء الصحراء. انها لم تكن عطاء المدينة... انها لم تكن عطاء الحضارة.

لقد أعطت البداوة اللغات، كما أعطت الإنسان المتحضر.

لقد ظل الإنسان طويلا طويلاً يعاني كل حواسه، كل انفعالاته... لقد ظل يعاني عينيه، وأذنيه، ومخاوفه، ورغباته، وتطلعاته، وأشواقه، وتساؤلاته... لقد ظل طويلاً طويلاً يعاني الكون، يعاني نفسه، يعاني الآخرين... يعاني الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والحر والبرد والوحوش والحشرات... يعاني كل الأشياء، وكل الناس.

لقد ظل يعاني كل ذلك بالرؤية، بالسمع، بالإحساس، بالخوف، بالحاجة، بالشهوة، بالحب، بالبغض، بالتصادم، وبالتناقض... لقد ظل يعاني كل عذاب وأحاسيس المواجهة المتناقضة المتطلعة المتزاحمة.

انه يرى ويسمع ويحس ويحب ويبغض ويخاف ويتناقض ويتصادم ويجرب... انه يزدحم ويزدحم بالمواجهة.

إن جميع الأشياء تزدحم وتتجمع فيه، أنها تخنقه، تضغطه، تمزقه، متجمعة، متزاحمة فيه من خلال حواسه، ومخاوفه وأشواقه واحتياجاته.

ان كل الناس، كل الأشياء تتجمع فيه لتتحول الى خناجر، الى حراب لتطعنه، لتمزقه من داخله، باحثة عن الانطلاق، تريد ان تتحول الى تعبير.

انه كائن يحبل، ويحبل ويحبل... يحبل بكل الكون، بكل الأشياء، بكل

الناس... انه يحبل باللغة وبالحاجة الى اللغة...

انه يحبل بكل الكون والأشياء وبكل الناس... انه يحبل بالمواجهة.

ان حواسه، عينيه، اذنيه، ان شهواته، ان اشواقه، ان تطلعاته تنقل الى داخله كل الكون، كل الناس، كل الأشياء لكي يحبل بكل ذلك... لكي يصبح كائنا يحبل... لكي يتحول الى اعظم حبلى بأعظم جنين. انه اعظم جنين... انه كل الكون، كل الأشياء، كل الناس. ان جنينه هو كل الكون، كل الأشياء، كل الناس.

ان الإنسان هو وحده الكائن الذي يحبل بكل الكون والأشياء والناس، لأنه هو وحده الكائن الذي يصطدم بكل الاشياء، بكل القوة والعمق.

كيف يلد الإنسان جنينه الباهظ التعذيب...؟

كيف يلقى بالاحتشاد الهائل المتجمع في داخله الى الخارج...؟

كيف يحوله الى تعبير... الى ولادة...؟

لقد ولد الإنسان جنينه بعد طول عذاب... لقد القى بالاحتشاد الاليم المتجمع في داخله... لقد القى به القاء لا تدبير فيه. لقد ولد جنينه فكان لغة... لقد ولد الكون المحتشد في داخله فجاء لغة... لقد تفجر الاحتشاد المتجمع في داخله تفجرا بطيئا متحولا الى لغات، والى تعبيرات اخرى... لقد تفجر الكون المحتشد في داخله يضغطه ويخنقه ويناقضه ويسائله، فتحول تفجره الى لغات والى تعبيرات اخرى.

لقد كانت اللغة هي الاسلوب الذي مارسه الإنسان للالقاء بالاحتشاد الكوني في نفسه، للتخلص من هذا الاحتشاد.

لقد كانت اللغة هي أحد أساليب الإلقاء بالكون خارج الإنسان. إذن، لقد ولد الإنسان لغته، أو ولدت فيه لغاته. لقد تفجرت فيه لغاته... لقد

وجدت... لقد نبتت فيه... وكان يعيش في صحراء التاريخ.

انه لم يخترع لغاته... انه لم يفكر فيها... لم يفكر في اختراعها... لم يفكر في مزاياها... انه لم يردها... انه لم يدبرها... انه لم يعرف ان لها مزايا... انه لم يختر ان تكون له لغة... انه لم يعرف كيف نبتت فيه اللغات، كما لم يعرف كيف نبتت فيه الأعضاء والشهوات والجوع والاحتلام، كما لم يعرف كيف يجيء... كيف يذهب.

لقد ولد الإنسان لغته، كما ولدت الأرض جبالها وصحاريها.

ان حواس الإنسان، ان اذنيه وعينيه واشواقه وتطلعاته التي كانت تنقل الكون، والأشياء، والآخرين الى داخله بمعاناة ولهفة، جعلته يحبل بالاحتياج، ويزدحم بالحاجة الى التعبير... جعلته يحبل ويزدحم بالاحتجاج والآلام، وبالاحتجاج الى الانفجار باسلوب ما، بأساليب مختلفة. لقد جعلته يلد هذا الحبل وهذا الازدحام... يلدهما لغات. لقد ولد اذن لغاته محاولا التخلص من الحبل... من الازدحام الباهظ الاليم.

ان لغات البشر هي اعينهم، هي آذانهم، هي كل حواسهم. انها كل تطلعاتهم واشواقهم، متصادمة بالكون والأشياء والناس، ممارسة لها ولهم، محتجة عليها وعليهم، عاشقة لها ولهم، باحثة عنها وعنهم، محاولة كشفها وكشفهم. ان لغات البشر هي كل ذلك، متحولة الى تعبير.

ان اللغات هي نوع من المقاومة... انها نوع من القتال... انها قتال يمارسه الإنسان ضد الكون والأشياء والآخرين. ان الآخرين والكون والأشياء تناقض الإنسان... انها تقتله وترفضه وتصنع لهفته وحزنه وهزيمته واحتجاجه، انه اذن لا بد ان يقاتلها... ان يقاومها.

لقد كانت اللغات نوعا من السلاح... من القتال من السباب... من

الصياح من التفجير... من الانفجار ضد الآخرين والكون والأشياء. انها نـوع من المقابلة... من الممارسة... من الاختلاط... من الدعوة... من البحث عـن الآخرين، والكون والأشياء... ومن الفرار أيضا.

ان اللغات اسلوب من أساليب رفع اليد في وجه كل موجود... كل مرئي كل مسموع... كل محسوس... كل محسوس به... كل دمامة... كل جمال.

ان اللغات اسلوب من أساليب رفع اليد في وجـه الأشـياء للمقاتلـة أو للمصافحة... للتحية أو للمشاتمة... لإعلان السلام أو لإعلان الحرب.

ان اللغات اسلوب من أساليب رفع اليد في وجه الناس والأشياء، تعبيرا عن الرضا... عن الغضب... عن القبول... عن الرفض... عن البكـاء... عـن السرور... عن الإنسان في جميع انفعالاته المتناقضة... عن الإنسان محاربـا... وعنه مستسلما.

*

هل كان من الممكن إلا يلد الإنسان لغاته... إلا تكون له لغات...؟

هو ممكن، هو غير ممكن، هو غير ممكن والإنسان كما هو، هو ممكن لـو كان الإنسان غير ما هو.

ان ذلك غير ممكن وهو بهذا المستوى من الكينونة، من كينونـة الـذات وكينونة المستويات... ان ذلك غير ممكن وهو بهذا المستوى من التطور الـذاتي والنفسي والعقلي...

ان مستويات الإنسان الانفعالية والعقلية والنفسية والبصرية والسـمعية، ان كل مستوياته الإحساسية والحسية، محتوم ان تخلق منه كائنا تحتشد وتتجمع فيه كل الأشياء، باسلوب احتجاجي متسائل متصادم... انه محتوم ان تخلق منـه كائنا يحبل بالأشياء، محكوما عليه بالولادة، محكوما عليه بالبحث عن الـولادة،

بالحاجة الى الولادة.

اما مستوياته الذاتية فالها تجعل هذه الـــولادة... ولادة اللغـــات... ولادة الإنسان للغاته، شيئا مستطاعا.

ان اللغات هي مستوى ذات، ومستوى صفات.

الها مستوى رؤية، ومستوى سماع، ومستوى أحاسيس.

الها مستوى تصادم بالأشياء واستقبال لها. انه لو كان الإنسان قد جـــاء في مستويات ذاتية وأدبية اقل، لأمكن ان يكون بلا لغات، أو لكان محتومـــــا ان يكون بلا لغات... لأمكن إلا يلد لغاته، أو لكان محتوما إلا يلد لغاته.

وهل كان ممكنا ان يجيء الإنسان على مستويات تكوينية اقل، أو مغـــايرة، أو أعلى أو أدنى...؟

ان الكائنات الأخرى تعيش في الظروف التي يعيش فيها الإنسان. الها تعيش كل المواجهات التي يعيشها الإنسان، والها مع ذلك لم تنبت فيها لغة، الهـــا لم تلد أية لغة.

ان مستوياها الذاتية والأدبية، ان مستوياها الحســـية والإحساســـية، دون مستويات الإنسان... دون المستويات التي تلد اللغة، دون المستويات التي تنبت فيها اللغة.

ان مستوياها غير قادرة على ان تجعلها مكانا للاحتشاد، مكانا لاحتشـــــاد الآخرين، والكون والأشياء فيها. الها غير قادرة على ان تجعلها كائنا يحبل، يحبل بكل موجود، وبكل مرئي، وبكل مسموع، وبكل محسوس، وبكل محســـوس به، وبكل دمامة وبكل جمال، كما جعلت الإنسان.

ان مستوياها غير قادرة على ان تجعلها كائنا يلد اللغات كمـــــا جعلـــت الإنسان.

انها لا تستقبل الاشياء... لا تراه... لا تسمعها... لا تمارسها نفسيا، كما يراها ويسمعها، ويمارسها الإنسان.

انها مهما رأتها وسمعتها وعاشتها، فهي لا تراها ولا تسمعها ولا تعيشها. انها لا تستطيع ان تستقبلالأشياء ولا ان تعبر عنها، كما يستطيع الإنسان.

ان مستويات الإنسان الذاتية والاحساسية، المادية والنفسية والعقلية... ان مستويات المواجهة فيه والاستقبال... ان مستويات الرؤية والتساؤل والاختزان فيه... ان جميع هذه المستويات الإنسانية، قد حتمت ان تجعل الإنسان كائنا يحبل... يحبل بالكون وبالاشياء وبالناس... كائنا يلد اللغات، ويلد التعبيرات الاخرى.

وكما ولد الإنسان حبله بالكون لغات، فقد ولده اشياء اخرى. لقد ولده حضارات، وفنونا، وافكارا، واشياء اخرى.

ان هذا السؤال: "هل كان من الممكن إلا يلد الإنسان لغاته" يساوي هذا السؤال: "هل كان من الممكن إلا يوجد النهر الموجود" "هل كان من الممكن إلا تكون الشمس بكل هذه الجهارة، بكل هذا الاسراف في الزينة والأضواء".

*

ثم نبتت في الإنسان اللغة، وكان يعيش في صحراء التاريخ حينما نبتت فيه اللغة.

لم يدرك يوم ان اصبح كائنا متكلما ماذا يعني ان اصبح كائنا متكلما... لقد كان يتكلم كما يحزن، كما كان يبكي ويصيح ويئن ويشاتم ويحب ويبغض. كان يتكلم كما يتحرك، كما ينام، كما يمارس ذاته بواسطة الأشياء، دون ان يفهم أو يفكر لكي يفهم ماذا يعني ان اصبح كائنا متكلما.

لقد كان يتكلم حينما كان يحزن ويبكي، ويئن ويشتم، ويحب ويبغض. لقد كان الكلام هو وسيلة التعبير العظمى. كان الكلام حزنا، وحبا، وبغضا، وخوفا، وسرورا مسموعا... كان انفعالا مسموعا.

انه ليس في العالم جهاز تحويل مثل اللغة... ان كل شيء يتحول الى كلام... ان ما ليس شيئا يتحول أيضاً الى كلام.

عينا الإنسان تتحولان الى كلام... اذناه تتحولان الى كلام... ان ما يسمعه... ان ما يراه... ان كل رؤيته... ان كل استماعه، يتحول الى كلام.

انت انسان، اذن انت تتحول الى كلام. يحولك الآخرون... تحول نفسك... تحولك نفسك.

الشمس، القمر، الصرصار، كل الكون، كل الكائنات، كل الآلام، كل الأشياء الكبيرة، كل الأشياء الصغيرة، تتحول الى كلام.

الآلهة، الاديان، الصلوات، رؤية الله، العجز عن رؤيته، احترامه، العجز عن احترامه، مخاطبته، رفض مخاطبته... كل ذلك يتحول الى كلام.

كل ما في الإنسان، كل ما حوله، كل ما يتخيله، كل ما يعتقده، كل ما يتمناه، كل ما يتوجسه، كل ما يخافه، كل ما يشاهده، كل ما يقبله، كل ما يرفضه، كل اخلاقه، كل نبل اخلاقه، كل سوء اخلاقه، كل ذكائه، كل غبائه، كل علمه، كل جهله، كل تاريخ، كل بداوته، كل فحشه... كل هذا يتحول الى كلام... كل هذا تحوله اللغة الى تعبير... الى اصوات... الى تعامل مع الآخرين... الى تصادم بهم... الى مشاتمة لهم... الى مصافحة... الى مضاربة... الى افتضاح.

انت ترى، اذن ستتحول رؤيتك الى كلام... الى لغة.

انت تسمع، اذن سيتحول سمعك الى كلام... الى لغة.

انت حاقد، انت حاسد، انت فاحش النفس، عدوانيـــها، اذن ســـيتحول حقدك وحسدك وفحشك وعدوانك، كل ما في نفسك الى كلام... الى لغة.

ان اللغة هي اضخم جهاز تحويل يملكه ويعرفه الإنسان. ان اللغة هي اوسع واعظم طريق يملكه الإنسان، يعرفه، يمر فيه، يمر منه، يمر اليه. ان اللغـــة هـــي اوسع وأطول طريق يتبدد فيه الإنسان، يضل، يموت.

ان كل شيء يمر من اللغة، ويمر في اللغة، ويمر الى اللغة. ان اكبر الأشـــياء، ان اصغر الأشياء تمر من اللغة، وتمر اليها، وتمر فيها. ان اجمل الأشياء وافضلــها واردأها تمر في اللغة، وتمر اليها، وتمر فيها، بقدر ما تحولها، وتتحـــول اليـــها، وتتحول بها.

انه لا يوجد من لا يتحول الى لغة، ومن لا يمر من لغة... انه لا يوجد ما لا يتحول الى كل لغة، وما لا يمر من كل لغة. انه لا شيء يترفع عن اللغـــة، وان اللغة لا تترفع عن شيء.

ان اللغة هي اشهر واكبر جهاز تحويل يملكه الإنسان ويعرفه، ويتحول اليه، ويتحول به، ويحول اليه، ويحول به.

ان اللغة هي اشهر وأوسع طريق يملكه الإنسان، أو يعرفه أو يمر به أو يمـــر منه أو يمر اليه. انها اوسع واعظم طريق تمر به كل الأشياء، أو تمر به، أو تمـــر منه، أو تمر اليه... ان اللغة هي اشمل واقصر وسيلة للمواصلات بين البشـــر، لتشييد العلاقات واقامة الجسور بينهم، وانها مع ذلك لأكذب واخطر وأســـوأ وأطول وسيلة... انهم جميعا يصنعون منها جسورا لتمر من فوقها العلاقـــات بينهم، ولكنهم جميعا لا يحترمونها... لا يثقون بها.

*

ثم نبتت اللغة في الإنسان، وكان يعيش في صحراء التاريخ حينما نبتت فيه اللغة.

واستمر الإنسان ينتقل باللغة، أو تنتقل به اللغة من البداوة الى الحضارة.

وايهما يفعل الآخر اكثر... اللغة ام الإنسان... وهل اللغة غير الإنسان... وهل الإنسان غير اللغة...؟

وحينما كان يعيش في بداوة التاريخ، لم تكن لغته سوى اطلاق غير محدد، لم تكن سوى اطلاق لا يعني به سوى الاطلاق. لم تكن لغته سوى اطلاق للاحتشاد المتجمع في داخله، وسوى القاء بالجنين الاليم الى الخارج. لم تكن لغته حينذاك سوى اطلاق للانفعالات، سوى تحويل لها الى اصوات مسموعة دون اهداف أو تحديد. انها لم تكن لغة، لقد كانت تصويتا... كانت غناء أو بكاء... كانت صراخا راضيا أو غاضبا... مرحبا أو منكرا... مهددا أو محييا.

لم تكن لغة الإنسان حينذاك، حينما كان يعيش في بداوة التاريخ تعني ان تقدم شيئا، ان تعلم شيئا.

لم تكن لغة الإنسان في بداوة التاريخ تعليما لمذهب، أو لاله، أو لصلاة أو لأخلاق.

انها لم تكن تعليما لشيء. انها لم تكن تصنع أي قيد أو أي التزام من أي نوع.

انه لم يكن وراء لغة الإنسان اذ ذاك طاغية، أو اله، أو معلم، أو مذهب أو نظاما، يريد ان يحولها – اي يحول اللغة – أو تحوله اللغة الى قيد، أو الى سجن أو الى معبد، أو الى سوط، أو الى حرب، أو الى مبارزة اعلانية... انه لم يكن وراء لغة الإنسان اذ ذاك، من يحاول ان يحول الناس بها الى طوابير من العميان، تسير وكأنها منومة تنويما علميا، الى اكبر المذابح... الى اكبر الحماقات... الى

اقل المستويات تحت مطارق الهوان والشقاء، والحرمان والخداع.

انه لم تكن لغة الإنسان اذ ذاك تعليما. انها لم تكن سوى تفريغ للاحتشاد والتجمع الاليم. انها لم تكن سوى اسقاط للجنين الباهظ التعذيب. ولكن الإنسان استمر ينتقل باللغة أو تنتقل به اللغة الى مرحلة الحضارة، الى المرحلة التي تصبح فيها اللغة صانعة قيود، وسجون، ومعلمة مذاهب وآلهة، واخلاق واكاذيب وعداوات... الى المرحلة التي تصبح فيها اللغة اوسع صناعة انسانية... اخطر صناعة انسانية.

الى المرحلة التي تصبح فيها اللغة سلاحا يحمله كل انسان، ضد كل انسان لقتله أو لتحقيره، أو لتعذيبه أو لاصطياده... يحمله كل انسان، ضد كل انسان في كل وقت...

يحمله بلا حرب كما يحمله في الحرب... يحمله بلا حرب اكثر مما يحمله في الحرب... يحمله كل مذهب ضد كل مذهب... وكل معلم ضد كل معلم. وكل نبي ضد كل نبي... وكل اله ضد كل اله... وكل شعب ضد كل شعب. وكل معبد ضد كل معبد آخر...

يحمله الأتقياء جدا، كما يحمله الفساق جدا...

يحمله الضعفاء جدا، كما يحمله الاقوياء جدا...

يحمله دعاة السلام، انصار السلام، مثلما يحمله دعاة الحروب، صناع الحروب...

يحمله من يريد الحرب بحجة انه يريد السلام، ومن يريد السلام باسلوب من يريد الحرب...

يسمعه من يريد السلام فيريد الحرب، ومن يريد الحرب فيدخل الحرب.

*

ثم نبتت اللغة في الإنسان، وكان يعيش في صحراء التاريخ حينما نبتت فيه اللغة.

ولكنه استمر ينتقل باللغة، أو تنتقل به اللغة، صاعدا بها، أو صاعدة به، الى الطور الذي اصبحت فيه اللغة هي الخالقة لكل الأشياء، هي الخالقة للآلهة وهي التي تخلق بها الآلهة... هي الخالقة للانسان، وهي التي يخلق بها الإنسان، وهي التي تخلق رذائله... هي التي تخلق ذكاءه وقوته، وتخلق غباءه وضعفه... تخلق شجاعته ورفضه، وتخلق جبنه واستسلامه...

الى الطور الذي اصبحت فيه اللغة هي خالقة النور، هي خالقة الظلمة... هي خالقة الحب، هي خالقة البغض... هي خالقة الحرب، هي خالقة السلام... هي خالقة التاريخ، هي خالقة الحياة... هي خالقة السرور والرضا للاله، هي خالقة الحزن والغضب للاله... هي خالقة لجنته، خالقة لناره.

الى الطور الذي اعلن فيه الإنسان انه "في البدء كانت الكلمة".

الى الطور الذي اعلن فيه الإنسان ان الله ليس سوى كلمة، وانه هو الكلمة، وان جميع الأشياء ليست سوى كلمات منه "وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون".

لقد عبد البشر اللغة، لقد حولوها الى عبادة، الى مغازلة للاله. لقد حولوها الى صلاة، الى ممارسة كاملة للاله.

لقد جعلوا اللغة تحكم الاله، جعلوها تخضع قوانين الطبيعة. ان مشيئة الاله تخضع اللغة، تخضع للصلاة والدعاء وهما لغة، وان الطبيعة تخضع لمشيئة الاله... اذن الطبيعة تخضع للغة، لأن الاله يخضع للغة.

لقد جعلوا اللغة تحكم الاله، وتحكم الطبيعة، لقد جعلوا اللغة شيئا اكبر من الاله، من الطبيعة.

*

والآن ماذا تعني اللغة...؟

ماذا تعني الكلمة بعد مسيرتها الطويلة الطويلة... في كل الدروب... تحت كل الظروف والمناخات، متلوثة بكل ما في الإنسان... بكل ما في السوق والحياة من وحل وعرق وتعب وغباء واحزان ومن عطر وسرور وراحة وذكاء وترف ومن محبة وبغضاء ومن امان ومخاوف... وبعد معاركها الدائمة ضد كل الاشياء، ومع كل الأشياء... مع كل شيء ونقيضه... مع المذهب ونقيضه... مع الاله ونقيضه... مع الطاغية ونقيضه... مع الدين ونقيضه... مع المنطق ونقيضه... مع كل ذلك، وضد كل ذلك... مع المذهب وضده... مع الاله وضده... مع الطاغية وضده... مع الدين وضده... مع الصدق وضدده...

ماذا تعني اللغة... ماذا تعني الكلمة...؟

الآن، ماذا تعني اللغة، ماذا تعني الكلمة بعد ان اصبحت تملك من القدرة على الافتضاح والتلوث والتلون والكينونة والوصول والتوصيل والعدوان والتأله والقتل، ما لم يستطع جميع الاولين ان يتخيلوا لجميع آلهتهم الرهيبة... ماذا تعني بعد ان اصبحت هي الجهاز الذي يفعل به الاله الاشياء، وهي الجهاز الذي يفعل به الناس الاله...؟

ماذا تعني بعد ان اصبحت كل العبقريات، كل الاكتشافات، كل الفنون، كل العلم، كل التقدم، كل البشر وقودا لجنونها، خبزا لجوعها، تحريضا لفسوقها، جنودا لغزواتها، تشريعا لعدوانها، نبوة لبذاءتها...؟

ماذا تعني اللغة، ماذا تعني الكلمة...؟

الآن ماذا تعني اللغة، ماذا تعني الكلمة بعد ان اصبحت قذائف يطلقها

اشرس الطغاة، واقوى المذاهب عدوانا وتعصبا... تطلقها اعلى الاجهزة دويا وانطلاقا - بعد ان اصبحت تتحفز وراءها اقوى الجيوش، اغبى الجيوش، اكبر الجيوش، اكثر الجيوش ايمانا بالموت والخراب، اعظم الجيوش قدرة عليهما اخذ وعطاء، آخذة لهما معطية لهما، باعثة بهما، مرحبة بهما، مالكة افتك الاسلحة، اكثر النفوس كرها، اقدر العقول على الايمان بالغواية، اجرأ الاخلاق على التعامل بالجحيم، اشره الزعامات بحثا عن مجد الدم... عن مجد الجنون...؟

ماذا تعني اللغة، ماذا تعني الكلمة...؟

الآن ماذا تعني اللغة، ماذا تعني الكلمة بعد ان اصبحت تتعامل مع اعلى المستويات... مع اعلى المستويات توترا وخوفا وبغضا وتوجسا وعقائدية وعداوة واستعدادا وقدرة وحشدا وعلما وكبرياء ومذهبية وعقلية وعلمية وقومية وثورية...؟

ماذا تعني اللغة، ماذا تعني الكلمة الآن...؟

كان مجدهم كلاما

تاريخ العرب في ممارسة الكلمة وفي الحكم عليها تاريخ طويل، مثير للحيرة، وللعجب، وللنقد، وللخوف، وللكآبة ايضا، وللافتضاح احيانا.

لقد مارسوا الكلمة ممارسة هي كالهجاء لحكمهم عليها. لقد جاءت ممارستهم لها وكأنها تعبير لتقويمهم لها. لقد ارتفعوا جدا في تقديرهم للكلمة، بقدر ما هبطوا جدا في ممارستهم لها. لقد اسرفوا جدا في تقديرها ونزلوا جدا في تحقيرها وتلويثها حين مارسوها.

قالوا ان عبقريتهم - ان كل عبقريتهم - هي الكلمة. انهم ليسوا اكثر من الكلمة في مستوياتها البلاغية المختلفة... ليسوا اكثر من فنون البلاغة، ليسوا اكثر من تجويدهم لأساليب الفصاحة، من تجويدهم للشعر والخطابة ولكل

الاساليب في ممارسة الكلمة.

ان العرب حيثما كانوا، حيثما تحركوا، حيثما تغيروا، فهم ليسوا اكثر من كلمة معجزة متحدية. ليسوا اكثر من كلمة تصعد بهم فوق كل الناس، تعجز كل الناس عن ان يقاوموها... عن ان يفسروها.

ان الشعب العربي هو الشعب المتحدي... انه يتحدى بالكلام. لقد تحدى ويتحدى بالكلام... تحدى ويتحدى كل الناس، كل الجن.

لقد كان العرب نبوة. كان تاريخهم، كان مجدهم، كان نبيا، كان نبيهم لغة... كان نبيهم كلاما. كانت معجزته الكلام... الكلام الذي لم يقل مثله ولن يقال، كانت معجزته الكلام الذي لن يناظر أو يفسر أو يفهم إلا بقليل جدا من معناه... بقليل جدا من اسراره، من فنون بلاغته.

كان مجد العرب كلاما... كلاما، كان كل شيء بعض تفسيراته.

كان مجد العرب نبيا.

كان نبيا يجيء بالكلام، فيسجد له ويهزم به كل العالم، كل العالم، كل العالم المنظور، وكل العالم المستتر... فيسجد له ويهزم به كل الانس، كل الجن، كل العقول، والبراعات، والحضارات وكل التاريخ... كل الذين كانوا، وكل الذين سوف يكونون... كل العالم الذي يرى، وكل العالم الذي لا يرى... كل الجن وكل الانس، يركعون، ويهزمون امام مجد العرب، مجد النبوة، نبوة الكلمة، كلمة العرب، العرب الذين مجدهم الكلام، الكلام الذي تحدى فاعجز كل الجن، كل الانس، في كل التاريخ.

كان مجد العرب نبيا... كان مجدهم نبيا يجيء بالكلام.

لقد كان العرب كتابا، كانت عبقريتهم، كان تاريخهم، كتابا، كتابا تسير كل الاحداث والتاريخ والناس والحضارات والفلسفات... كل العصور بين

صفحاته، بين سطوره، بين كلماته، لاهثة راكضة دون ان تنقضي صفحاته أو سطوره، بل أو كلماته... دون ان تبلغ كل الاحداث، والتاريخ والناس والحضارات والفلسفات نهايته... نهاية الكتاب، أو نهاية سطر من سطوره، أو كلمة من كلماته.

دون ان تستطيع كل الاحداث، والتواريخ، والحضارات، والفلسفات، في كل العصور بأن تكون تفسيرا لصفحة، أو لسطر، أو لكلمة من صفحاته، أو سطوره، أو كلماته.

ان العرب اكبر من كل شيء... انهم اكبر من الكون، من كل التاريخ، من كل البشر... انهم اكبر من كل ذلك بالكلمة، بالكتاب... انهم اكبر، انهم اكبر.

كان العرب، كان مجد العرب كتابا، كتابا يعيش فيه كل شيء، يحوي كل شيء دون ان يزدحم... يفسر كل شيء دون ان ينفد أو ينقص، أو يكتشف سر من اسراره... تتجمع كل العبقريات، في كل البشر، في كل التاريخ لتفسر كلمة منه كل تفاسيرها فلا تستطيع.

ان كلمة واحدة في كتاب العرب، اقوى من كل عبقريات الإنسان.

كان مجد العرب كلاما، كان كتابا تجد كل الامم، كل المجتمعات، كل الحضارات، كل المذاهب، والنظم، والكائنات نفسها فيه، دون ان تصاب بالتزاحم بين سطوره وكلماته، أو في تفسير اسراره... دون ان تصاب بالازمة المكانية أو التفسيرية.

كان مجد العرب كتابا يجمع كل الكون دون ان يزدحم.

كان العرب نبوة، كانوا كتابا... كانوا كلاما.

كان للعرب اله، كان لهم اله عظيم، عظيم. تنزل عليهم، اراد ان يهبهم

نفسه، ان يهبهم اعظم ما فيه، ان يريهم اجمل ما فيه، ان يقهرهم باقوى واذكى ما فيه. فوهبهم كلاما، واراهم كلاما، وقهرهم بكلام...

انه لم يجد اعظم من الكلام لكي يكونه، حينما اراد ان يعرض ذاته عليهم ان يقنعهم بمزاياه وقوته وعبقريته وبحبه لهم... ان يتحداهم، ان يعجزهم، ان يظهر لهم، ان يظهر فيهم، ان يكون مجدا من امجادهم، ان يكون تحديا من تحدياتهم.

لقد كان للعرب اله، لقد كان لهم اله تحول الى كلام، الى كلام تنزل على نبي، نبي حوله الى كتاب. لقد اصبح اله العرب كتابا، لقد اصبح كلاما... حتى الاله لقد اصبح كلاما... اصبحت قدرته وتعامله معهم كلاما.

ان مجد العرب كلام... ان معجزات نبيهم كلام... ان صفات الهتهم كلام... ان تقديرهم اذن للكلام تقدير فيه كل معاني التدين، وشطحات الصوفية المتنازلة عن كل حقوقها في المنطق، وفي احترام السلوك، وضبط الذات بأي مستوى من مستويات الضبط.

اما ممارستهم للكلام فقد كانت ممارسة فيها كل الفسوق، فيها كل مستويات الفسوق، وتفسيراته، ونياته، ولغاته، وافتضاحه، واعلانه... فيها كل كفر الممارسة وفسوقها.

كانوا لا يضعون اية شروط على ممارسة الكلمة... كانوا لا يعرفون ان لممارسة الكلمة اية شروط، لا يعرفون أو يضعون لها شروطا من أي نوع، لا من الاخلاق ولا من الذكاء، ولا من المعرفة، ولا من الصدق، ولا من الوقار أو التهذيب، أو الاحترام للنفس، أو للمتحدثين عنهم أو اليهم أو للغة نفسها.

كانوا يتكلمون ويكتبون... كانوا يخاطبون كل الدنيا، وكل التاريخ، وكل الناس... كانوا يكتبون الى كل الحاضر، الى كل المستقبل وكل الكون، وكل

الناس، يعلمون ويأمرون وينهون ويفسرون ويحكمون ويحللـــون ويحرمـــون، وكأنهم يجربون قدرتهم على ان يفتضحوا، ويكذبوا، ويجـــهلوا، ويســـفهوا، ويشمتوا، ويهجوا انفسهم، كأن الكلام عندهم انما هو مقدرة على الكـــلام مستوى من المستويات الذكية أو المحترمة أو المهذبة، أو التي يمكن ان تكـــون مصدقة، أو حتى خادعة.

لقد كان الكلام عند العرب نوعا من القذف. انه ليس مستوى من الذكاء أو الاخلاق أو التعبير عن شيء، عن شيء يرونه أو يعرفونه، أو يؤمنون به، أو يريدون ان يهبوه الحياة أو الإنسان. ان الكلام عندهم لم يكن عملا يعنى بـــه شيء، لم يكن تعبيرا له فن، أو موهبة، أو مستوى. لم يكن شـــيئا يعطـــى أو يؤخذ، وانما كان نوعا من الانفجار الملوث... انه كانفجار الخراج، أو العضو، أو المكان الاليم. كانوا ينفجرون على انفسهم، وعلى الآخرين، وعلى التاريخ، حينما كانوا يتكلمون، حينما كانوا يبدون كمن يتكلمون، حينمـــا كـــانوا يفسرون بأنهم يتكلمون. كانوا ينفجرون على انفسهم وعلى الآخرين وعلـــى التاريخ، انفجارا ملوثا حينما يتكلمون. كانوا يتلوثون ويلوثون الناس والتاريخ، حينما كانوا يبدون كمن يتكلمون، حينما كانوا يفسرون بأنهم يتكلمون.

*

ما اقسى المجد الذي شيدته للعرب ممارستهم للكلمة. انه مجد من الضعـــف والافتضاح... انه مجد من الخراب... انه مجد من المقابر المشوهة.

انها صفوف طويلة، طويلة من القبور، من الكلام، من الكتب التي كأنمـــا تعمد التاريخ ان يجمع فيها كل مستويات الضعف، كل اساليبه والوانه ليـــهجو بها العرب... كأنما كان اهتمام التاريخ ان يكون عدوا للعـــرب وحدهـــم... كأنما كان يريد ان يجمع عليهم كل غضبه وتحقيره، كأنهم هم الذين صنعـــوا

عاهاته واحزانه وفضائحه... كأنه بما فعل انما يحاول ان يعاقبهم كمنتقم فظيع الانتقام... كأن كل عمل التاريخ ان ينتقم، وكل مزية عنده ان ينتقم منهم بالتشهير بهم.

ايتها الصفوف الطويلة... ايتها القبور... ايتها الكتب... ايتها القبور الكتب.

كم فيك من الضعف... كم فيك من البذاءة، من الفحش، من الاكاذيب، من الغباء، من الجهل، من الأوهام...

كم فيك من الغرور، من الادعاء، من الطفولة، من البداوة، من العدوان، من الرضا عن النفس...

كم فيك من التعصب، من الكراهة، من التحريض، من التحقير للانسان... كم فيك من الهجاء لكل حضارة، لكل ذكاء، لكل تفوق...

ايتها الصفوف الطويلة، ايتها الكتب، ايتها القبور، ايتها الكتب القبور.

من فيك من القحط الإنساني... كم انت صحراء لا ينبت فيها الإنسان، لا تعيش فيها مستويات الإنسان، لا تعيش فيها اخلاق الحضارة...

ايتها الصفوف الطويلة.

الا تستطيعين ان تزوّري نفسك...؟

الا تستطيعين ان تتحولي الى كل اللغات، الى لغات كثيرة، لكي تتوزعي على كل الشعوب، لكيلا تظلي ذنبا للعرب وحدهم...؟

الا تستطيعين ان توزعي نفسك على كل اللغات، على كل المجتمعات...؟

لا تصبحي هجاء للعرب وحدهم، لا تصبحي خطيئة للغة العربية وحدها... لا تفعلي، لا تفعلي...

لا تفعلي ذلك ايتها الصفوف الطويلة وكوني رحيمة... كوني رحيمة،

ايتها الصفوف الطويلة...

ايتها الصفوف الطويلة، زوري نفسك، تحولي الى كل اللغات... انتسبي الى كل الشعوب... زوّري نفسك لئلا تظلي اثم العرب وحدهم، لتصبحي اثم العالم كله... اثم كل اللغات لئلا يظل الاثم كله اثم العرب وحدهم، اثم لغتهم وحدها.

حاولي ايتها الصفوف الطويلة ان تجعلي العالم كله آثما... اجعلي كل شعب آثما بعض الاثم ولا تجعلي شعبا واحدا آثما كل الاثم. افعلي ايتها الصفوف الطويلة... افعلي ذلك وكوني رحيمة... كوني رحيمة.

ايتها الصفوف الطويلة تفرقي، تفرقي... ايتها الصفوف الطويلة، تفرقي على كل العالم، على كل لغات العالم... تفرقي فانك تجعلين كل العالم يملك كل الغباء والافتضاح... تفرقي فانك سوف تبقين للعرب ما يجعلهم يملكون كل الغباء والافتضاح...

تفرقي، تفرقي، ايتها الصفوف الطويلة...

تفرقي وكوني رحيمة... كوني رحيمة ايتها الصفوف الطويلة...

ايتها اللغة، يالغة العرب يا لغة الاعجاز والتحدي، يا لغة الكتاب المتحدي... كم انت مذنبة... كم انت معجزة... كم انت معجزة مذنبة يا لغة العرب... يا لغة الاعجاز، يا لغة التحدي.

ألهم تاريخ كريم...

ولكن ماذا اليوم...؟

كيف يمارس اصحاب اللغة المتحدية المعجزة، كيف يمارسون الكلمة اليوم...؟

كيف يمارس الكلمة اليوم اصحاب الكلمة المعجزة... اصحاب الكتاب

المعجز...؟

ها هي الحضارة العظيمة قد وضعت كل فنوها، كل جنوها، كل عبقرياقما، كل منجزاقما، بابتذال تحت شهوات كل غوي... كل عاجز، كل مهرج، كل كذاب، كل مفتضح، همجي النفس، والعقل، والاخلاق، والتاريخ، واللغة، لينشر قبحه على كل العالم، ليشتم كل العالم، ليتحداه، ليتكبر عليه، ليتحول الى معلم له، الى مؤدب، الى مهدد، الى مهدم... ليتحول الى عار، الى مجد للعار الى مجد لمجد العار...

ها هي الحضارة المبتذلة المهانة، قد اعطت كل نفسها للصغار جدا لكي يتحولوا الى كبار جدا في عارهم، في استعراضاقم، في لغاقم، في قمديداقم، في ادعاءاقم، في بذاءاقم، في تحدياقم... ها هي الحضارة قد تحولت الى مخادنة للتافهين والعاجزين عن ابداعها وفهمها، لكي يحولوها الى عمليات عرض لعاهاقم وافتضاحاقم... ها هي قد تحولت الى نشيد همجي في افواه الصغار، والى نشيد همجي في تمجيد الصغار... ها هي قد تحولت الى فنانة رخيصة لتغني للصغار، لتغني بهم، لتغني عنهم... ها هي الحضارة قد تحولت الى جهاز ضخم ليعرض الصغار، ليفرضهم، ليعرض ذنوبهم، وعاهاقم، ليفرضها على كل العالم... ليفرضها ويعرضها بكل الاساليب، بكل اساليب والاغواء والاغراء...

ها هي الحضارة قد اصبحت عقابا لنفسها، عقابا للمنتصرين... ها هي الحضارة قد اصبحت تحقيرا لنفسها، تحقيرا للمتحضرين... ها هي قد تحولت الى عاشقة مستهترة قمب كل عرضها لأعدائها، لمن لا يملكون خصائصها، لمن يملكون نقيض خصائصها، لكي يحولوها الى عار، الى افتضاح، الى فحشاء ضاجة، لكي يخضعوها لخصائصهم، لكي يعتدي تخلفهم على تفوقها، لكي تفجر خصائصهم بخصائصها، لكي تفجر لغتهم بكل مزاياها.

تحت هذه الظروف القوية جدا، المحابية لأقبح ما في الإنسان ضد افضل ما في الإنسان... المحابية جدا للافتضاح ضد الاحتشام، للغباء ضد الذكاء، للتخلف ضد التقدم...

تحت هذه الظروف... كيف اصبح العرب يمارسون اللغة، أو يمارسون انفسهم بواسطة اللغة، أو تمارس اللغة نفسها بهم، باخلاقهم، بموهبتهم، بواسطتهم...؟

كيف اصبح العرب أصحاب الكلام، اصحاب الكتاب المتحدي المعجز لكل الجن، لكل الانس، لكل الكون، لكل الماضي والمستقبل... كيف اصبحوا يمارسون اللغة، أو يمارسون انفسهم من خلال اللغة، أو تمارس اللغة نفسها من خلال خصائصهم...؟

ان اللغة هي اشمل جهاز للفضح مارسه البشر ضد انفسهم، يفضحون به اعضاءهم العقلية، والاخلاقية، والنفسية، والحضارية المستترة.

*

كنت كثيرا ما اتحدث عن زعيم عربي لدولة عربية كبيرة... كنت كثيرا ما اتحدث بعذاب، بغضب، بكآبة عن هذا الزعيم العربي.

كنت اقول ان لهذا الزعيم العربي مزية لا يمكن حجبها ولا جحدها عنه، وان كان لا ينبغي حسده عليها. انها مزية سيكتبها له التاريخ بكل طبعاته ولغاته. هذه المزية انه استطاع ان يفضح العرب... ان يخطيء... ان يكذب كل ما كان يروى عن تاريخهم... كل ما كانوا يروونه هم... كل ما كان يروى عنهم ولهم...

لقد استطاع هذا الزعيم ان يهدم بسهولة تاريخا ضخما من المجد، من المجد الذي كان رواية. لقد هدم مجدا من الرواية، من التاريخ المروي... هدمه

بعبقرية، بعبقرية همجية...

لقد كانت كل روايات التاريخ تقول ان العرب يملكون مواهب لا حـدود لها، من الشجاعة والرفض، وشمم الأنوف...

كانت كل روايات التاريخ تقول انه لم يوضع على موائد العرب منذ مجّـد الله نفسه بخلقه لهم سوى طامعين: الموت أو الانتصار، الموت والانتصـــار... الموت قتلا، أو الانتصار قتالا.

كانت كتب العرب المقدسة، كانت اشعارهم، كانت كـــل حكايـــاهم، كانت كل كتب التاريخ التي كتبوها، أو كتبت عنهم... كانت كلها تتحدث بكبرياء عن شجاعتهم التي لا تقبل ابدا ان تفاوض أو تساوم على نفسها، حتى ولا الموت، لا تقبل المساومة على الموت... وعن حريتهم التي لا يقبلون امتلاك ذات الله... امتلاك الله نفسه ثمنا، أو بعض الثمن لفقدها، لفقد شيء منـــها... كانت كلها تتحدث عن شموخ اخلاقهم التي ترفض أي مكان اقل من هامـــة الشمس موطئا لاقدامها، موطئا لنعالها، سريرا لتثاؤبها واسترخائها...

كانت كل تلك الكتب والاشعار والأقاصيص تتحدث عن شموخ اخـــلاق العرب التي لا بد ان تعاني من التواضع والهوان، لو انها قبلت المجرة لها كرسيا... لو انها قبلت المجرة لها موطئ اقدام...

كانوا - كما تقول روايات التاريخ - يتكبرون من كبريائهم على الحياة، وعلى الموت الذي يجيء متخفيا، متواضعا، مترفقا، مستحييا... انه العـــار ان يموت العربي كما يموت الناس موتا طبيعيا... انه لا بد ان يموت مقاتلا، قاتلا، مقتولا، طعنا وبقرا وعقرا وتمزيقا وتحريقا... ان العربي لا يموت، انه يقتـــل. كانوا من كبريائهم وايمانهم بتفوقهم، يرفضون ان يسووا بالبشر، كانوا يـــرون ان القول بأن البشر متساوون في مزاياهم نوع من الهجاء البذيء لهم...

كانوا يرون احيانا ان تفضيلهم على البشر اسلوب من اساليب التحقير لهم. انهم لم يكونوا يقبلون من اعجابهم بانفسهم ان يقرنوا بالبشر ولو باسلوب التفضيل لهم. ان تفضيلهم على الآخرين وضع لهم مع الآخرين...

ان وضعهم مع الآخرين في الحديث عنهم ولو تفضيلهم، هجاء لهم.

كانوا يقولون انهم لا يقبلون الوسط. انهم لا بد ان يكون لهم وحدهم الصدر دون كل العالمين، والتقدم على كل العالمين، والا فلا مكان لهم سوى القبور...

حتى آلهتهم ودينهم ونبيهم، ليست في مستوى آلهة البشر، واديانهم، وانبيائهم. انه لكافر... كافر من يجرؤ على الزعم ان دين العرب أو الههم، أو انبياءهم، مثل اديان وآلهة وانبياء الآخرين...

كانوا فوق كل البشر... كانوا فوق كل المقاييس، والنماذج الموجودة، والمقدسة، والمطلوبة... حتى آلهتهم واديانهم وانبياؤهم، هي فوق كل الاديان والآلهة والأنبياء. ذلك ما كانت تقوله كل مصادر التاريخ ورواته.

حتى جاء هذا الزعيم العربي، الذي كأنما ارسلته الجحيم، كأنما ارسله اعداء العرب من الجحيم ليكذبوا به كل روايات التاريخ عن العرب، ليفضحوا به كل اخلاق العرب، ليفسروا به العرب تفسيرا آخر...

حتى جاء هذا الزعيم، الذي كأنما تجمع كل اعداء العرب من كل عرق، في كل عصر، فخلقوه ونصبوه، لكي يفضحوا به اخلاق العرب، لكي يكذبوا به تاريخ العرب، لكي يشفوا حقدهم على العرب...

حتى جاء هذا الزعيم، لكي يقرأ العالم العرب من جديد، لكي يقرأ العرب انفسهم، انفسهم من جديد... لكي تتحول كل روايات التاريخ الى اكاذيب... لكي تتحول مزايا العرب الى افتضاح...

حتى جاء هذا الزعيم العربي، ليصبح اعلان تكذيب عالميا عن تاريخ العرب الذي ظلت الروايات والأشعار والأقاصيص ترويه وتبنيه في ثلاثين قرنا من الزمان الصعب الجحود.

لقد استطاع هذا الزعيم القادم حديثا من وراء كل تفسير ومنطق، من وراء كل الظنون، لكي يهوي على كل ما قيل في العرب، وعن العرب من احتمالات الشجاعة، احتمالات الرفض، احتمالات الكرامة، احتمالات الحرية، احتمالات المقاومة، احتمالات الغضب، احتمالات الذكاء... لكي يهوي على كل ذلك بضرباته الماحقة، لكي يهوي بصيحاته وتهديداته المتوترة... لكي يهوي بتشنيعاته، ودعاياته، وأكاذيبه المرجفة... لكي يهوي، لكي يهوي، يذبح المجد الاصيل، المجد المروي، المجد المزعوم... لكي يذبح، ويذبح، ويذبح...

لقد هوى بضرباته وبدعاياته، وصيحاته، وتهديداته، وتشنيعاته...

لقد هوى ثم هوى حتى مات كل شيء امامه... حتى صمت كل شيء... حتى انهزم كل شيء... حتى استسلم كل شيء، دون ابقاء أي شيء من الكرامة، دون امل في استرجاع شيء من الكرامة.

لقد انتصر هذا الرجل على ثلاثين قرنا من المجد، والتاريخ، والرواية، والأجيال المتعاقبة... لقد انتصر باسلوب تخجل منه الكرامة والذكاء... لقد انتصر، لقد انتصر...

لقد ماتت وصمتت كل الروايات... لقد مات وصمت كل التاريخ... لقد ماتت وصمتت كل مزايا العرب... لقد مات وصمت، كل العرب، كل رجل في العرب...

لقد ماتت وصمتت دواوين العرب واشعارهم ومفاخراتهم وكتبهم المقدسة

المتحدثة عن مزاياهم التاريخية.

لقد مات وصمت كل ذلك، لقد تحول كـــل ذلــك الى زور، وعــار، وافتضاح تحت ضربات هذا الزعيم القادم من غابات التاريخ، لكي يتحـول الى اعظم مكذب للتاريخ، الى اعظم هازم للتــاريخ، الى اعظــم بــاصق علــى التاريخ... تاريخ العرب الذي عانت آلاف الاعوام لكي تكتبه...

لقد ماتت كل مقابر العرب، لقد مات كل ما في مقابر العرب من مجد، من نخوة، من رواية تحت اقدام هذا الرجل... لقد تحولت مقابر العرب الى عـــار تحت اقدامه الواطئة على هامة التاريخ...

*

لقد التفت الى شعبه فحوله الى هشيم بلا عناء، بلا عناء كبير، ثم التفت الى كل زعماء العرب واقطابهم، الى كل ادبائهم وكتابهم، ارتجافا وتخويفا، فتهاووا تحت ضرباته وكأنهم كانوا بلا قامات، بلا ظهور، كأنما خلقوا حطاما وأشلاء، كأنما خلقوا هزيمة وجبنا...

لقد تحول كل الزعماء والاقطاب، كل الكبار في العرب امام هذا الرجـــل المعاقب لمقابر العرب، الى قصة في التاريخ... الى قصة عار مثيرة حزينة مهينة...

لقد راح بوحشية هائلة يصفعهم، ويصفعــهم، ويركلــهم، ويركلــهم، ويركلهم، فردا فردا، جماعة جماعة، مجتمعين، مجتمعين، فيتــهاوون ســقوطا، سقوطا، على الارض، على الأرض... طالبين الرحمة والغفران، باسم الأخــوة، باسم العروبة، باسم الدين، باسم الرحمة، باسم الشهامة، باسم أي شيء...

انه يشير اليهم بقبضته اللاعنة: ان تفرقوا ايها الغثاء، ايها الغباء، ايها الخونة العملاء، ايها الرجعيون... فيتفرقون بطاعة وبكاء...

انه يشير اليهم: ان تعالوا ايها المناكيد، فيطربون، فيطربون ويطيرون فرحا،

مقبلين شاكرين حامدين... فيطربون فيطربون، فيطيرون.

انه يلعنهم ويشتمهم فيستغفرون... انه يتهمهم ويشنع عليهم، ويلقي على اعراضهم كل اوحال الدنيا فيتوبون. انه يطردهم فلا يملون قرعا لبابه، فلا يملون قرعا لبابه، انتظارا لصفحه وغفرانه...

انه المذنب الدائم، انه المعتدي الدائم، وانهم المستغفرون التائبون الدائمون... انه النموذج في عدوانه، انهم النموذج في غفرانهم...

انهم اذا قاوموا، لو قاوموا - وقد يفعلون ذلك احيانا بقلوب واجفة - انهم اذا قاوموا، لو قاوموا فانهم لا يقاومون. انهم بذلك انما يطلبون الرضا والقبول... انهم بذلك انما يقرعون باب التوبة باسلوب مهزوم ذليل بليد. انهم يبكون ويستغفرون باسلوب من يقاومون...

ان هؤلاء الاقطاب والزعماء العرب لمستعدون ان يدفعوا اكبر الاثمان، ان يدفعوا كل الأثمان ليشتروا شيئا واحدا، ليشتروا رضا هذا الرجل، ليشتروا سكوته عنهم، ليشتروا مهادنته لهم ولو ظاهرا، مهما احتقرهم ولعنهم في سره...

انهم لمستعدون ان يشتروا هذا الامل، هذا الانتصار بكل قطرة من كرامتهم، من نخوتهم، من شرفهم...

اما ان يتحول هذا الرجل الى مادح لهم أو صديق، فذلك هو الشيء الذي لا يجدون ما يمكن ان يدفعوه ثمنا له، لضخامته في تقديرهم وامانيهم. انهم لمستعدون ان يشتروا ابتسامة جانبية من ابتساماته المصافحة أو المصالحة بكل وجه الله الراضي، لو كانوا يملكونه...

ان هذه القصة لا تزال تكتب وتنشر وتقرأ... قصة الرجل الذي حول كل الزعماء العرب الى فضيحة، الى عار... قصة الرجل الذي حول كل روايات

التاريخ، كل فضائل العرب، كل ما كانوا مقتنعين به، لأنفسهم... قصة الرجل الذي حول كل ذلك الى خرافة حزينة بليدة.

اية هدية هو هذا الرجل... اية هدية قد تأنق الشيطان في اهدائها الى كل الكارهين للعرب، الى كل الطاعنين في مزاياهم... اية هدية هو هذا الرجل...

رجل يسقط فجأة من الظلام يستطيع دون أي عناء، دون عناء كبير ان يحول شعبه الى هشيم، ان يتوعد ويهدد بقبضته من بعيد، فيتحول كل اقطاب العرب، كل زعمائهم، كل ادبائهم وكتابهم الى هزيمة، الى هوان، الى مسكنة...

رجل يسقط فجأة من الظلام يحول كل تاريخ العرب، كل ما يقال عنهم كل مايقولون عن انفسهم الى خرافة، الى تزوير...

رجل واحد يسقط عشرين قرنا من المجد، والرواية، والتاريخ والقبور.

رجل واحد يسقط عشرين قرنا من المجد بالوعيد، والسباب، وبالضربات في الهواء...

هذا الرجل... كيف يقول كل هذا الذي يقول عن اقطاب العرب وزعمائهم...

كيف يجرؤ عليه...

كيف يغفرونه...

كيف يسمعونه...

كيف يقبلون الاجتماع به...

كيف يقبلون مخاطبته...

كيف يقبلون مصافحته...

كيف...؟

كيف يستطيعون ان يعيشوا، ان يخرجوا للنـــاس، ان يراهـــم النـــاس، ان يبتسموا، ان ينجبوا الاطفال، ان يقبلوا النساء، ان يصعــــدوا فـــوق المنـــابر ليخطبوا، ليتحدثوا، ليسمعوا اصواقم...؟

كيف...؟

*

الم يموتوا...؟

كيف يطيقون رؤيته... ما ابلد عيونهم... كيف يستطيع النظر اليه... مـــا اقوى جبهته... كيف تطيق ان تسقط عليها نظراقم...؟

اي اكتشاف عن العرب، عن اقطاب العرب، عـــن ضعفـــهم، عمـــا في اخلاقهم من استعدادات متواضعة مهينة...

اي اكتشاف اكتشفه هذا الرجل عن العرب...

اي اكتشاف مذل اكتشفه...

اي عار الحقه بالعرب باكتشافه هذا...

اية هدية اهداها لخصوم العرب باكتشافه هذا... اية هدية هو هذا الرجـــل اهدتما الجحيم الى كل اعداء العرب...؟

لقد تحول هذا الرجل الى تشوهات في المقابر العربية، لقد لوث كل المقـــابر العربية. لقد كانت هذه التشوهات غير مرئية، لقد حولها الى تشوهات مرئيـــة، لقد حولها الى جراح كبيرة غائرة في اخلاق هذه المقابر... في كرامتها. لقـــد سلب القبور العربية كل احتمالات مجدها. لقد اذل القبور العربية... لقد اذلها.

ان كلماته المحقرة البذيئة التي تصلي بها اجهزته ضد اقطاب العرب، ضـــد زعمائهم، ضد حكامهم كل الاوقات، لتتحول الى حراب لتطعن تلك المقـــابر، لتطعن من فيها، لتعلن ان المقيمين في تلك المقابر لم يكونوا إلا مثـــل هـــؤلاء

العائشين فوق المقابر في الاستسلام والضعف... لم يكونوا إلا مثل هؤلاء الذين يتقبلون كل هذا التحقير البذيء.

اذن فهذا التحقير البذيء، اذن هذه الحقارة البذيئة، ليست للاقطاب والزعماء العرب العائشين فوق هذه المقابر... انما بنفس المستوى للعائشين أيضاً داخل المقابر.

لقد كشف هذا الرجل اخلاق من يعيشون، فكان كشفا لأخلاق من كانوا يعيشون. ان اكتشافه اكتشاف لكل العرب، لمن يعيشون فقط، ان من ماتوا ليعيشون نفس المستوى، نفس الاخلاق.

ايها التاريخ الطويل... ايها التاريخ النبيل... ايها التاريخ المكتوب بالعطور، بالأمجاد، بدماء الأبطال...

ايها التاريخ المكتوب بأشعة الشمس، باخلاق النجوم...

ايها التاريخ المصنوع على نماذج الآلهة، على اشتراطاتها المستحيلة...

ايها التاريخ...

حزني عليك... ان رجلا واحدا يبرز فجأة من قلب الظلمة قد استطاع ان يفضحك، ان يهزمك، ان يقتلك، ان يحولك الى هباء، الى زور...

حزني عليك ايها التاريخ، ايها التاريخ، ايها التاريخ...

ايها التاريخ المكتوب بطموح الارباب، بأحزان الأنبياء، بدماء الابطال.

حزني عليك، حزني عليك فلقد تحولت الى فضيحة، الى خرافة. ان رجلا يبرز فجأة من الظلمة استطاع ان يؤدبك، ان يحولك الى فضيحة، الى عار، الى هزيمة، الى اكذوبة...

حزني عليك ايها التاريخ المكتوب بكبرياء الأرباب، بدموع الانبياء، بدماء النجوم...

حزني لكم ايها العرب فلقد تحول هذا الرجل الى اضخم كتاب، الى اضخم ديوان لهجاء تاريخكم، لتكذيب تاريخكم...

حزني لكم ايها العرب، حزني لكم ايها العرب.

لغـــة عـــار...

اعني، وكما تحول هذا الزعيم الى عملية فضـــح لأخـــلاق العـــرب، والى تكذيب لروايات التاريخ المتحدثة عن مزاياهم... كمـــا تحـــول الى عمليـــة اكتشاف لما في الأخلاق العربية من احتمالات اليمة، من اســـتعداد للهزيمـــة الشاملة...

كذلك تحولت الظروف الجيدة في محاباتها لذوي المستويات المتخلفـــة، الى عملية اكتشاف حزين لمواهب العرب اللغوية.

لقد حول العرب، لقد حول الثوريون التقدميون العرب الظروف الموهوبـــة لهم بسخاء هو الجنون... لقد حولوا هذه الظروف الى لغة يهج العرب انفسهم بمثلها... لم يهج شعب من الشعوب نفسه بمثلها... لم تشتم الآذان بمثلها... لم تعاقب الاخلاق بمثلها... لم يصدم الذكاء الإنساني بمثلها.

لقد حولوها الى لغة لن يهبط أي مجتمع الى اسوأ منـــها في فحشـــها، في غوغائيتها، عدوانيتها، في ركاكة منطقها، في كذبها، في غرورها، في فجورها، في همجية الفاظها، في حقارة مستوياتها الفنية والعقلية والأخلاقية والنفسية.

لقد انطلقت كل الأجهزة، كل الأجهزة التي اعطتها الحضـــارة... لقـــد انطلقت كل هذه الاجهزة، اجهزة الثوريين التقدميين في جنون، في تتـــابع، في احتشاد، في ديمومة، في هياج... لقد انطلقت كل هذه الاجـــهزة تقـــذف، وتقذف، وتقذف، وتستمر تعيد القذف، تعيد القذف، على كل الاتجاهـــات، على كل الوجوه، على كل الاعراض...

وماذا تقذف... ما هو الذي تقذفه...؟

هل هو كلام... هل هو تعاليم... هل هو مذهبية... هل هو نقد... هل هو اصلاح لشيء... هل هو بحث عن شيء... هل هو ادب... هل هو تفكير... هل هو ابتكار... هل هو تقليد... هل هو بالاختيار... هل هو بالأمر... هل هو مستوى الصغار... هل هو مستوى الكبار...؟

ماذا تقذف... ما هذا الذي تقذف...؟

هل هو لغة... هل هو منطق... هل هو دعاية... هل هو سلام... هل هو ثورة...؟

انك ستسأل، وستستمر تسأل دون ان تجد جوابا، دون ان تجد تفسيرا، دون ان تقتنع بأي تفسير، بأي جواب تجده... تقدره.

من معلمه... من يستفيد منه... من يموت به...؟

انك سوف تسأل وتظل تسأل دون ان تجد جوابا، دون ان يقنعك العجز عن الجواب بالصمت.

لقد انطلقت كل هذه الاجهزة وكأنها ابشع خطة قد دبرها كل اعداء العرب لتخريب سمعة العرب، للتشكيك في تاريخهم... في مزاياهم... في مستوياتهم الحضارية، لافساد قلوبهم... لافساد العلاقات بينهم... لتعليمهم الهمجية... لفضحهم فضحا دوليا...

لقد انطلق العرب بزعامة وقيادة الثوريين التقدميين، يخوضون ابذأ معركة لغوية ضد انفسهم...

لقد انطلقوا، لقد انطلق الثوريون التقدميون يهجون انفسهم، يحاربونها، يعلنون عنها اشنع هجاء، اشنع حرب، اشنع اعلان...

لقد انطلقوا يهجون آبائهم، يهجون تاريخهم، يهجون مقابر اسلافهم،

يهجون لغتهم...

لقد انطلقوا، لقد انطلق الثوريون التقدميون العرب يخوضون معركة لغوية حتى لكأنهم انما يخوضون مؤامرة قد دبروها هم، قد اداروها هم بجنون ووحشية لتشويه انفسهم، لتحقيرها، للعنها، لافسادها، لتخويفها، للتخويف بها، للتخويف منها، لتضليلها، لتحويلها الى عدوانية، للبحث لها عن اعداء...

لقد انطلقوا يحاربون ويتحاربون في معركة لغوية، وكأنهم انما يحاربون بحثا عن الهزيمة، خوفا من الانتصار... كأنهم يحاربون لينهزموا... كأنهم انما يحاربون لئلا ينتصروا...

لقد انطلقوا يحاربون ويتحاربون بكل اساليب من يبحثون عن الهزيمة، من يخافون من الانتصار... بكل اساليب من يعشقون العار، بكل اساليب من يرفضون الوقار...

من علمهم... من علم العرب... من علم الثوريين التقدميين هذا الفحش، هذه الوقاحة، هذا الفجور اللغوي، هذا الافتضاح...؟

من علمهم... من علم العرب كل هذه الوقاحات، كل هذا الاسقاط للوقار، كل هذه الجرأة على التعري، على تعرية النفس والأخلاق...؟

من علمهم كل هذه الفنون الهمجية... من علمهم... من علم العرب كل هذا...؟

هل يسمعون انفسهم، هل يروها، هل يقرأون ما يقولون... ما يكتبون...؟

هل يقرأون، هل يسمعون ما يقال، ما يذاع، ما يكتب...؟

هل لقحت اخلاقهم، وعيونهم، وعقولهم، ضد الاحساس بالعار، بالبلادة، بالدمامة... هل لقحت ضد رؤيتها...؟

هل تحولت عيونهم وآذانهم الى مقابر لأعضاء ميتة...؟

الم يفكروا ان الناس قد يروهم، قد يسمعوهم، قد يفكرون فيهم...؟

هل ظنوا انه ليس في العالم اية آذان، اية مشاعر تحتقر، وتعاقب، وتلعن... تحتقر المفتضحين وتعاقبهم، وتلعنهم...؟

ان المشاعر والعيون والآذان، عقاب انساني باهظ نوقعه نحن بالآخرين، ويوقعه بنا الآخرون.

اقرأ، اسمع، حاول ان تفهم... اقرأ، اسمع ما تقوله اللغة العربية المنطلقة من وراء كل الأجهزة، المنطلقة كل الأوقات لتقول لك، لتسمعك، لتعلمك... ثم حاول ان تفهم ما تريده هذه الأجهزة ان تقول لك، ان تسمعك، ان تعلمك... حاول... حاول.

كلا. اني احذرك... لا تقرأ، لا تسمع، لا تحاول ان تفهم ما تطلقه هذه الاجهزة، ما تقدمه لك...

كلا، اني احذرك... اني اخاف عليك، لو قرأت، لو سمعت، لو اردت ان تفهم...

كلا... لا تفعل.

اني اخاف على العرب لو فعلت... اني اخاف على سمعة العرب لو قرأت أو سمعت أو حاولت ان تفهم ما تقوله لغة العرب المنطلقة من وراء كل الأجهزة. اني اخاف حينئذ من رأيك في العرب، من رأيك في مستوياهم الحضارية والانسانية، من رأيك في احتمالاهم المقبلة المنتظرة... اني اخاف عليك حينئذ من رأيك في نفسك...

كلا... لا تسمع، لا تقرأ، اني اخاف عليك لو سمعت، لو قرأت. اني اخاف على العرب.

كلا... لا تسمع، لا تقرأ...

كيف لم يموتوا عارا...

كيف لم يقتلهم الآخرون اشمئزازا...

كيف لم يسكتوا افتضاحا...

كيف لم يسكتهم العالم غثيانا...؟

ما اقوى من يطلقون كل هذا العار على العالم...

ما اضعف العالم الذي يتلقى كل هذا العار صابرا مستسلما...

ما اعجز العالم عن الاحساس بالافتضاح، بالتحقير، بالعار...

ما اعجز العالم عن الغضب والكرامة، عن الاحتفاظ بالكرامة، بالوقـــار...

هل يصبح البشر تحت ظروف معينة، ولأسباب ما، عاجزين عن رؤية انفسهم، عن سماعها...؟

هل يصبحون لأسباب نادرة، عاجزين عن رؤية عارهم، عن رؤية عاهاتهم، عن سماع ما يقولون، عن قراءة ما يكتبون...

هل تصبح المرآة احيانا عمياء...

هل تصبح الاصوات العالية خرساء...

هل البشر، جميعا لا يرون عارهم، لا يرون عاهاتهم، لا يرون وجوههم، لا يسمعون ما يقولون، لا يقرأون ما يكتبون...

هل البشر جميعا لا يرون ما في المرآة مهما حدقوا فيها...؟

لعل المرآة هي اكبر الأشياء صدقا بقدر ما هي اكثر الأشياء كذبا...

اليست صادقة جدا في استقبالها للوجه بقدر ما هي كاذبة جدا في استقبالها للعين...؟

*

من هم الذين يعلمون لغة اليوم في العالم العربي... من هم الذين يتكلمونها،

ويؤلفونها، ويفرضونها، ويجزون عليها...؟

انهم الكبار... انهم الثوار... انهم المعلمون... انهم القادة المنقذون.

انها الثورة... انها الثورة في كل شيء...

ان الافتضاح اللغوي هو احد المعطيات الثورية... انه اكبر معاني الثورة، انه صلاتها الدائمة المهذبة...

ان اللغة النظيفة هجاء للثورة، ورفض لها، خروج عليها...

انت مهذب اللغة، اذن انت لست ثائر...

انت فاحش اللغة، اذن انت جدير بأن تكون ابن الثورة، بأن تكون اباها... انت جدير بأن تكون مفجر الثورة، خالقها، وقائدها لأنك فاحش اللغة لأنك تعاقب مهذبي اللغة.

ان الكبار هم الذين يعلمون اليوم السوق لغة العار. ان الكبار هم الذين يعلمون دائما الصغار جنونهم وعارهم الديني، والوطني والمذهبي والصوري...

انه كما اعلنت الاجهزة عن خطاب سوف يلقيه زعيم كبير، سوف يلقيه احد الزعماء الثوريين التقدميين العرب لعنت اذناي، عوقبت اعصابي، ارتجفت خوفا على سمعة العرب، ايقنت ان سمعتهم سوف تصاب، سوف تلوث، سوف يصاب العالم بالذهول من هول ومن فحش مالا بد ان يسمعوه...

اني لا بد ان اتوقع شرا، ان اتوقع عارا، كلما سمعت زعيما ثوريا سوف يلقي خطابا... اني حينئذ لا بد ان احزن، ان اخاف، ان اخجل.

ان الصغار دائما يتعلمون فضائحهم الكبرى من الكبار. ان جنون الصغار ليس إلا احدى منح الكبار للصغار.

*

ان شيئا، ان شيئا اليما يحدث اليوم في العالم العربي، يحدث بتجهم وبلادة،

فما هي احتمالات هذا الشيء... ما هي احتمالات عواقبه...؟

الى ماذا يمكن ان يتحول...؟

كيف يمكن ان يواجه... كيف يمكن ان يواجهه العالم، ان يواجه نفسه...؟

ان العرب اليوم يفتضحون افتضاحا لغويا... انهم يصعدون افتضاحهم تصعيدا سريعا مخيفا... انهم يمارسون عبقرية الافتضاح بافتضاح... انهم يمارسون افتضاحهم، بينما العالم الذي اعطاهم كل القدرة على هذا الافتضاح اللغوي يراهم ويسمعهم بصمت، بما يبدو انه الصمت...

لعله صمت الذهول، لعله صمت الحيرة، لعله صمت العجز عن التفسير والفهم لما يحدث امامه... لعله صمت التحقير، لعله صمت من لا يصدق ما يرى ويسمع...

الست احيانا، محتاجا الى إلا تصدق ما ترى وتسمع...؟

لعل العالم لا يراهم، لا يسمعهم...

الست احيانا، عاجزا عن ان ترى ما ترى، عن ان تسمع ما تسمع...؟

لقد كانت اللغة دائما قوة عدوانية. انها تقاتل وتصيب وتخيف وتضرب وتؤذي، مثل سائر الاسلحة، مثل كل ادوات العدوان والقتال. ولكنها... لكن اللغة، قد اصبحت تحت هذه الظروف الحضارية والفنية الهائلة، قوة عدوان وقتال لا مثيل لها في وحشيتها... لا مثيل لوحشيتها، وعدوانها.

ان اللغة اداة قتال وعدوان شاملة في كل العصور، وانها تحت هذه الظروف الحضارية قد اصبحت اكثر شمولا. ان وسائلها اكثر من وسائل كل اسلحة القتال والعدوان، ان موضوعات قتالها وعدوانها اكثر من موضوعات كل الاسلحة القتالية والعدوانية.

ان كل المجتمعات، ان كل البشر يتعادون ويتقاتلون باللغات. انهم لم يزالوا

كذلك في كل العصور، تحت كل الظروف...

ان القديسين، حتى القديسين جدا، حتى اصحاب انبل النفوس كانوا يفعلون ذلك، كانوا يتقاتلون بالكلمات. ان كل الاشياء، ان كل المذاهب، والآلهة والاخلاق والمواقف والناس والحقائق، تتعادى باللغات، بالكلمات. ان اللغات سلاح يقاتل به كل احد وكل شيء، ويقاتل به كل احد وكل شيء. ان اللغات هي اكثر اسلحة الإنسان شمولا، وبذاءة، ودواما، واستعمالا...

ان اللغات سلاح يتقاتل به كل البشر، كل الآلهة، كل الانبياء، كل المعلمين والقديسين، كل التافهين...

ان العرب اليوم كما يفتضحون افتضاحا لغويا يعتدون ويعادون لغويا. ان كل رجل، ان كل فريق منهم ليعادي الآخر، ويعتدي عليه بلغة مصابة بكل العاهات النفسية، والاخلاقية والعقلية... انهم ليعادون ويعتدون باللغة على كل العالم، على كل الناس، على كل الأشياء... انهم ليعتدون ويعادون باللغة كل الحضارة، كل قيمها، كل مذاهبها، كل مستوياتها، كل اخلاقها، كل ذكائها، كل صناعها وواهبيها... انهم ليقاتلون قتالا لغويا كل العالم، وكل الناس، وكل الحضارة، وبلغة هي كل الفحش والدمامة والغباء والعدوان والافتضاح.

لقد تحولت اللغة العربية الى معركة شريرة ضد الإنسان، ضد حضارته، وضد ذكائه، وضد وقاره واخلاقه وتهذيبه واحتشامه...

لقد تحولت ضجة هائلة من الفحش والغباء والاكاذيب والعدوان والغوغائية. لقد اعطتها الحضارة القدرة على ان تعتدي عليها وتعاديها... على ان تهجوها وتحقرها وتحولها الى سباب واتهام لها...

لقد تحولت اللغة العربية الى شتائم لمسامع كل العالم، لذكاء كل العالم، لوقار كل العالم...

لقد تحولت الى تشكيك في قيمة ان يكون للانسان لغة...

لقد حول الثوريون التقدميون اللغة العربية الى تشكيك في قيمة ان يكــون للبشر لغات...

لقد تحولت اللغة العربية الى انفجار كريه لتلوث نفسها... لتلــوث كــل البشر لأنها احدى لغات البشر، لأن لكل البشر لغات... لتلوث كل المذاهب، والنظم، والناس، والمواقف، والقيم التي تتعامل معها، والتي تمارســـها، والـــتي تتحدث عنها...

لقد تحولت اللغة العربية الى اضخم واعجب انبوب في العـــالم، اضخـــم واعجب مجرى في الارض، لتمر منه كل الاوحال، واخبث الاوحال، لتصـــب في كل مكان، في كل اذن، في كل عقل...

كيف يستطيع أي مكان ان يجمع ويطلق كل هذه الاوحـــال... كيـــف تستطيع كل هذه الاوحال ان تتجمع في أي مكان، في اية نفس...

كيف يستطيع أي انبوب، كيف يستطيع أي انبوب أو مجرى ان يحمل كل هذه الاوحال...

كيف تستطيع اية لغة من اللغات ان تبصق كل هذا العفن... كيف توجـد نفس يعيش فيها كل هذا العفن؟

انه لا يوجد خزان للعفن أضخم وأسوأ من النفس الإنسانية.

هل تتفوق النفوس العربية على آبار النفط العربية في وفرة المخزون، مـــع الفروق الكبيرة في نوع المخزون وقيمته...

هل الارض العربية انبل محصولا من النفس العربية...

هل الصحارى العربية انظف لغة من الاخلاق العربية...

هل لغة التراب العربي اكثر وقارا وتهذيبا من لغة الإنسان العربي... من لغة

الزعيم العربي... من لغة الثائر العربي... من لغة اكبر ثائر عربي...

هل كل شيء هو انظف من اللغات... من لغات الثوريين التقدميين...

هل كل لغة انظف من لغة الإنسان...

هل اللغات هي اكثر الأشياء عفنا...؟

*

ان هذه هي القضية فماذا يمكن ان تكون عواقبها...

هل يألف العرب افتضاحهم... هل يستمرون يسيرون في طريقهم دون توقف أو نهاية...؟

ان طرق الافتضاح لا ترفض من يريدون ان يستمروا يسيرون فيها... انها لا تضيق بهم، انه لا نهايات لها.

لعل هذه الايام، لعل الايام المقبلة هي ايام الافتضاح في العالم العربي، لعلها ايام الثوار والحكام المفتضحين... لعل الايام المقبلة هي ايام الافتضاح العربي في العالم العربي.

لعل الافتضاح اللغوي هو اشهر الفنون، واكثرها اثارة، واقواها تحدثا، عن مجد الزعامات الثائرة.

لعل الافتضاح في الحكام الثوريين، وفي المرضى بمرض العرض الذاتي شهوة، لا تورط...

لعله ضرورة، لا غباء في التقدير...

لعل الافتضاح مطلب، لا عجز...

لعله مزية، لا خطيئة.

لعل كل انسان محكوم عليه بان يكون شاعرا باسلوب من الاساليب.

لعل كل انسان محكوم عليه بان يكون مفتضحا بأحد اساليب الافتضاح،

لأنه محكوم عليه بان يكون شاعرا باحد اساليب الشعر.

لعل الافتضاح شعر على احد معاني الشعر ومستوياته... لعله اغنية يطرب لها ناس من الناس.

لعل الإنسان لا يمكن ان يكون فاهما ولا مفهوما، لعله محكوم عليه بان يكون حيث لا يمكن ان يفهم أو يفسر.

لعل الإنسان هو دائما كذلك، لعله، لعله...

ان طرق الافتضاح، ان وسائل وأساليب الافتضاح لا نهاية لها.

ان رغبة العرب، ان رغبة الثوار العرب في الافتضاح، ان قدرتهم عليه لا حدود لهما. اذن الى ماذا يمكن ان ينتهوا في مسيرتهم السريعة الضاجة بالحداء، بالبداوة اللغوية...؟

اين يقفون... وهل يمكن ان يقفوا...؟

اذن اين ينتهون... وهل ينتهون... وهل للعار نهاية...؟

وهل يألف العالم العرب... هل يألف ما يسمع منهم، وما يقرأ لهم وعنهم، ما يرى فيهم... هل يألف لغتهم...؟

هل يألف العالم كل ذلك كعاهة في الحياة لا يمكن التداوي منها... هل يألف ذلك كذنب من ذنوب الطبيعة، يمكن اغلاق الحواس والمشاعر والاهتمام دونه... هل يمكن الصمت عنه والصمت عليه كداء في الاخرين، في الجيران لا يؤذي، لا يفضح سواهم...؟

هل عاهات الآخرين، هل عارهم تكريم للمشاهدين لذلك...؟

هل نقيصتك مزية لجارك...؟

هل دمامة القمر جمال للشمس...؟

هل يغفر العالم للعرب ذلك باسلوب الشماتة، باسلوب التلذذ بافتضاح

الآخرين، بعار الآخرين، برؤية الآخرين يمارسون الافتضاح والعار...؟

هل يجد العالم في ذلك مسلاة، هل يجد فيه فنا، هل يجد فيه انتقاما، انتصارا...؟

هل يشعر العالم بأن سقوط العرب، بان في سقوط العرب اللغوي انتصارا أو تفوقا عليهم...؟

هل يجد العالم في ذلك حماية له من احتمالات منافسة العرب له...؟

هل يواجه العالم افتضاح العرب اللغوي بمشاعر من يرى أحزان الآخرين، عذابهم، مسرة... سعادة له... تفضيلا له...؟

هل يرى العالم في عار العرب اللغوي استجابة لشهوة من شهواته، لغرض من اغراضه...؟

هل يغفر العالم للعرب ذلك تحت سبب من الاسباب، تحت تفسير من التفاسير...؟

هل يغفر لهم العالم رفقا بهم، استضعافا لهم، تهوينا لشأنهم، يأسا منهم...؟

هل يغفر العالم للعرب ما يرى، ويسمع، ويقرأ عنهم ولهم ومنهم، ولأنهم في تقديره لا يستحقون ان يغضب عليهم، ان ينكرهم، ان ينكر فيهم، ان يعاقبهم، ان يحاول اصلاحهم...؟

هل يصبح غفران العالم للعرب اقسى اساليب الهجاء والتحقير لهم... هل يصبح غفران العالم للعرب اكبر ظلم يمارسه الغافر ضد من يغفر لهم...؟

هل الغافر كائن ينتقم، يشمت، يحق...؟

اليس تسامح المتفوق ازاء نقائص المتخلف نوعا من العقاب المتوحش...؟

اليس الذي يغفر لك ذنبا، أو سلوكا لا يفعله هو، يترفع ان يفعله هو، انما هو انسان يهجوك، يعنفك، يقسو عليك، يبالغ في تحقيرك...؟

هل يغفر العالم للعرب، هل يصمت عنهم، هل يشمت بهم، هل يسعد بممارستهم لعاهاتهم...؟

هل يفقد العالم المقدرة على رؤيتهم، على الشعور بهم، على الغضب منهم، على الغضب لهم...؟

هل يراهم ذنبا لا تمكن التوبة منه... هل يراهم داء لا يمكن علاجه لهذا لا يصح التركيز على الاهتمام به، لهذا يجب الصمت عنه...؟

هل يرفض العالم، هل يقاوم، هل يستفظع ان يوجد من يقولون كل هذا من يقولون كل هذا الفحش، كل هذا الغباء، كل هذه الاكاذيب، كل هذا التطاول، كل هذا الغرور، كل هذا الادعاء، كل هذه الكبرياء، كل هذه الاهانات للحضارة، للتفوق، كل هذا العدوان اللغوي... من يقولون كل هذا على كل مسامع الدنيا، على كل ذكاء الدنيا، على وقار كل الدنيا...؟

هل يرفض العالم، هل يقاوم، هل يستفظع، ان يوجد من يقولون كل هذا...؟

وهل يوجد عالم ليرفض أو يعاقب من يخرجون عليه، أو يتحدون اخلاقه، ام تجد انقسامات متناقضة تمنع ان يوجد موقف عالمي أو رفض عالمي، أو ذكاء عالمي، أو رؤية عالمية، أو عقاب عالمي... تمنع ان يوجد عالم في العالم...؟

عل يوجد عالم...؟

هل يوجد عالم، ام يوجد قوم ضد قوم، ام يوجد قوم يخالفون قوما، يحاربون قوما...؟

هل يوجد عالم...؟

هل صحا العالم

في ليلة من ليالي التاريخ المتكرر امثالها، استمعت الى خطاب طويل حاشد

محشود، القاه الثائر البطل، بعد ان ظلت كل الاجهزة اياما مرهقة تبشر بـــه، وتتنبأ بما سوف يقول للعالم، بما سوف يصنع بالعالم، بما سوف يصنع للعالم... كيف سيحرره، يعلمه، يخططه، يصوغه، يفسره... كيف ســيؤدبه، كيــف سيهزمه.

استمعت الى الخطاب بحدة... استمعت إليه بمشاعر مصعوقة، مشــتومة، بمشاعر فيها كل الخوف، كل الخجل، كل الارتجاف، كل اليأس، كل التوقــع والرفض والحزن، وفيها أيضاً الاستماع بحدة. ومع هذا فلقــد اســتمعت الى الخطاب بمشاعر يصعب تحديها، تصعب قراءتها... استمعت إليه بمشاعر يصعب ان اقرأها أنا.

استمعت الى الخطاب بسمعي المرتجف... استمعت إليه من القـــاء الثـــائر البطل، استمعت إليه من القاء ذاتي الى ذاتي. لقد اخذ يستمع إليه بعضي مـــن بعضي... لقد اخذ يلقيه بعضي على بعضي...

لقد اخذ عقلي يستمع إليه من اعصابي، وأخذت اعصابي تستمع إليه مـــن عقلي، وأخذت اعصابي وسمعي يستمعان إليه مما وعيت واختزنت من تعـــاليم، وتقاليد، وقيم... واستمعت إليه اعصابي وعقلي، وكـــل القيـــم والتعـــاليم والاخلاق التي وعيت ولقنت... استمعت إليه مصدومة، مشتومة، مقـــهورة، مصعوقة... استمعت إليه حزينة، حزينة، حزينة...

لقد تحول الخطاب الى صوت هائل معاقب، يتنقل داخل ذاتي، يعاقبـــها، يعاقبها... من ذاتي الى ذاتي، تقرؤه ذاتي على ذاتي، تسمعه ذاتي ذاتي، تحاســب ذاتي عليه ذاتي...

لقد تحول الى عقاب توقعه ذاتي بذاتي...

لقد تحول الى عقاب فظيع لكل صوري الذهنية عن الإنسان، والكـــون،

والحياة... لقد تحول الخطاب الى افظع عقاب لذهني، الى ابشع عقاب لتصوري، ومثلي الذهنية اللغوية...

لقد تحول الى معركة، الى انفجار، الى حريق يلتهم ذاتي. لقد تحول الى اسئلة تتقاتل في ذاتي، تتصادم في ذاتي.

لقد تحول الى اسئلة تتقاتل داخل ذاتي... لقد عجزت ذاتي عن رفض الاستماع الى الاسئلة... لقد عجزت ذاتي عن ان تجد للاسئلة تفسيرا... لقد تحولت الاسئلة الى قتال، الى انتقام، الى تعذيب لعقلي، لأعصابي، لأخلاقي.

وظلت الأسئلة منطلقة، منطلقة...

هذا الخطاب هل يسمعه العالم، هل يقرأه، هل يتحمله، هل يصمت عليه...

وظلت الاسئلة منطلقة، متفجرة، متفجرة...

هل هو غباء العالم... هل هو هوان في العالم... هل هو عجز في العالم...

هل هو ضعة في اخلاق العالم... هل هو تسامح... هل هو كبرياء في اخلاق العالم...؟

وظلت الاسئلة منطلقة حادة، حادة...

هل هو تدبير من العالم... هل هو مؤامرة. هل هو شماتة... هل هو تربص...؟

وظلت الاسئلة منطلقة، منطلقة، متحولة الى حرائق، الى خناجر...

هربت الى النوم، هربت بالاسئلة التي قد تحولت الى خناجر، الى حرائق تأكل تفكيري، كل اعصابي...

هربت الى النوم فرأيت - فيما يرى النائم - الثائر البطل يخطب هناك.

استمعت اليه، سمعته يلقي بكلمات كبيرة، كبيرة جدا، بكلمات هي اكبر

من كل البشر، من كل التاريخ، هي اكبر من كل النجوم، من كل الكـون... هي اكبر من كل ذلك ومن كل شيء، في تعاليها، في بداوتها العقلية والنفسية والاخلاقية، في تحقيرها لكل الناس، لكل الاشياء، في جهارة صوتها الفاحش الشاتم المتحدي، المتوعد الكاذب المخاصم، الباصق على كل البيوت، على كل القبور، على كل الوجوه، على كل العقول، على كل الشعوب، على كل الأفراد، كل العبقريات، على كل التفاهات، على كل الزهور، على كل الأشواك.

وفجأة - فيما يرى النائم - انطلق الغضب والاستنكار، اطلقهما كل الكتاب، كل المفكرين، كل الزعماء، كل الفنانين، كل رجال الدين... اطلقتهما كل الاجهزة الاعلامية والتعليمية... اطلقتهما كل الصحافة، والاذاعة، والمنابر والمحاريب...

اطلقتهما كل الهيئات، كل المجتمعات، كل الناس، كل المختلفين على المذاهب والنظم... اطلقهما الشرق والغرب...

انطلق الغضب والاستنكار فجأة وبعنف في كل العالم الذي كان قد خمد.

لقد اشعل الخطاب كل غضب العالم واستنكاره...

وفجأة - فيما يرى النائم - هب العالم يرفض، يقاوم هذا التفجر الغوغائي المتصاعد...

لقد وجد العالم فجأة كبرياءه، لقد صنع الخطاب للعالم كبرياء... لقد تحول الخطاب الى غضب تاريخي... تحول الى غضب مبدع في التاريخ.

لقد كان غضبا خلاقا، لقد كان غضبا معاقبا...

لقد ارتفعت الاصوات - فيما يرى النائم - داعية العالم الى ان يجتمع اقطابه في مؤتمر دولي شامل ليعالج، ليقاوم هذا التفجر الغوغائي.

لقد كانت هذه اول دعوة في التاريخ لاجتماع كل اقطاب العالم...

لقد اجتمع المؤتمر - فيما يرى النائم.

كان مع كل قطب - من الملوك والرؤساء - اعداد كبيرة من المستشاوين والمفكرين وعلماء النفس...

وكان المكان الذي تجمع فيه المؤتمر الدولي مكانا موحشا كئيبا.. انــه لم يتبين في اية دولة هو...

لقد تتابعت الاجتماعات والمشاورات، والقراءات الحادة بين الاقطاب وبين من معهم من مستشارين ومفكرين وعلماء...

لقد قرئت، ودرست، ونوقشت كثير من التعليقات والتفسيرات والبيانات المختلفة...

لقد سمع المؤتمرون من اختلاف مستوياقم، نصوص خطابات كثيرة سابق القاها هذا البطل الثائر، أو القاها سواه من الزعماء والثوار العرب، وكـانت الخطابات مسجلة.

لقد سمع المؤتمرون كثيرا من التسجيلات عن الاذاعات العربية... لقد اسمعوا كثيرا مما تكتبه الصحافة أو الكتب العربية... لقد اسمعوا الكثير والرهيب ممـا تقوله هذه الاذاعات، والكتب، والصحافة، وكل الاجهزة الدعائية والاعلامية العربية الكثيرة، ما يقوله الكتاب والمذيعون والدعائيون العرب، مما يقوله الادباء والكتاب العرب...

لقد اسمعوا الكثير مما يقولونه في غير العرب، مما يقولونه في كل شيء...

لقد اسمعوا كيف يمارس العرب لغتهم، كيف يمارسها الزعمـاء والثـوار الكبار جدا وكيف يمارسها من دونهم من كتاب وادباء، ثم من دون هؤلاء من معلقين وصحفيين وفنانين، وكيف تمارسها كل الاجـهزة العربيـة الدائمـة

الضجيج، تلك الاجهزة التي وهبتهم اياها الحضارة لكي يحولوها الى عقاب الحضارة، الى عقاب لأنفسهم.

لقد اسمع المؤتمرون واسمع معاونوهم، وترجم لهم وفسر لهم...

لقد اسمعوا كيف يتكلم العرب، كل العرب، لغتهم، كيف يفضحونها، كيف يفتضحون بها، كيف يفضحون بها...

لقد شحنت اعصاب المؤتمرين بالغضب، والرهبة، والاشمئزاز مما سمعوا مما ترجم وفسر لهم...

لقد ارهقت عقولهم ومستوياتهم مما علموا وفهموا...

لقد كان صعبا ان يفهموا كيف يحدث كل هذا... كيف يتكلم قوم بشيء من هذا... كيف يهبط مستوى قوم كل هذا الهبوط... كيف يعاقب ناس من البشر انفسهم كل هذا العقاب... كيف توجد لغة من اللغات تتلوث بكل هذه الذنوب... كيف لا تعاقب كل اللغات... كيف لا تحرم كل اللغات من اجل هذا...

لقد كان من الصعب ان يصدقوا من يترجمون لهم، من يفسرون لهم...

لقد كان من الصعب ان يصدقوا اجهزة التسجيل...

لقد كان صعبا ان يفهموا، وحين فهموا اصبح صعبا ان يصدقوا... لقد كان صعبا ان يفهموا ويصدقوا.

قد يصبح التصديق تعذيبا للعقل، للنفس... قد يكون تعجيزا لهما... قد يكون اذلالا لكرامتهما وامتحانا لمستوياتهما... قد يكون معاناة باهظة...

ان البشر لا يصدقون أو يكذبون، لا يفهمون أو يعجزون عن الفهم بعقولهم، بل وبمستوياتهم...

كيف تستطيع ان تصدق أو تفهم ان قوما قد هبطوا الى مستوى انت لم

تعش مثله، انت لم تر أو تعلم من عاش مثله...؟

كيف تصدق ان انسانا يعيش مستوى من المستويات انت لم تعش قط مثله، انت لا تتصور انك تستطيع ان تعيش مثله...؟

ان منطقنا ليس تعبير عن مستوياتنا، انه جزء منها، انه خاضع لها انه متأثر بها، انها هي التي تصنعه.

ان منطقنا تعبير عن مستوياتنا، ان مستوياتنا تعبير عن مستوياتنا.

لقد كان صعبا ان يصدق هؤلاء المؤتمرون ما اسمعوا، ما ترجم، ما فسر لهم، ما نقل اليهم من مستويات لغوية يمارسها العرب، يمارسها ثوار وزعماء العرب...

لقد كان صعبا ان يصدقوا ان هذه مستويات بشرية. انهم لم يعيشوا مثلها، انهم لم يروا أو يعلموا من عاشوا مثلها...

انهم لا يتصورون انهم يستطيعون ان يعيشوا مثلها...

اذن، كيف يمكن ان يصدقوا ان هذه مستويات بشرية، يحياها ويمارسها ويعلنها بمباهاة ناس من الناس؟

انه لعذاب لعقولهم ولمستوياتهم ان يستمعوا الى ما نقل وترجم لهم عن اللغة العربية. لقد تعذبوا لأنهم سمعوا، ولأنهم قد فرض عليهم ان يصدقوا.

لقد سمعوا وصدقوا، ولقد تعذب كثير منهم حياء وعطفا حين سمعوا وصدقوا، ولقد فرح كثيرون منهم شماتة وحقدا، بما سمعوا وصدقوا.

ثم دارت اصعب المحاورات والمداولات، متصادما فيها كل ما يقتات بحياة البشر، كل ما تقتات به حياة البشر من صداقات وعداوات، من حب وبغض، من مصالح أو اهواء، من ذكاء وغباء، من قوة ومن ضعف، من تعقيدات تاريخية ونفسية واجتماعية، من ارتباطات والتزامات وتناقضات مذهبية

وموقفية...

وكانت هذه المحاورات والمداولات تخوض الطريق بمعاناة هائلة بين هـــذه التناقضات والتصادمات، بين هذه العواطف المتقاتلة، بين هؤلاء البشر، بين هذا التاريخ من البشر...

كانت المحاورات والمداولات تبحث عن قرار دولي، عن اعجب قـرار دولي كان صعبا جدا ان تصدره، وكان صعبا جدا إلا تصدره...

كان قرارا حزينا جدا في صيغته، وكان اكثر حزنا في اسبابه...

كان اصداره تحقيرا، كانت اسبابه اكثر تحقيرا...

انه لشيء فظيع ان يتحدث الناس عن عارك، ولكن افظع مـــن ذلـــك ان يكون لك عار يستطيع الناس ان يتحدثوا عنه...

انه لشيء اليم ان يراك الناس ساقطا، ولكن اكثر من ذلك ايلاما ان تكـون ساقطا، ولكن اكثر من ذلك ايلاما ان تكون ساقطا...

ان حديث الناس عن عارك عقاب لك، وان صمتهم عن عارك تهديد لك، وايهما افظع لك...

العقاب... ام التهديد...؟

ان الاعلان عن عارك عار، وان الصمت عن عارك عقاب أو تحقير، فـانت اذا كان لك عار واقف بين العار والعقاب، بين العار والتحقير... انت حينئـذ عار فقط، أو عار، وتحقير، وعقاب.

غفرانك ايتها النجوم، اغفري للمذنبين وللمعاقبين، افقئي عيونك... افقئي عيونك... اغلقي ايتها النجوم جهاز سمعك... حذار ايتها النجوم ان تـري أو ان تسمعي، انهم يفتضحون... ان البشر ايتها النجوم يفتضحون امام رؤيتـك، امام سمعك... حذار ان تري، ان تسمعي ايتها النجوم، انهم يفتضحون...

غفرانك ايتها النجوم، افقئي عيونك، اغلقي جهاز سمعك.

اهربي ايتها النجوم، اهربي من مكانك الذي تشاهدين به الأرض... من مكانك الذي تشاهدين به الناس، انهم يفتضحون.

اهربي... اهربي ايتها النجوم...

فلقد صدر قرار دولي... لقد صدر قرار دولي... لقد صدر بالاجماع بعد عزل العرب عن التصويت.

اهربي فانك لن تطيقي ان تري، ان تسمعي، ايتها النجوم، اهربي... اهربي...

تحمل ايها التاريخ، تحمل، تحمل فلقد صدر اعجب عقاب، قصاصا من اعجب ذنب.

اغفر ايها التاريخ لأبنائك...

اغفر لأبنائك الذين يذنبون، ولأبنائك الذين يفتضحون... لأبنائك الذين يستنكرون ولابنائك الذين يعاقبون.

اغفر ايها التاريخ، اغفر فانت المذنب، وانت الغافر...

اغفر فانت المفتضح، وانت الساتر...

اغفر ايها التاريخ... اغفر، فانت العورة، وانت اللباس...

نص القرار الدولي

"باسم الشمس، والأرض، والتاريخ، والانسان...

"باسم لغات العالم كلها...

"باسم الكرامة الإنسانية...

"نحن اقطاب العالم، ملوكا ورؤساء...

"نحن كل اقطاب العالم المجتمعين هنا، المجتمعين كلنا هنـــا لأول مـــرة في تاريخ الأرض...

"نعلن ما يأتي:

"لقد اجتمعنا اجتماعات متعددة، معقدة صعبة حزينة، ضاجة متخاصمـة، متناقضة احيانا، لننظر في قضية هي من اغرب القضايا... في قضية لعلها اغرب القضايا، واكثرها ازعاجا وتحديا للعقل والاخلاق... في قضية لعل العـــالم لم يستثر في كل تاريخه مثلما استثير بها... انها قضية تصنع الشفقة والحزن... انهـا قضية تصنع الغضب والرغبة في العقاب... انها قضية تصنع كل الانفعـــالات المتضادة... انها قضية تحرك العقاب والصفح في الإنسان.

"لقد كانت هذه القضية هي قضية ممارسة العرب - ولا سيما اقطـــابهم وثوارهم - للغتهم.

"لقد وجدنا بعد الدراسات والمراجعات، والمفاوضات الطويلة المتحريـــة الحذرة، ان اللغة العربية التي يتكلمها العرب اليوم... التي يتكلمـــها الزعمـــاء والثوريون العرب، ليست لغة. انها ليست لغة على أي مقياس مـــن مقـــاييس اللغات، حتى ولا على مقياس اكثر اللغات هوانا، واقلها مجدا وتحضـــرا. انهـــا ليست لغة على أي مستوى من المستويات... انها ليست لغة.

"لقد صدمنا... لقد صدمنا حين استمعنا الى كثير من التسجيلات لكثـــير من خطابات الزعماء، لكثير من مقالات الصحف، لكثير من تعليقات المعلقين، لكثير من تفسيرات الكتاب والمفكرين والادباء للاحداث.

"لقد بكى الكثيرون منا رثاء أو حياء، أو انزعاجا من ادراكهم لمســـتوى المأساة... لقد رفض آخرون منا في البدء ان يصدقوا ما سمعوا... لقد اتهمـــوا اجهزة التسجيل بالتحيز ضد العرب، لأن لهذه الاجهزة علاقات بالاستعمار من

حيث ابتكارها، لقد ابتكر المستعمرون هذه الاجهزة... اذن، لعل هواها ضد العرب، لعلها تكذب ضدهم، لهذا ظن كثيرون منا حين استمعوا الى تلك التسجيلات، انه من الممكن ان تكون تلك الاجهزة قد ظلمت العرب، قد كذبت عليهم، قد سجلت ما لم يقولوا ناسبة له اليهم بحوافز استعمارية، أو حوافز عدائية ضدهم، وضد زعمائهم الثوريين.

"ولقد كان هذا التفسير في رأي هؤلاء، افضل من ان يعاقب العقل نفسه حينما يقتنع بأن بشرا من البشر يقولون مثل ذلك الذي استمعوا اليه. يقولونه كبطولة، ونضال ضد الفقر، والتخلف، والجهل، والرجعية... يقولونه كلغة سماوية...

"لقد كان سهلا ان نتهم هذه الأجهزة اكثر مما كان سهلا ان نتهم ناسا من الناس بهذا العار.

"وبعد نضال نفسي وفكري واخلاقي مرهق استمر اياما عديدة، ضد انفسنا... ضد مصالحنا ومع مصالحنا... ضد خوفنا ومع خوفنا... ضد تناقضنا وتصادمنا... واستجابة لتناقضنا وتصادمنا.

"اصدرنا بالاجماع القرار الآتي بمواده التالية:

اولا:

قد حرمنا على العرب، على كل العرب، على كل حكامهم وزعمائهم، على كل ادبائهم وكتابهم، على كل جماهيرهم...

قد حرمنا عليهم جميعا - ولا سيما ثوارهم وتقدميهم - تحريما لا استثناء ولا شفاعة فيه...

قد حرمنا عليهم ان يتكلموا اللغة العربية، أو اية لغة اخرى بأية وسيلة من

وسائل الكلام.

والكتابة نوع من الكلام المشمول بالتحريم.

وليس الحافز على التحريم هنا هو ارادة العقاب في الغالب، بل الحكاية من الشرور والافتضاح.

ان في القصد حماية اللغة العربية من العرب، وحماية العرب من اللغة العربية.

لقد كان في حسابنا ان بعض العالم قد يقرأ عن اللغة العربية، عن لغة الثوريين والتقدميين العرب فينقل الى لغته هؤلاء الثوريين الصانعين لعار اللغات.

ثانياً:

يستمر هذا التحريم مائة سنة شمسية، ابتداء من ساعة التصويت عليه...

وانه لمن الممكن مراجعة هذا التوقيت، بل مراجعة قرار التحريم كله لو ان العرب في مدة الصمت المفروض قد ابدوا عبقرية خارقة... قد اعطوا شيئا ضخما...

أو لو انهم اطاعوا القرار بحصافة واحترام...

أو لو انهم في تخاطبهم بالوسيلة الصامتة التي ستكون بديلا عن اللغة، قد دللوا على انهم قد اصبحوا يملكون قدرة على ان يتكلموا، لا على ان يفتضحوا...

لو انهم قد دللوا على انهم قد اصبحوا يملكون تهذيبا يجعل تكلمهم اللغة ممكنا، دون ان يتحولوا الى اضخم مجد من امجاد العار، من امجاد الافتضاح.

لقد تحول هؤلاء الى مجد للعار بتكلمهم اللغة، فاصدرنا قرارا يحرم اللغة عليهم، لئلا يتحولوا الى اضخم امجاد العار.

ثالثاً:

ليس من المحتوم ان تكون لهم وسيلة غير اللغة يتفاهمون بها.

ان تخاطب الشيء مع من حوله، ومع الأشياء الاخرى، ليس قانونـــا ولا خلقا في الاشياء، انه ليس شرطا من شروط وجودها، أو حياتها، أو سعادتها.

ان جميع وحدات الطبيعة المختلفة تعيش وتتعايش، وتتلائم وتعطي نشاطها دون ان يتكلم أو يتفاهم بعضها مع بعض.

وقد يكون التخاطب وسيلة تعذيب وافسپاد وتعويق.

ماذا لو ان النباتات أو الجمادات، أو الحيوانات أو المجاميع الكونية المتعاونـة المتعاشقة...

ماذا لو ان هذه الكائنات قد اقامت فيما بينـــها وســيلة مـــن وســـائل التخاطب...؟

ماذا لو تعلمت لغة لتتخاطب وتتحاور وتتشاتم وتتخاصم بها...؟

ماذا يمكن ان يكون الواقع حينئذ...

ماذا تكون العلاقات فيما بينها حينئذ..؟

انه لشيء رهيب ان نتصور الشمس، القمر، البحار، الانهار، تتكلم اللغات، تتشاتم تتفاهم باللغات... انه لشيء رهيب، رهيب.

"اما اذا كان مفروضا ان تكون لهم وسيلة تفاهم فيمــــا بينـــهم وبـــين الآخرين، فهذه الوسيلة يجب ان تكون الاشارات...

ان تكون الاشارات بكل الاعضاء.

ولكن لا بد من شروط في اباحة الممارسة لهذه الوسيلة.

انه لا يجوز لهم الاشارة الى الفم ولا بالفم، لأن هذه الاشارة تذكر باللغــة التي كان اسلوب ممارستهم لها هو السبب في تحريمها، ولأن مثل هذه الاشـــارة

اسلوب من اساليب استعمال الفم وهو ممنوع.

انه كذلك لا يجوز لهم الاشارة الى الرأس ولا بالرأس، لأن ذلك يذكر بالغباء الذي كان ينطلق من رؤوسهم متحولا الى لغة.

انه لا يجوز لهم أيضاً الاشارة الى صدورهم، لأن ذلك يذكر بقلوبهم وضمائرهم التي كانت تطلق تلك الاحقاد، والبغضاء، والاوحال، على كل الناس، على كل الأشياء بواسطة اللغة التي اصبحت حراما.

ان عليهم ان يتعلموا فن الاشارة، ان يحافظوا عليه.

ان عليهم ان يحذروا الاشارة بالرأس أو بالفم، أو بالقلب، أو اليها... انها اعضاء محرمة... ان الاشارة اليها وبها محرمة.

"وانه لمشروط عليهم - اذا ابيح لهم التخاطب بالاشارات - إلا تنطلق منهم اية اصوات حين استعمال الاشارة، لأن الاصوات قد تتحول الى تعبير كاللغة أو اشد.

انها قد تتحول الى تعبير اقوى من تعبير اللغة عن البذاءة والتحقير، والعدوان، والاهانات، وعن الغباء، وعن ضعف المستوى الإنساني والحضاري.

"وانه لمشروط عليهم كذلك ان يمارسوا الاشارات بتهذيب، وباسلوب لا يستطيع لتهذيبه ان يذكر بمستوى ممارستهم للغة... للغة التي اصبحت حراما.

"ان عليهم ان يكون تخاطبهم بالاشارات مهذبا الى المدى الذي ينسي عهد تخاطبهم باللغة...

ان عليهم ان يكفروا، ان يتعذبوا، ان يكونوا في تعذبهم، في تفكيرهم نبلاء، ان يكونوا شهداء، ان يكونوا عقابا لأنفسهم، ان يكونوا اعتذارا عن انفسهم، ان يكونوا كفارة.

رابعاً:

"مأذون لهم - ان ارادوا - بأن يتقدموا كل عشر سنوات من سنوات الصمت المفروض، الى اية هيئة دولية بالتظلم، أو بطلب العفو والغفران، أو بوضعهم تحت الاختبار من جديد ليجربهم العالم، ليجربوا انفسهم هم.

"اننا مطالبون قانونيا واخلاقيا بأن نستمع الى أي طلب يتقدمون به.

"اننا مطالبون بأن نحرضهم على ان يتقدموا بطلباتهم، ان يحاولوا فك حصار التحريم عن انفسهم.

انه ليس بجائز ان نحرص على ان يظلوا محكومين بالمائة السنة المحرمة.

اننا لا نعاقب... اننا لا ننوي ان نعاقب...

اننا نطهر... نحمي...

خامساً:

"اذا انقضت المائة السنة وهم لا يزالون تحت قرار التحريم، اصبح مفروضا على اقطاب العالم ان يجتمعوا لمراجعة قرارهم.

وعلى اقطاب ذلك العصر الذي سيكون بعد مائة عام، على اولئك الاقطاب الذين يفرض عليهم ان يجتمعوا في ذلك التاريخ، ان يقرروا تحت ظروفهم التي لا يمكن ان نعرف كيف ستكون، ماذا الذي ينبغي ان يتخذوه من قرارات أو من مواجهات، كيفما كان الواقع الذي لا بد ان يجدوه بعد ذلك الاجل البعيد.

سادساً:

"في هذا القرار انذار لكل الذين يهبطون بلغتهم الى المستوى الذي هبط إليه العرب... الذي هبط إليه الثوار والتقدميون العرب بلغتهم.

ان على جميع من يحولون لغتهم الى ما حول إليه العرب... الثوريون العرب لغتهم، ان يتوقعوا اقطابا يحرمون عليهم اللغة، مثل الاقطاب الذين حرموا على العرب اللغة.

"وانهم لكثيرون اولئك الذين يعلمون لغتهم ما علم الثوريون العرب لغتهم من فنون العار والفضح الحزين.

"وهل يعني هذا ان تحرم في يوم ما جميع اللغات.... ان يحرم على جميع الشعوب والمجتمعات ان تتكلم اية لغة من اللغات...؟

"انه لواقع لا يمكن اخفاؤه ان اللغات في كل العالم تتحول - وان كان على مستويات متفاوتة - الى اجهزة خطر...

انها تتحول بالتصاعد الى اجهزة عدوان، وبغضاء وتحريض.

اننا جميعا نتحدث عن نزع السلاح وتحريمه، ولكن اليست اللغات قد اصبحت أيضاً اسلحة شريرة...؟

هل تحدثنا عن خطر اللغات... هل تحدثنا عنها كسلاح فيه كل الخطر وديمومته وشموله... هل اقمنا مؤتمرات اقطاب لتحريم اللغات تحريما دوليا كتحريم السلاح...؟

"ان الزعماء الثوريين في العالم الناشئ، يحولون اللغات، وكأنهم يمارسون اسمى البطولات، الى اسلحة قتال.

ان هذه اللغات هي التي تصنع السلاح.

انها هي التي تحوله من جهاز ميت الى سلاح مقاتل.

انها هي التي تحوله من قطع ميتة كقطع الحديد، والحجارة، والخشب، الى اجهزة قتل وتدمير شامل.

ان السلاح بدون هذه اللغات، يظل كائنا صامتا وقورا، حتى تحوله هذه

اللغات الى جنون، وصياح، وتدمير رهيب...

"اننا نصدر هذا القرار، ونحن نمضغ الحزن، والحرج، والمرارة.

"اننا لا نصدر هذا القرار بمشاعر من يصدرون حكما على مذنب... اننا نصدره بمشاعر من يمنعون مريضا من تناول الطعام، من ممارسة المسرات.

"اننا ونحن نصدر هذا القرار نعاني معاناة من يبتلعون كل حقارات التاريخ، كل اوحاله، كل ذنوبه.

"اننا نصدر هذا القرار، وكأننا نضع فوق ضمائرنا، كل خطايا الكون وآلامه.

"اننا نصدر هذا القرار، وكأننا نعتذر ونطلب الصفح، لا كأننا نصدر قرارا أو حكما.

"اننا محكومون بقرار، حينما نبدو وكأننا نصدر قرارا.

"اننا محكوم علينا هنا... اننا محكوم علينا.

"اننا يجب ان نحمل الثوريين والتقدميين العرب اثم ذلك.

"ان العار الذي حملوه اللغة، وحملتهم اياه اللغة، هو الذي جمعنا هنا.

"انه هو الذي اصدر هذا القرار.

*

انتهى القرار الدولي العجيب.

وفجأة وبقسوة، اجد نفسي مطرودا الى اليقظة التي كنت فيها، لأتلمس كل الأشياء التي تركتها، لأجد كل شيء كما تركته، لأجد كل الأجهزة، الصحفيين والمعلقين والمذيعين، كل الأدباء، كل من يدعون مفكرين وعلماء، لأجد كل شيء كما تركته.

لأجد الثائر البطل يخطب كما تركته، يخطب بنفس الاسلوب، ونفس

المستوى، ونفس اللغة.

لأجد كل الأجهزة، كل المعلقين، كل المذيعين، كل الكتاب، كل من يزعمون ادباء وعلماء ومفكرين.

لأجد كل هؤلاء يتحدثون عن خطابات الثائر البطل، يتحدثون بها كل العالم، يفاخرون بها كل العالم، يشتمون بها كل العالم، يفسرون بها كل العالم، كل احداث العالم، يبصقون بها على كل وجه في العالم، على كل ذكاء في العالم، على كل كرامة في العالم.

وفجأة وبقسوة، اجد نفسي منفيا الى اليقظة، لأجد كل العالم غافرا مقرا لكل العار، لم يغضب و لم يستتر، لم يجتمع اقطابه، لم يصدروا قرارا يحرم اللغة على المفتضحين.

لأجد كل العالم مشغولا بصغائره، وهمومه وتفاهاته الخاصة... مشغولا بمنافساته، وعداواته ومخاوفه وأحقاده المتحاربة... مشغولا بفضائحه ذات المستوى، عن فضائح هذا الثائر البطل ذات المستوى الآخر... مشغولا بمشاكله.

وفجأة وبقسوة، اجد نفسي منفيا الى اليقظة، لأجد كل من في العالم مشغولا بممارسته لتفاهاته ومسراته، عن التفكير في أحزان من يعاقبون من العصاة والزنادقة في الجحيم... مشغولا عمن يعذبون هناك... مشغولا.

لأجد كل من في العالم مشغولا بالتحديق الى وجهه، عن النظر الى الآلام والعار في وجوه الأشياء وفي اخلاقها... في وجه الشمس، في اخلاقها... في وجه القمر، في اخلاقه.

لأجد كل من في العالم مشغولا بمشاكله، بممارسته لذنوبه، عن الغضب لكرامته... مشغولا بهمومه ذات المستوى البرغوثي، عن هموم النجوم ذات

المستوى الكوني.

ان كل كائن في هذا العالم لتشغله آلام البرغوث التي يعيشـــــها، دون آلام النبي التي لا يعيشها.

ان كل كائن في هذا العالم ليغضبه جوع البرغوث الذي يعنيه، دون جـوع الشمس الذي لا يعنيه.

ان انتحار الشمس التي لا نتعامل عليها، لن يصنع لنا شيئا من الانزعـــاج الذي يصنعه لنا انتحار الشمعة التي نتعامل عليها.